توني ماغواير

لا تخبري ماما

المركز الثقافي العربي

القصة الحقيقية التي أذهلت 600 000 قارئ

توني ماغواير

لا تخبري ماما

ترجمة: محمد التهامي العمّاري



المركز الثقافي العربي

العنوان الأصلي للرواية:

Toni Maguire
Don't Tell Mummy

الكتاب

لا تخبري ماما

تأليف

توني ماغواير

ترجمة

محمد التهامي العمّاري

الطبعة

الأولى، 2016

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-803-9

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651
فاكس: 305726 522 212+
Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 750507 01 ـ 352826 01
فاكس: 343701 1 961+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

إلى كارولين التي فتحت لي الباب
وشجّعتني على تجاوزه.

1

لم تكن البناية الواقعة في ضاحية بلفاست الهادئة تختلف في شيء عن باقي البنايات. بنيان ضخم من القرميد الأحمر، يبعد قليلاً عن الطريق، وتحفّ به الحدائق. كان أشبه بأيّ منزل عائلي كبير. ألقيت نظرة أخيرة على الورقة في يدي لكي أتثبّت من العنوان: الرقم الموجود على الحاجز يؤكد أنّ هذا هو العنوان الذي أبحث عنه.

لم أطق الانتظار فحملت حقيبتي التي وضعها سائق سيارة الأجرة على الرصيف، وتقدّمت في الممشى ثمّ دفعت الباب وأعلنت لموظفة الاستقبال: «أنا توني ماغواير ابنة روث ماغواير».

نظرَت إليّ باستغراب وقالت: «نعم، لقد أخبرتنا أمّك هذا الصباح بمجيئك. لم نكن نعلم أنّ لها بنتاً».

قلت في نفسي: هذا ما كنت أتوقّعه.

«تعالي، سأرافقك إليها. إنّها بانتظارك».

وسارت بخفّة في الممرّ الذي يقود إلى الغرفة التي ترقد فيها أمّي مع ثلاث عجائز. تبعتها وأنا حريصة على إخفاء مشاعري.

كان ثمّة أربع عجائز جالسات على كراسي موضوعة قرب مناضد أسِرّتِهن. وكانت على تلك المناضد صور أحبّتِهنّ باستثناء

منضدة أمّي التي لم يكن عليها شيء. وشعرتُ بوخز كان مألوفاً لدي. لم تضع عليها ولو صورة واحدة من صوري وأنا رضيعة.

كانت جالسة على المقعد وقد غطّت ركبتيها ببطانية، ووضعت ساقيها على مسند. لم تعُد تلك المرأة المتينة التي رأيتها خلال زيارتي الأخيرة لإيرلندا قبل سنة من ذلك، والتي كانت تبدو أصغر من سنّها بعشر سنوات. صارت امرأة ضعيفة مهزولة، يبدو أنّ مرضها بلغ طوره الأخير.

وبينما مدّت ذراعيها نحوي، اغرورقَت عيناها الخضراوان اللتان طالما التمعتا من الغضب. تركتُ حقيبتي تسقط على الأرض وارتميتُ في حضنها. لأوّل مرّة منذ سنوات قبّلتني وقبّلتها، فاستيقظ حبّي لها بعد سبات طويل. وهمستْ:

- جئت!

فأجبت بهدوء وأنا أكشف بذهول عن كتفيها النحيلين اللذين ارتسمت عظامهما تحت اللباس:

- لو طلبت منّي أن آتي، لكنت أتيت قبل الآن.

دخلت إحدى الممرّضات وسارعت إلى تسوية البطانية فوق ساقيها، ثمّ التفتت إليّ وسألتني بأدب عن سفري من لندن.

فأجبت:

- لم يكن سيّئاً، عدا أنّي أمضيت ثلاث ساعات في البحث عن العنوان.

قدّمت لي كوب شاي تناولته بامتنان ورحت أحدّق فيه ريثما استعدتُ رباطة جأشي. لم أرغب في أن يفضح وجهي الصدمة التي شعرتُ بها أمام الوهن الذي أصاب والدتي. لقد سبق أن أقامت في

الملجأ لتلقّي علاج مسكّن للألم، لكنّني كنت أعلم أنّ هذه الزيارة ستكون الأخيرة.

لمّا علم الطبيب الذي يعالج أمّي بمَقْدمي، جاء لمقابلتي. كان رجلاً وسيماً وبشوشاً.

سألها: «هل سرّتك زيارة ابنتك يا روث؟».

فردّت بصوتها المميّز، وبنبرة محايدة كما لو كانت تتحدّث عن الجوّ:

- أنا في غاية السعادة.

التفتَ إليّ، فلمست في عينيه الاستغراب نفسه الذي أخفقت موظفة الاستقبال في إخفائه. وقال:

- هل يمكن أن أدعوك توني. سمعت أمّك تدعوك بهذا الاسم.

- بالطبع.

- أريدك في كلمتين بعدما تفرغي من شرب الشاي. تعالي إلى مكتبي، ستدلّك عليه الممرّضة.

وانصرف بعدما ابتسم بلطف لأمي.

تمهّلت في شرب فنجاني. كنت أعلم أنّ هذا اللقاء سيكون شاقّاً، ثمّ قصدت على مضض مكتبه لأرى فيمَ يريدني.

لمّا دخلت المكتب، فوجئت بوجود رجل جالسٍ بجواره. لا شيء يشير إلى أنّه قسّ سوى ياقته الرومانية. جلستُ على الكرسي الوحيد الشاغر، ومضيت أنظر إلى الطبيب نظرة محايدة، وانتظرت أن يبادرني بالحديث. وما إنْ شرع يستعرض الوضع بهدوء حتى انقبض قلبي. أدركتُ أنّني مطالبة بالإجابة عن جملة من الأسئلة،

وهي أجوبة كنت أستنكف من التفكير فيها، لأنّني إن فعلت، سأحرّر عفاريت طفولتي من قمقمها.

«واجهتنا مشاكل في علاج أمّك، ونأمل أن تساعدينا على فهم السبب. مضادات الألم لم تأتِ بالنتائج المنتظرة. لا أخفي عليك أنّنا نقدّم لها أقصى الجرعات».

صمت قليلاً في انتظار جواب، وحين تأخّر استرسل يقول:

«فهي تتصرف بلطف مع الموظفين المشرفين على علاجها خلال النهار. تتركهم يرافقونها إلى المقهى، وتعتني بنفسها، وتتمتّع بشهية طيّبة. المشكلة تطرح خلال الليل».

صمت من جديد، لكن وجهي ظلّ جامداً. لم أكن مستعدّة للتفوّه بأيّ شيء. وبعد بضع ثوانٍ استأنف كلامه بثقة أقلّ.

«تعاني أمّك من اضطراب بالغ في الليل، وتتألّم أكثر ممّا ينبغي. تبدو كما لو أنّها تقاوم ما تتناول من أدوية».

وقلت في نفسي: يا لهذه الساعات الحالكة! كنت أعرف تمام المعرفة هذه اللحظات التي لا يعود فيها المرء قادراً على التحكم في أفكاره، تعاوده أحلك الذكريات، فيستحيل عليه النوم. يستبدّ به اليأس والغضب والخوف والشعور بالذنب. لمّا يحدث لي ذلك، أستطيع مغادرة الفراش، وتحضير الشاي، وتناول كتاب أو الإنصات للموسيقى، لكن أمّي ماذا عساها تفعل لتتخلّص من تلك الأفكار السوداء؟

«طلبتُ من الممرضة مرّتين أن تنادي على القسّ». ثمّ التفت إلى جليسه وقال: «لكنّ صديقي أخبرني أنّه ما إن يصل حتى تكون قد غيَّرت رأيها، فترفض التحدّث إليه».

أومأ القسّ برأسه مؤيداً، وشعرتُ بالعيون تتفرّس وجهي بحثاً

عن جواب. وهذه المرّة كان القسّ هو مَن كسر الصمت. مال على المكتب وسألني: «هل ثمّة شيء يمكن أن تخبرينا به يا توني، قد يعيننا على مساعدة أمك؟». لمستُ في نظرته قلقاً حقيقياً، فحرصتُ على انتقاء ألفاظي بعناية.

«أظنّ أنّني أفهم سبب الاضطراب الذي ينتاب أمي ليلاً. فهي امرأة مؤمنة، وهي تعلم بدنوّ أجلها، وأظن أنها خائفة من الموت. وددتُ لو كان بمقدوري مساعدتكما. أتمنى أن تجد القوّة لكي تبوح لكما بمكنون نفسها».

بدت الحيرة على وجه الطبيب. «هل تقصدين أن أمك تشعر بأنها اقترفت ذنباً عظيماً؟».

وفكّرت في كلّ الآثام التي يمكن أن ترزح على ضمير أمّي، وتساءلتُ ما إذا كانت ذكرياتها تطاردها. وأجهدتُ نفسي لأسيطر على مشاعري ولا أتركها تبدو عليّ، لكنّني لم أستطع منع نفسي من الإجابة وأنا أتنهّد:

«لعلّها فعلت. لكنّني لست أدري ما إذا كانت اعترفت يوماً بأنها ارتكبت عملاً سيئاً».

بدا الارتباك على الطبيب.

«في هذه الحالة، لهذا الأمر تأثير أكيد على علاجها. لمّا لا تنعم الروح بالسكينة، وهذا حال أمك، لا تكون الأدوية فعالة 100%».

فقلت بنبرة حادّة بينما كان شعور بالعجز يتنامى بداخلي:

– في هذه الحالة، الأَوْلى مراقبة أمّي والدواء الذي تتناول.

بهذا انتهت المقابلة، فعدتُ إلى غرفة أمّي.

لمّا دخلت الغرفة، حدّقتْ في عينيّ وسألت:

- ماذا يريد الطبيب؟
كنت متأكّدة من أنها تعلم.
- أخبروني بأنّك طلبت القسّ مرّتين في جوف الليل، وأنّك كنت في منتهى الاضطراب.
ثمّ تلاشت شجاعتي كالعادة، فاستطردتُ قائلة:
- لكن لا داعي للقلق، أليس كذلك؟
كنت معتادة في طفولتي على الانصياع لإرادتها «لا جدال فيما تقول». وهي عادة صمدت أمام الزمن.
قضت ما تبقى من ذلك الصباح في النحيب. ورغم علمي بأنّ هذا الأمر معهود لدى المرضى المشرفين على الموت، فإنّ بكاءها شوّشني. مسحتُ دمعها برفق كما كانت تفعل معي لمّا كنت طفلة صغيرة. وأبدت لي من الحنان أكثر ممّا فعلت خلال سنوات عديدة. كانت ترغب في الإمساك بيدي، والتحّدث إلي، وتذكّر الأيام السعيدة. تفرّستها، فوجدتها امرأة شاخت ولا يبدو أنها ستنعم بالسكينة التي طالما تمنيت لها في آخر أيامها. وأدركت مدى حاجتها إليّ.
سألتني:
- كم ستمكثين؟
أجبتُ بصوت خفيض محاولة إخفاء مشاعري.
- طالما أنت بحاجة إليّ.
اكتفت بالابتسام. كانت خبيرة بقراءة أفكاري.
توالت ذكريات شبابها في ذهني، وذكرى اللحظات التي كنا فيها متفاهمتين. وشعرتُ بدفق من ذلك الحب القديم يجتاحني.

قالت وهي تبتسم ابتسامة ساخرة:

- لست أعرف المدّة. لكنّني لا أظنّها ستطول.

صمتت ثمّ قالت وهي تنظر إليّ:

- ما قدِمت إلا لأنّك تعلمين أنّني سأموت، أليس كذلك؟

ضغطتُ بيدي على يدها ومضيتُ أدعكها بلطف بإبهامي.

- أتيت لأنك طلبت منّي المجيء. لو طلبتِ مني ذلك قبل الآن، لكنتُ أتيت. أجل، لقد جئتُ لأساعدك على أن تموتي بسلام. أعتقد أنّني الوحيدة مَن تستطيع أن تفعل ذلك.

كنت آمل أن تجد الشجاعة لكي تبوح لي بمكنون قلبها، وظننتُ أنها ربّما ستفعل في أي لحظة من لحظات ذلك اليوم الأول.

سحبَت يدي إليها وقالت:

- أسعد مرحلة من حياتي يا توني هي لمّا كنتِ رضيعة. ما زلتُ أذكر تلك الفترة كما لو كانت بالأمس. لمّا ولدتك على سرير المشفى، كنت فخورة بإنجابك وأنا في التاسعة والعشرين. كنتِ صغيرة للغاية ورائعة. أحببتك كلّ الحب، وتمنّيت أن تعيشي حياة سعيدة. غمرني في تلك اللحظة حنان وحب لا حدود لهما.

شعرت بغصّة في حلقي وأنا أتذكر ما كانت تحيطني به من حبّ قبل ذلك بسنوات. كانت تحضُنُني وتلاعبني، وتقرأ لي القصص ثمّ تسحب عليّ الغطاء في السرير. وكنت أشمّ عطرها لما كانت تنحني عليّ لتقبلني قبل النوم.

وتسلّل صوت طفلة صغيرة إلى ذاكرتي، همس: «أين اختفى كل ذلك الحبّ يا توني؟ اليوم هو ذكرى ميلادك. تقول إنّها تذكر ميلادك، وتذكر حبّها لك، لكنّها بعد أربع عشرة سنة من ذلك،

كادت تتركك تموتين. ألا تذكر هذا الأمر؟ ألا تظن أنك تذكرينه؟ أطَرَدَت هذه الذكرى من ذهنها؟ وأنت؟».

حاولتُ إخراس الصوت. أردتُ أن تظلّ ذكرياتي في القمقم الذي حبستها فيه منذ ثلاثين سنة، لا أراها ولا أفكّر فيها إلا عندما تحرّرها اللحظات الحالكة، فتتمكن من التعلّق بحلمٍ آيل للزوال. عندها تلامس مجسّاتها الباردة لاوعيي، تتسلّل صور غامضة من الماضي، توقظني فأسارع إلى طردها.

في وقت لاحق من هذا اليوم، رافقت أمي على مقعدها المتحرك في نزهة بالحديقة. لطالما رغبتْ في أن تنشئ حدائق جميلة، كما لو أنّ غريزة الأمومة لديها، بانفصالها عنّي، انصبّت على النبات.

طلبت منّي مراراً أن أقف أمام النباتات والشجيرات لتذكر لي أسماءها. وهمستْ بصوتٍ مفعم بالحزن كما لو كانت تخاطب نفسها: «لن أرى حديقتي ثانية».

أذكر أنّني زرتها في بداية مرضها. كان ذلك خلال إقامة لي بإيرلندا الشمالية بصحبة إحدى الصديقات. اغتنمتْ فرصة غياب والدي الذي ذهب ليلعب الغولف، فأرتني بفخر صورة حديقتها قبل أن تشرع في غرسها. كانت عبارة عن أرض خلاء تكسوها الأعشاب الطفيلية، لا تظهر فيها ولا زهرة برية واحدة.

وبينما كنا نتجوّل، أرتني شيئاً أثار ابتسامتي على الفور. ذلك أنني كنت أبعث لها في ذكرى كلّ عيد أمّ نبتة، كانت تغرسها مع فسائل أخرى في أوعية من مختلف الأشكال: في أحواض مطبخ قديمة وأوان خزفية. بحيث جعلت من فناء الدار فضاء يفيض بالألوان.

ذكرت لي ذلك اليوم أسماء كلّ شجيراتها. «هذه هي شجيرتي المفضلة، شجيرة بَدَليا، لكن ما يعجبني فيها أكثر هو لقبها: شجرة الفراشات».

في تلك الأثناء حلَّق سرب من الفراشات فوق أزهار الشجيرة البنفسجية كما لو أنه جاء لمباركة تلك التسمية الشعبية. وعلى مبعدة منها نشَرَ حوض من الورد أريجه المُسكر. كانت ألوان بَتَلاتِهِ تتراوح بين الأبيض والوردي الداكن. وفي مكان أبعد، بدت الزنابق الأثيرة لدى أمي. وامتزجت في جزء آخر من الحديقة الأزهار البرية بالأزهار المغروسة.

قالت مداعبة: «بما أنها تبدو جميلة، فهي ليست طفيليّة».

كانت المماشي مكسوة بالحصى، تحفّ بها أقواس من السلك ينتشر حولها الياسمين وسلطان الجبل. وأسفل أحد هذه الأقواس استقرّ حشد من تماثيل أقزام الحدائق[1] كانت تقول عنها: «هذا هو نصيبي من العبث».

بدت هذا اليوم سعيدة وهادئة إلى حد جعلني أحفظ هذه الذكرى الثمينة بعناية في ذاكرتي حتّى أعود إليها لأستمتع بها أيّان شئت.

وفي اليوم الموالي أهديتها سقيفة حديقة، وقلت لها وأنا أعلم أنها لن تستمتع بها أكثر من موسم صيف واحد: «هكذا تستطيعين الاستمتاع بحديقتك مهما كان الجوّ».

بهذا النحو أنشأت حديقة إنجليزية بإيرلندا الشمالية، البلد الذي لم تعتبره قط بلدها، والذي شعرت فيه بالغربة على الدوام.

---

(1) هي عبارة عن تماثيل أقزام صغيرة ذات لحى بيضاء ووجوه وردية وطرابيش حمراء، تزيّن بها الحدائق. (المترجم)

استرجعتُ هذه الذكرى، فساورني حزن عميق عليها. ذلك بأن أمي المسكينة حلمت بحياة وحاولت أن تجعل منها حياتها في الواقع.

كان جزء من نفسي مغتبطاً بكوني معها في الملجأ رغم ضعفها. أخيراً أستطيع قضاء وقت معها بمفردنا، وقت كنت أعلم أنه يتضاءل دقيقة بعد أخرى.

ساعدتُ ذلك المساء الممرضات على وضعها في فراشها. قبَّلتها على جبينها، وقلت لها: «سأنام على الكرسي بجوارك. لن أكون بعيدة عنك».

لما ناوَلَتْها الممرضة المنوّم، جلستُ بجوارها، وأمسكتُ بيدها الهزيلة. كانت بشرتها تحزّزها شرايين زرقاء شبه شفافة، وأظفارها مقلّمة ومصبوغة بلون وردي فاتح. يبدو أن أحدهم اعتنى بها ولمّعها. لم تعُد تشبه في شيء تلك الأظافر الترابية اللون التي رأيتها خلال زيارتي السابقة.

لمّا غلبها النوم، تناولتُ رواية لمافيس تشيك، وأخذتُ مكاني في الصالون. اجتاحني حزن عميق وأنا أفكر في أمي العزيزة التي تُحتَضر. رغم كلّ الأذى الذي لحقني منها، وكل ما اقترفته في حقّي، ساورني الحزن لأنها لم تعِش قط لحظة سعيدة واحدة في حياتها. وبكيت على العلاقة التي طالما حلمتُ بأن تقوم بيني وبينها.

لم أستطع تلك الليلة أن أقرأ كتابي، لأنني فقدتُ السيطرة على ذكرياتي. كانت الذاكرة تعود بي باستمرار إلى تلك الأيام السعيدة التي أمضيناها معاً، حين أشعرتني بأنني محبوبة ومحمية. وهي أيام ظلت في ذاكرتي منيرة قبل أن يعُمّ الظلام.

في هذا الهزيع الأخير من الليل الذي يكون فيه وعي المرء ما

زال غافياً، وتفارقه الأحلامُ، عادت إليّ الطفلة أنطوانيت بلباس رمادي ووجه أبيض كالعاج، يتلألأ تحت ذؤابتها البُنيّة.

همست:

- لماذا لم تسمحي لي قط يا توني بأن أكبُرَ؟

وهتفتُ بصوت خافت محاولة صدّها بكلّ ما أوتيت من قوّة:

- دعيني عنك.

فتحت عينيّ، لم تكن هناك غير ذرّات غبار متطايرة في الهواء، لكنني ما إن وضعتُ وجهي بين يديّ حتى شعرتُ بدموع طفولية تنهمر من عيني.

وهمست ثانية:

- لقد حان الوقت يا توني لأحكي لك ما وقع حقيقة.

كنت أعلم أنّ أنطوانيت استيقظت، وأنّني لن أستطيع إعادتها إلى النوم ثانية كما فعلت طيلة السنوات السابقة. أغمضت عينيّ، وتركت الصبية تنطلق في سرد قصتنا.

2

تعود ذكرياتي الأولى إلى منزل واقع بمنطقة كينت، تحيط به حديقة، كنت أعيش فيه مع أمي. وكانت جدتي، وهي امرأة ضئيلة، تتردّد علينا كثيراً. كنت لمّا أسمعها تنادي: «أين أنت يا أنطوانيت؟»، متظاهرة بالبحث عنّي، أترك ما أنا فيه، وأهرع لأرتمي في حضنها.

كانت تفوح بعطر مميّز، هو مزيج من رائحة البودرة والزنبق. عطر ظلّ مرتبطاً بها في ذاكرتي. حينما كنت أستنشقه، ألمس مدى الحبّ الذي كان يربط بيني وبينها.

كنا نذرع شارع تانتيردون الكبير حين يكون الجو مشمساً إلى أن نبلغ قاعة شاي ذات دعائم من خشب البلوط. وقد كنت أستعدّ لهذه الجولات استعداداً: أتخلّى عن ملابسي المعتادة لأرتدي فستاناً جميلاً. وتغسل أمي يديّ ووجهي، وتمشّط شعري.

أما هي فكانت تختار حذاء وحقيبة يد متناسقين، وتضع قليلاً من أحمر الشفاه، وشيئاً من البودرة على أنفها ثمّ نغادر البيت.

تدلّنا نادلة تلبس رداء بالأبيض والأسود على مائدتنا، فتُملي جدتي الطلبات: كعكات بالمربى والقشدة، تتبعها حلويات مكسوّة بطبقة من السكر الوردي والأصفر، ثمّ يقدّم عصير فواكه لي أنا، ولجدّتي وأمّي الشاي.

كانت أمي بفستانها ذي الياقة المستقيمة ورأسها العاري تتحدّث بلطف إلى جدّتي التي كانت تعتمُّ بقبعة مهما كان الجو. وكانت نساء بفساتين ملونة وقبعات من القش أو التوكة، تأتين لتحيّتهما باسمات، وتعلقن بأنّني كبرت، أو تتحدّثن عن الجو ذلك اليوم، وهو موضوع كان يبدو لي ذا أهمية بالغة بالنسبة إلى الكبار.

كنا نزور أحياناً السيدة تريفيت، وهي صديقة قديمة لأمّي، تعود صحبتهما إلى أيام الدراسة، وكنت أسعد بهذه الزيارة، لأنّها كانت تحضّر الحلوى بنفسها في كوخها الصغير ذي اللونين الأبيض والأسود. وكانت حديقتها الصغيرة ملأى بأزهار كوبية حمراء يحرِّكها النسيم فوق أسوار القرميد الواطئة. وكان قزما الحدائق البدينان المنتصبان وسط النباتات حاملين صنارتيهما، يأسران لُبّي. وقد تكون مدام تريفت هي مَن أوحت لأمّي بفكرة وضع القزمين في حديقتها.

تدقّ جدتي المقرعة المصبوغة حديثاً والمثبتة على الباب الأسود، فتهبّ مدام تريفت لفتحه وهي ترتدي وزرتها العريضة، فتنبعث من الداخل رائحة حلوى تشغفني.

تأخذني إلى المطبخ لتطلعني على كيفية تحضيرها.

كانت تعلّق أشرطة عريضة من الخليط الأبيض والأسود على معقف قرب الباب، فتضغطها وتمدّدها إلى أن يتضاعف طولها ثلاث مرات تقريباً. ثمّ تنزعها من المعقف، وتقطّعها إلى مستطيلات صغيرة قبل أن تقوم بلفّها.

كنت أنظر إليها مفتونة ووجنتيّ مطليتين بالخليط الذي كانت تذيقني منه، فأديره على لساني. ولمّا أشرب آخر قطرة من المحلى، أسألها سؤالي المعتاد:

- ممّاذا تُصنَع الفتياتُ الصغيراتُ يا مدام تريفيت؟

لم أملّ جوابها قطّ:

- كم يلزم أن أكرّر لك هذا الجواب يا أنطوانيت؟ من السكّر والتوابل بالطبع، ومن كل هذه الأشياء الطيّبة!

كنت أنفجر ضاحكة، فتجازيني بقطعة أخرى من الحلوى.

كانت أمّي في بعض الأيام تحدّثني عن الألعاب التي كانت تلعبها في طفولتها، وهي ألعاب عبرت الأجيال، ونقلها جيل عن جيل. كانت البنات تُلبِسن العرائس، وتصنعن عجيناً من الرمل بواسطة سطل ومجرفة صغيرين، لكن لعبتي المفضلة كانت هي التظاهر بشرب الشاي في سَفْرة أهدتها لي جدتي. كنت أبدأ بوضع الفناجين الصغيرة وصحونها على سماط، وأضع بجوارها إبريقاً وإناء حليب صغير. ثمّ أضع بعناية أطباقاً متجانسة. فإذا ما أعددتُ المائدة حسب ذوقي، اتخذتُ الأزهار والحصى كعكاً، ثمّ أوزّع ذلك على الدمى أو على الكبار الذين كانوا يرضون مشاركتي اللعبة. كنت أملأ فناجين شاي وهمية، وأمسح أفواه الدمى.

لم تكن أمّي تملك الكثير من الوقت للعب معي، بل كانت شغوفة بإلباسي ملابس جميلة تخيطها لي بنفسها في الغالب، وتقضي الساعات في تطريز صدّارياتي، وهي الموضة التي كانت سائدة آنئذٍ.

وقد طلبتْ من مصوِّر مُحترف ذات مرّة وأنا في الثالثة من العمر أن يلتقط لي صورة فوتوغرافية. ظهرتُ فيها وأنا أرتدي ثوباً قطنياً مطرّزاً بالأبيض، وقد وضعت ساقيَّ الصغيرين الممتلئين الواحد فوق الآخر، وعلت وجهي ابتسامة واثقة. بدوتُ طفلة مدلَّلة، وقد كنت أشعر فعلاً بأنني كذلك.

بل سجّلتني أمّي في مسابقة «ملكة جمال بيرز»[1]، وقد سرّها أن بلغتُ الأطوار النهائية. وهي ذكرى تخلّدها صورة فوتوغرافية تنتصب فوق المدفأة.

على أنّ هذه الأيام السعيدة التي قضيناها معاً كانت محسوبة. وقد لازمني حلم عودتها لسنوات عديدة، لكن لمّا قيض لهذا الحلم أن يتحقق بعد أزيد من عشر سنوات من ذلك، كان أبعد ما يكون عما تخيّلته.

قضى أبي في الجيش بضع سنوات بعد نهاية الحرب، ومن ثمة لم يكن يزورنا إلّا لِماماً. كانت كلّ زيارة من زياراته تخلق في البيت حالة استنفار. كان بالنسبة إليّ زائراً استثنائياً أكثر منه أباً. وقد كنا نقوم قبل قدومه بأسابيع بتنظيف شامل للبيت. ننفض الغبار عن الوسائد، ونلمّع الأثاث ونغسل الأرضية، وتفوح في البيت رائحة حلوياته المفضلة. وعند حلول اليوم المنتظر، تُلبسني أمي أزهى ثيابي وتكتسي هي أيضاً بأجمل حللها. وكنا نجلس عند النافذة ننتظر أن ينفتح الحاجز ويدوّي صوته. عندئذٍ كانت أمي تنطلق مسرعة إلى الباب، وترتمي في حضنه.

ما زلتُ أذكر أنه كان رجلاً فارع الطول وجذاباً. تتهلّل أمي من السعادة وتتضرّج وجنتاها. وقد كان يجلب لنا دائماً هدايا: جوارب حرير لأمي، وشوكولاتة لي أنا. كانت أمّي تفضّ غلاف هداياها بالتذاذٍ، وتحرص على ألّا تمزّق ورق التغليف لكي تستعمله لاحقاً. أما أنا، فكنت أمزق ورق التلفيف صارخة من الفرح. كان زائرنا

---

(1) مسابقة كانت تنظمها ماركة الصابون «بيرز» «Pears» ابتداء من خمسينيات القرن الماضي (المترجم).

الطيب يأخذ مكانه على أفضل أريكة ويمضي ينظر إلينا مبتسماً وهو يستمتع بفرحنا.

في عيد ميلادي الرابع، فتحتُ علبة ضخمة، فاكتشفت فيلاً كبيراً من القماش الأحمر. وجدته أجمل من كلّ الدمى، وسمَّيته جامبو. وصار من الصعب عليّ طيلة أشهر أن أفارقه. كنت أمسكه من خرطومه وأسحبه في كلّ ركن من أركان البيت. لم يكن يفارقني حتى في النوم، وكان يرافقني في كلّ خرجاتي.

بعد ذلك بأشهر، أعلن والدي نيّته في العودة إلى الحياة المدنية. قال لنا إنه يرغب في قضاء وقت أطول مع زوجته وابنته. تطلّقت أسارير أمّي لما سمعت ذلك، وبدت أنشط همّة في الأسابيع الموالية. وصارت تنتظر عودته على أحرّ من الجمر.

علمت يوم عودته من روائح الحلويات وعمليات التنظيف الشاملة التي أقيمت في البيت. لكنّه لم يعد إلّا بعد مضيّ ثلاثة أيام على الموعد. لم يأتنا هذه المرّة بهدايا. وفي غضون لحظات، غادر الهناء بيتنا إلى الأبد. وبدأت المشاحنات منذ ذلك اليوم.

فسّرت لي أمي بعد ذلك بوقت طويل أنّ سبب شجاراتهما هو شغف أبي بالكحول والقمار. لم أكن أعلم شيئاً من ذلك آنذاك، إلّا أنّ تلك المشاحنات كانت تزعجني. ذلك بأنّ أبي لمّا غادر الجيش حصل على مكافأة تقاعده، بدّدها كلّها في القمار قبل أن يعود إلينا. كانت أمي تأمل في أن نشتري بيتاً تجعل منه عشّاً دافئاً، لكن حلمها تبخّر. ولمّا باحت لي بهذا في إحدى لحظات الألفة النادرة بيننا، بدا لي واضحاً أنّ تلك الفترة كانت بداية سلسلة متتالية من الخيبات.

أدركت أمّي أمام العوز المادي ومسؤولية إعالة بنت تكبر، أنّ عليها أن تعثر على عمل إن شاءت أن تحقِّق حلمها بامتلاك منزل

ذات يوم، لكن الأمر لم يكن سهلاً. لم تكن رواتب النساء منخفضة بعد الحرب العالمية فحسب، بل كان الشغل نادراً أيضاً. ذلك أن الجنود الظافرين الذين بقوا في الجيش للمشاركة في إعادة إعمار ألمانيا المخرّبة، وجدوا أنفسهم يعانون من أزمة بطالة مستفحلة، وكذا من أزمة سكن ومن تقنين المؤن. على أنّ ذلك لم يثبط عزيمتها، فقد جدّت في البحث إلى أن عثرت على عمل في مرآب يبعد ببضعة كيلومترات عن البيت، يتمثّل في الإشراف على الصندوق ليلاً. وقد خوّل لها هذا العمل علاوة على الراتب، الانتفاع بشقة صغيرة مظلمة.

واجه أبي أيضاً صعوبة في العثور على عمل. ذلك بأنّه لم يجد سوى عمل بالمصنع ليلاً رغم أنّه ميكانيكي محنّك.

وأخذت حياتنا منحى مغايراً. كان أبي يعود كلّ صباح إلى البيت متعباً ومتبرّماً، فيتّجه مباشرة إلى فراشه لينام. أما أمي، فكان عليها أن ترعى البيت، وتعتني بطفلتها. ولم تكن تنام إلّا مدّة قصيرة حين تسنح لها الفرصة.

كانت جدتي تتردّد علينا بين الفينة والأخرى لتأخذني في جولة، لكنّ زياراتها كانت نادرة. لم يعُد بإمكاني أن أخلو إلى أمي ولو يوماً واحداً في الأسبوع. كنت أستيقظ صباحاً في هذه الشقة الضيقة، فأحضن جامبو وأضغطه إليّ، وألحق بأمي في المرآب وأنا لا أزال بالمنامة، وعيناي نصف مغمضتين. لم تكن في هذه الفترة تغضب منّي، بل كانت تحمل جسدي الصغير المثقل بالنوم بين ذراعيها ضاحكة، وتصعد بي إلى الشقة لكي تعيدني إلى الفراش.

قبل عيد ميلادي الخامس ببضعة شهور، انتقلنا ثانيةً، وهذه المرة إلى منزل ذي واجهة تطلّ على حديقة. فقد ترقّى في الشغل،

وحصل على عقد عمل ثابت براتب أعلى، ومواقيت عمل أنسب. أنهك العمل الليلي أمي. ولأوّل مرّة منذ عودة زوجها، قالت في نفسها إنّ بوسعها أن تتفرّغ للعناية بأسرتها.

آويتُ إلى فراشي ليلة عيد ميلادي وأنا متلهّفة لمعرفة الهديّة التي سأتلقى. كنت قد قضيت أسبوعاً بكامله وأنا أحوم بأمّي لعلّها تبوح لي بذلك، لكنها ظلت تتجاهل توسلاتي. تضحك وتقول إنّ علي أن أنتظر حلول يوم الاحتفال.

قفزت صباح ذلك اليوم من سريري عند الفجر، ورحت أفتّش عن هديّتي في الصالون لكنني لم أعثُر على شيء. ولمّا لمست أمي الخيبة في عيني، قالت لي بأنّنا سنزور بيت أحدهم، وأن الهدية موجودة هناك.

ما كدتُ أنهي فطوري حتى لبستُ ثيابي وتأهّبت للانطلاق. مشينا أنا وأمي يداً في يد إلى أن بلغنا محطة الأتوبيس. حملتنا حافلة حمراء ذات طابقين إلى قرية مجاورة، تبعد ببضعة كيلومترات. ثمّ قطعنا مسافة قصيرة مشياً على الأقدام إلى أن وصلنا إلى بيت لم تسبق لي زيارته. حيّرني الأمر، إذ لم تكن لدي أيّ فكرة عن طبيعة الهديّة. فالهدايا تُباع عادة في المتاجر.

لمّا طرقت أمي الباب، سمعتُ جوقة كلاب تنبح، فزاد شعوري بالإثارة. كنت لا أزال شديدة التعلق بجامبو، لكنني بدأت أضجر منه. ما كان يشغفني آنذاك هو كلب صغير. فهل سيتحقّق حُلمي؟

فتحت الباب امرأة قصيرة وبدينة ذات شعر رمادي، يحيط بها عدد من كلاب «فوكس تيريي» سوداء، سلكية الشعر، تحرِّك أذنابها متقافزة. حاولتْ إسكاتها، وأدخلتنا إلى مطبخ واسع. زادت إثارتي لمّا رأيتُ قرب الموقد سلّة مليئة بجراء نائمة، وقربها لمحتُ كائناً

صغيراً ناعم الشعر، تتخلّله بقع سوداء كتلك التي توجد على الكلاب البالغة، وله عينان ماكرتان، يترنح على قوائمه المرتعشة، وهو يتشمّم محيطه بخطمه الأسود.

قبل أن تطلب أمّي من المرأة أن تريني جراء أخرى، رأيتني أسارع إلى أشدّها جرأة. جثوت على ركبتي قربه، فأدركتُ على الفور أنّه يريدني. حملته إلى صدري، وتشمّمت رائحته، فشعرتُ بلسانه الخشن يلحس وجهي بينما كان يتخبط بين يدي. وقع توافق بيننا على الفور، وصار أو بالأحرى صارت أعزّ صديقة في طفولتي.

سألتني أمي:

- أهذه التي تفضلين؟

لمحتْ وجهي المتهلل، فلم تعد بحاجة إلى جواب.

- هي لكِ إذن. هذه هديّة عيد ميلادك.

شعرتُ بأنفاسي تنقطع. لقد تحقّقت أغلى أمنياتي. قبَّلت رأس الحيوان الصغير محاولة أن أعبّر له عن حبّ أموميّ وأنا لا أزال في الخامسة من عمري.

سألتني أمي:

- ماذا ستسمينه؟

وتذكرت حيواناً صغيراً وجسوراً آخر. شخصية رأيتها خلال يوم رائع قضيته في الشاطئ قبل ذلك بأشهر. فقد أخذتني جدتي بالقطار إلى رامسغايت، وهي مدينة شاطئية تقع على ساحل «كينت». وبينما كنا نشتري مثلجات، لمحت أطفالاً يجلسون متحلِّقين تحت أشعة الشمس. كانوا يضحكون وهم مستغرقون في التفرّج على شيء لم أستطع تمييزه. سحبتُ جدتي من معصمها لكي ترافقني إلى حيث

يجلسون، فأبصرتُ فجأة شخصيّتَي بانتش وجودي[1] بقيت متسمّرة في مكاني، مذهولة ممّا كانا يقومان به من شقاوات حتّى أنّ المثلجات ذابت في يدي. كنت أصرخ لمّا يهاجم بانتش جودي، وأهتف فرحاً مع بقية الأطفال لمّا تردّ على ضرباته. وحتّى لمّا هبّ محرّك العرائس لاستجداء بعض القطع النقدية، بقي لغز الشخصيتين الصغيرتين ماثلاً في ذهني. لم أترك سؤالاً حول هذا العرض إلّا وطرحته على جدّتي التي أبدت من الصبر ما لا حدود له.

أجبت:

- سأسمّيها جودي.

ظلّ عيد ميلادي هذا أجمل ذكرى من ذكريات طفولتي.

سجلتني أمي في مدرسة خاصة صغيرة. كانت ترافقني باسمة كل صباح، وتنتظرني عند نهاية الدروس. كنت أتخيّل نفسي وأنا أرتدي زيّي المدرسي بنتاً كبيرة، بقلمي وممحاتي وكتبي الأولى المرتّبة بعناية في محفظة القماش التي كنت أحملها على كتفي. لم تكن جودي تغادر ذهني وأنا في المدرسة، وكنت أنتظر بفارغ الصبر رنين الجرس معلناً عن نهاية الدروس، فأتخلّص من زيّي المدرسي، وألتهم بسرعة وجبة ما بعد الظهر لكي ألعب معها الكرة لساعة. ولمّا كانت أمي تقدّر بأننا أنفقنا ما يكفي من الطاقة، تفتح باب المطبخ، وتأمرنا بالدخول، فكنت أخرج من محفظتي كتاب القراءة أو الحساب، وأجلس إلى مائدة المطبخ لأنجز تماريني، بينما تحضّر هي العشاء. أما جودي فكانت تستلقي عند قدمي منهكة.

وعند حلول أعياد الميلاد، لم تعُد جودي جروة، بل صارت كلبة صغيرة. اشتريتُ من مصروفي الشخصي حبل كلاب أحمر مع

---

(1) وهو عرض دمى شهير في بريطانيا (المترجم).

طوق بلون مناسب. وصرت منذ ذلك اليوم أخرج بفخر ملفوفة في معطفي الشتوي الدافئ الأزرق لكي أتجول مع جودي التي يحميها فروها من البرد. كنت أشعر بفرح غامر كلّما وقف أحدهم ينظر إلينا بإعجاب. وقد اكتملت فرحتي لمّا عادت جدتي تزورنا بصورة منتظمة. لم يشرح لي أحد سبب جفائها لنا. وقد اعترفت لي سنوات بعد ذلك بأنّها صدمت برؤيتنا نستقرّ في شقّة واقعة فوق مرآب، وأنّها لم تكن تستلطف أبي، ولم تقتنع يوماً بأنّه يستحق أمّي. ورغم أنني كنت أوافقها الرأي في ذلك الحين، فقد كان الأوان قد فات لكي نبسط الحديث في هذا الموضوع.

كانت جدتي مغرمة بجودي مثلي تماماً، وكانت جودي تبادلها الحب نفسه. كانت تحملها بين ذراعيها وتدغدغ بطنها، فكانت الكلبة تلحس وجهها ناشرة بذلك بودرتها المعطّرة.

كثيراً ما كانت جدتي تأتيني بالهدايا، ولا سيما الكتب، وكانت تقتطع من وقتها لحظات لكي تقرأها لي حين تكون أمي مشغولة.

لما أخبرني والدي في شهر فبراير/ شباط بأننا سننتقل للعيش في إيرلندا الشمالية، وهي بلده الأصلي، كدّرت فكرة البُعد عن جدتي حياتي البهيجة، لكن هواجسي سرعان ما تبدّدت بعد أن أكّدت لي بأنها ستزورنا باستمرار.

على أنّني لم أرها في الواقع إلّا بعد ست سنوات.

كتبنا لها رسائل كثيرة أخفينا عنها فيها حقيقة حياتنا الأسرية. لم تنسَ قط مراسلتنا في مناسبات أعياد الميلاد، لكن الرسالة التي تعلن عن مجيئها لم تصل أبداً. لم أكن حينئذٍ أعلم بالذرائع التي كانت تفتعلها أمّي لكي تصرفها عن المجيء. وتحوَّل حبّ جدتي شيئاً فشيئاً إلى ذكرى طوتها الأيام.

3

كانت كلّ أمتعتنا موضوعة على الأرض، وهي لا تتجاوز ثلاثة صناديق شاي صغيرة وحقيبة. كثيراً ما رأيتها خلال العشر سنوات اللاحقة تحزم وتحلّ إلى أن صارت في عيني رمزاً للخيبة. لكنّني رأيت فيها تلك المرّة، وأنا لا أزال في الخامسة من العمر، بداية مغامرة كبرى. دقّت أمي عشية السفر بانتشاء آخر مسمار في الصندوق الثالث، ولمّا وصلت الشاحنة الصغيرة، انطلقت رحلتنا.

كان أبي قد سافر إلى إيرلندا الشمالية قبل ذلك بأسابيع لكي يبحث عن سكن مناسب، ثمّ طلب منّا أخيراً أن نلحق به. وصلتنا رسالته التي طالما انتظرناها قبل ذلك بأسبوع، وتلت عليّ أمي مقاطع منها. قالت بنبرة متحمِّسة إنّه عثر لنا على بيت في الريف، لكن علينا قبل ذلك أن نزور عائلته المتشوّقة للقائنا. سنمكُث عندهم أسبوعين تقريباً ريثما يصل الأثاث والمتاع، عندئذٍ يمكن أن ننتقل إلى بيتنا الجديد.

لم تكن أمّي تتعب من ترديد أن إيرلندا ستروقني، وأنّ المقام هناك سيكون طيباً، وأن عائلتي الجديدة ستعجبني. وكانت تتحدّث عن مشاريعها بحماس. تقول إننا سنعيش في الريف، وسننشئ مزرعة

دواجن، ونزرع ما نحتاجه من خضر. كانت أحاديثها تذكّرني بكتاكيت بطاقات عيد الفصح الصفراء. وسرعان ما صار حماسي أكبر من حماسها. كنت أنصت باهتمام للمقاطع التي تقرأ لي من رسالة والدي. تحدّث فيها عن أبناء عمّي وعن البيت الريفي، وأفصح عن مدى شوقه إلينا. وقد تسلّلت سعادة أمي وهي تصف الحياة الرغدة التي تنتظرنا إلى نفسي.

حملت الشاحنة الصغيرة أثاثنا وأمتعتنا. تأمَّلتُ الغرف الفارغة وقد انتابتني مشاعر متداخلة: كنت متوجّسة من مغادرة هذا العالم المألوف، لكنّني متلهّفة لاكتشاف بلدي الجديد.

تناولت أمّي بعض الأمتعة الخفيفة، وأوثقتُ أنا رباط جودي. ينتظرنا سفر سيدوم أربعاً وعشرين ساعة. كان الأمر بالنسبة إليّ مغامرة، لكنّه كان بلا ريب محنة قاسية لأمّي. لم يكن مطلوباً منها مراقبتي ومراقبة الحقائب فحسب، بل كان عليها أيضاً أن تنتبه لجودي التي صارت كلبة مشاغبة.

حملتنا حافلة إلى محطة القطار التي تزينها أصص الزهور، ويعمل فيها حمالون طيبون. ركبنا قطاراً إلى ميدلاندس، ثمّ آخر إلى كرو. كنت أنظر من المقطورة إلى سحب البخار المنبعثة من القاطرة وأنصت إلى قعقعة العجلات المنتظمة، التي بدت كما لو أنها تردِّد: «نحن ذاهبون إلى إيرلندا الشمالية، نحن ذاهبون إلى إيرلندا الشمالية».

وجدتُ صعوبة في لزوم مكاني، لكن الإثارة لم تسدّ شهيّتي. لم تكن أمي تحبذ النفقات التي لا لزوم لها، لذلك أعدّت لنا ما نحتاجه من أكل خلال الرحلة. أزلت الورق المشمّع البني الذي يلفّ عدداً من ساندويشات لحم البقر المملح وبيضة قشرتها وأنا أنظر عبر

النافذة. وختمت غذائي بتفّاحة بينما راحت أمّي تسكب لنفسها فنجان شاي. كانت قد وضعت في علبة أخرى بقايا طعام لجودي، وقنينة ماء ووعاء بلاستيكياً. أتت الكلبة على طعامها بكامله، ولحست أصابعي على سبيل الشكر، ثمّ تكومت عند قدمي ونامت. وبعد أن فرغنا من الأكل، تناولت أمي من حقيبة صغيرة أخرى قماشاً مبلّلاً نظفت به وجهي وراحتيّ، ثمّ وضعت قليلاً من البودرة على وجهها وأحمر شفاه قانٍ على شفتيها.

كانت محطة قطار كرو أشبه بمغارة كبيرة صاخبة، قذرة ومعتِمة، لا تشبه في شيء محطات «كينت» الصغيرة الأنيقة. لفّتني أمي في معطف صوفي، وناولتني رباط جودي، ثمّ حملت الحقائب.

كان القطار المتوجه من كرو إلى ليفربول غاصّاً بمسافرين رائقي المزاج، معظمهم جنود عائدون في إجازة إلى بيوتهم. لم يتوانوا عن مساعدتنا في وضع أمتعتنا على الرفوف الموجودة فوق المقاعد. وحصلت جودي أيضاً على نصيبها من الثناء والمداعبة، وهو ما أبهجني. أمّا أمي الفاتنة، بشعرها الكستنائي المنسدل على كتفيها وقوامها الرشيق، فراحت تشرح لأكثر من جندي بأنّ زوجها ينتظرنا في بلفاست.

كنت أحمل معي كراسة تلوين وأقلاماً، ورحت أقاوم باستماتة حتى لا يغالبني النوم ويفوتني شيء خلال السفر، لكن عبثاً. فقد نمت من التعب.

لما استيقظتُ، كان القطار قد وصل إلى ليفربول. هناك رأيت السفينة لأول مرّة. لاحت لي من خلال دوامات الضباب: كتلة عظيمة رمادية مخيفة، تشرف علينا من أعلى، وتلقي بظلّها على حشد المسافرين المهرولين إلى جسرها ليقفوا في طابور عريض. كانت

أضواء الإنارة العمومية الخابية تنعكس على المياه اللزجة التي تتأرجح فوقها السفينة بلطف. وبما أنني لم أرَ إلى حدود تلك اللحظة غير مراكب صيد «رامسغايت» الصغيرة، تهيّبت من ركوب هذا العملاق. وبينما كنا واقفين في الطابور ننتظر دورنا لبلوغ الرصيف، شددتُ قبضتي على رباط جودي والتصقتُ بأمي.

وحين صعدنا إلى السفينة، رافقنا مضيف يضعُ على رأسه قبّعة بيضاء إلى قمرتنا الصغيرة من الدرجة الثانية. كانت مجهَّزة بكرسي خشبي وسرير عادي وحوض اغتسال.

علقتُ بارتياب: «أسنرقد معاً في هذا السرير؟!».

التصقتُ هذه الليلة بأمي، واستسلمتُ لتأرجح السفينة طيلة اثنتي عشرة ساعة، وهي مدّة الرحلة. لكنني لم أُصب بدوار البحر الذي عانى منه معظم المسافرين حسبما أخبرنا النادل حين أتانا بوجبة الفطور صباح اليوم الموالي.

بلغنا بلفاست قُبيل الفجر. وكان علينا أن نقف في الطابور من جديد لكي ننزل من السفينة. مضى بعض المسافرين يلوّحون بأيديهم وقد استندوا إلى الدرابزين. وبما أنّ قامتي لم تكن تسمح بأن أطلّ من ظهر السفينة، كان عليّ أن أسيطر على نفاد صبري. قامت السفينة بآخر مناورة قبل إنزال الجسر. وهكذا رأيت بلفاست لأوّل مرّة.

كانت أشعة الفجر الخافتة تتلألأ على حجارة الرصيف المبلّلة التي تذرعها عربات خشبيّة تجرّها أحصنة قزمة. وازدحم في أسفل جسر السفينة حشد من الناس علت وجوههم ابتسامات حفيّة. والتقى الأصدقاء والأحبة. أمّا أنا فخدشت مسامعي لهجة إيرلندا الشمالية الخشنة. وبينما رحنا أنا وأمي نجول بأعيننا بحثاً عن أبي، بدا لنا

كل شيء مختلفاً. ثم لمحناه معاً في وقت واحد: كان قادماً نحونا وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة. ضمّ أمي وضغطها إليه بقوة وقبّلها، ثمّ حملني بين ذراعيه وهو يهدهدني ويقبّلني على خدّي. تشمّمت جودي قدميه بحذر من دون أن تحرّك ذنبها.

عبّر لنا عن مدى شوقه إلينا، ومقدار سعادته بمجيئنا، وتلهّف جميع أفراد العائلة للقائنا. تناول حقائبنا ورافقنا إلى إحدى السيارات.

قال لنا وهو يغمز بعينه إنّه استعارها لكي نقطع آخر مرحلة من السفر. وتطلّقت أسارير أمي من الفرح: لقد حرص على أن يوفّر عليها ركوب القطار إلى كولراين، وأن يقضي معنا هذه اللحظات التي لا تقدّر بثمن.

تناول يدها وسمعته يقول لها بعد أن قطعنا هذا الشوط الأخير من السفر: «كلّ شيء سيتغير، سترين. سنعيش في سعادة ها هنا. سيكون الأمر جيداً بالنسبة إلى أنطوانيت أيضاً بفضل هواء الريف». ووضعت أمي رأسها على كتفه، فمال برأسه على رأسها للحظة. كانت سعادتهما في هذا اليوم جلية. أحسستُ بذلك رغم صغر سني.

لأول مرة شعرتُ بالإقصاء. لم يكن أبي ينظر إلّا لأمي، وكانت هي تبسم له. كانا مشغولين ببعضهما. وبينما رحت أتملّى المناظر الطبيعية، بدأ التوجّس يختمر بداخلي كما لو أنني حدست التحولات اللاحقة.

رأيتُ طيف الجبال الإيرلندية الزرقاء التي كان ضباب الصباح الباكر ما زال يحجب قممها. كانت البيوت المربّعة الواطئة، التي لا تشبه في شيء أكواخ «كينت»، تكسر رتابة تلك الخضرة الممتدّة على

مدى البصر. ورأيتُ في الحقول التي تفصل بينها أسوار صوان قصيرة، قطعاناً كثيرة من الغنم الملتصق بعضها ببعض لكي تحافظ على دفئها. وعبرنا قرى صغيرة يظهر فيها بيت صغير متواضع يأوي متجر بقالة يتزوّد منه سكان المنطقة. وفي أفنية الضيعات الصغيرة الموحلة، كانت ثمّة خنازير تتشمّم الأرض، ودجاج جائع ينقر التراب حوله. رأينا خلال عبورنا أطفالاً يلوّحون لنا بأيديهم، وكنت أرفع جودي إلى النافذة، ونردّ عليهم التحية.

قرّرت أن أحب إيرلندا، ومضيت أفكر في عائلتي الجديدة. كان تعلّقي بجدتي لأمي التي تركناها في بريطانيا كبيراً، ومع ذلك كنت متلهّفة لاكتشاف عائلتي الإيرلندية. حاولت أمّي أن تصفَهُم لي، لكنّني لم أستطع تصوّرهم. كنت أعلم أنّهم رأوني لما كنت رضيعة، لكنني لا أذكر منهم أحداً.

وسرعان ما تركت الحقول الصغيرة مكانها لطرق واسعة تحفّ بها مساكن كبيرة ذات حدائق مستطيلة واسعة أنيقة. وظهرت أبعد منها دور متشابهة ذات شرفات ناتئة مدوّرة وحدائق مستطيلة تفصل بينها شجيرات. ثمّ سرنا بجانب صفوف من المنازل المتماثلة والمتلاصقة، تحيط بها شجيرات غير مزهرة مسيّجة بجدار.

وما هي إلّا دقائق حتى اختفت الخضرة نهائياً، وصارت الشوارع ضيقة والمنازل معتِمة. توغّلنا بين دور صغيرة مشيّدة من القرميد الأحمر، تشرف مباشرة على الشارع. قال لي أبي إنّه شبّ في هذا المكان. هنا تقطن عائلته. رفعتُ رأسي، فأبصرتُ شارعاً لا يشبه الشوارع التي رأيتها من قبل.

رأيت نساء تضعن بكرات شعر على رؤوسهن وقد استندن إلى مداخل البيوت تراقبن أطفالاً قذرين يلعبون في المجاري. يثرثرن مع

جاراتهن في البيوت المقابلة، بينما استندت أخريات إلى الجدران ورحن يدخنّ وقد انتعلن شباشب، وكشفن عن سيقانهن. أبصرتُ أيضاً أطفالاً بثياب رثّة يلعبون الكريكت، بينما مضت كلاب هجينة تنبح بشراسة محاوِلَة التقاط الكرات. كان ثمّة أيضاً رجال يرتدون قمصاناً وحمالات بنطلون ويضعون قبعات على رؤوسهم، يتسكّعون على غير هدى وقد حشروا أيديهم في جيوبهم. بينما التمّ آخرون في جماعة بدت مستغرقة في نقاش ساخن.

لما وقفت السيارة، هرع إليها الكلاب بحيث تعذر علينا الترجّل. وبما أنني لم أكن متيقّنة من حسن نواياها، تناولتُ جودي بين ذراعيّ لأحميها. حرَّكت ذنبها على سبيل الشكر وتململت تعبيراً عن رغبتها في النزول. كانت بانتظارنا امرأة بدينة بيضاء الشعر، وضعت يديها على ردفيها وقد بدت على شفتيها ابتسامة عريضة.

عانقتْ أبي بحرارة ثم فتحت لنا الباب. وبعد أن اجتزنا عدّة أدراج عالية وجدنا أنفسنا مباشرة في صالون بيت جدي وجدتي الصغير.

كانت نار الموقد متأجّجة، تنشر دفئها في الغرفة الحاشدة بأفراد عائلة أبي. وقد كان الشبه كبيراً بين أبي وجدي وإنْ كان أقصر منه قامة. كان رجلاً ممتلئ الجسم، ذا شعر كثيف مجعّد ومسرّح إلى الخلف، لكن بريق شعر أبي البني صار لدى جدّي رمادياً تخالطه صفرة فاتحة. وكانت عيناه رماديتين على شاكلة عيني أبي، لكنه كان يكشف، لمّا يبتسم، عن أسنان صفراء مبقّعة لا صلة لها بأسنان ابنه البكر الناصعة البياض.

أمّا جدتي فكانت امرأة بدينة، ترتدي ثياباً سوداء، وتصفف شعرها على هيئة كعكة. وجنتاها حمراوان كتفاحتين، وعيناها

زرقاوان متلألئتان. وقد راقني كثيراً ما بدا عليها من ابتهاج وهي تتحرّك حولنا.

هتفت: «آخر مرة رأيتك يا أنطوانيت، كنت لا تزالين رضيعة، وها أنت الآن فتاة كبيرة!».

نادت على امرأة شابّة، وقدّمتها لي: إنّها العمّة نيلي. امرأة قصيرة، ذات شعر أسود، وعينين بنيتين، وهي عمتي الوحيدة.

ثمّ قدّم لي أبي رجلين قال إنهما أخواه الأصغران: العم تيدي والعم سامي. لم يكن إعجابهما بأخيهما الأكبر خفيّاً. لا يسَع المرء إلّا أن يحبّ تيدي، وهو مراهق بالغ النحول، أحمر الشعر، تزيّن وجهه ابتسامة ودود. أما سامي الذي يكبره ببضع سنوات، فبنيّ الشعر، وذو قسمات أحدّ منه. كان السرور بادياً عليه بمجيئنا، لكنه كان متحفظاً.

اقترح تيدي أن يأخذ جودي لنزهة قصيرة، فناولته الرباط بامتنان. وبما أنني لم أكن قد ألفتهم بعد، كنت لا أزال أشعر بالخجل، ولم أشأ المغامرة بالخروج مع هؤلاء الأشخاص الذين ما زالوا غرباء عنّي.

كانت جدّتي وتيدي يتحركان بهمّة من حولنا. وضعوا الطعام على المائدة، وسكبوا ماء مغلياً في إبريق الألمنيوم.

ثمّ قالت جدتي: «هيّا اجلسوا، لا شك أن الجوع قد نال منكم».

جلبوا مقاعد وضعوها حول المائدة الحافلة بأنواع الأطعمة، وراحوا ينظرون إلى جدتي وهي تملأ طبقي. كانت المائدة تضمّ تشكيلة من الساندويشات، بعضها بالمرتديلا أو لحم البقر المحفوظ المملّح، وبعضها بزبدة السمك. كان ثمّة أيضاً الخبز الإيرلندي

التقليدي المهيّأ بالحليب الرائب غير المنزوع الدسم، والكعك الإيرلندي الصغير السميك، المدهون بالزبدة ومربى الفراولة. ثمّ هناك كعكة كبيرة لا شك أنها تكفي لإطعام كلّ العائلة. لم يكونوا بحاجة إلى الإلحاح عليّ لآكل في خضمّ صخب أحاديث الكبار الذين أمطروا والدي بِوابِل من الأسئلة.

وما إن شبعتُ حتّى بدأ يغالبني النوم. ذلك أن حرارة الغرفة، وطول السفر ودسامة المأدبة، كل ذلك جعل التعب ينال مني. سمعت أصوات الكبار تردّد بنبرة ضاحكة أنّني نمت، وشعرت بذراعي أبي ترفعانني وتحملاني إلى حجرة موجودة في الطابق العلوي.

لما أيقظتني أمي، كانت الساعة قد جاوزت الرابعة بعد الزوال. ورغم أنني كنت لا أزال نائمة، تركتُ أمي ترفعني وتغيِّر ملابسي استعداداً لزيارة أخرى. ذلك أنّ كل أفراد عائلة أبي كانوا يرغبون في استضافتنا ولقائنا. وبما أنني كنت متعوّدة على أسرة أمّي، المؤلّفة من جدّتي وبعض أبناء أخوالي وخالاتي الذين قلّما كنا نراهم، شعرت بأنّني عاجزة عن حفظ ذلك العدد الكبير من الأسماء. تعشّينا عند أكبر أعمامي، وهو يقطن في الشارع نفسه. هيأ العمّ إيدي والعمّة ليلي - هكذا قدّموهما لي - وابنتاهما المراهقتان، ماتي وجين، مأدبة على شرفنا، قالوا إنّها تتضمن أطباقاً إيرلندية أصيلة: قطع دجاج كبيرة ولحم خنزير مدخّن أبيض ملبّس بخليط من العسل والخردل، وبيض مسلوق وطماطم حمراء وبطاطس مسلوقة بقشرها. وقدّموا لنا في التحلية كعكاً معدّاً في البيت مصحوباً بفناجين الشاي. وغمرني شعور من جديد بأنني مشمولة بدفء عائلة أبي.

سألونا عن حياتنا في إنجلترا، وعن السفر وما ينوي والداي

فعله في المستقبل. سألوا أيضاً عن المكان الذي سنعيش فيه وعن المدرسة التي سأدرس بها. ولاحظتُ أنّ إجابات أمّي فاجأتهم: سألتحق بمدرسة خاصة مثلما كان الأمر بإنجلترا. علمتُ بعد سنوات من ذلك أن تلاميذ بارك ستريت، وهو أحد أفقر أحياء كولراين، الحاصلين على منحة، هم وحدهم مَن يلتحقون بالمدرسة التي اختارت أمّي تسجيلي بها.

وما أن فرغنا من الإجابة عن هذه الأسئلة حتى أغلقوا فصل النميمة العائلية هذا. وأحسستُ رغم صغر سني بلامبالاة أمّي بتلك الأحاديث. لقد تعلّمتُ كيف أتعرف على الابتسامة المهذّبة التي تعلو وجهها لمّا تكون في جماعة وتشعر بالملل. بالمقابل، كان أبي محطّ اهتمام الجميع. بدا وجهه متهلّلاً، وكانت كلّ حكاية جديدة تزيده انشراحاً.

نمتُ ملء جفوني على الأريكة الشبيهة بالسرير في غرفة نوم والديّ وأنا مغتبطة بانتمائي إلى هذه العائلة الكبيرة.

أيقظني الضوء المتسرّب من ستارة النافذة الصغيرة صباح اليوم اللاحق. بحثتُ عن أمي فأخبروني بأنّها ستتغيب ووالدي ذلك اليوم، وأنّ عليّ أن أبقى مع جدتي.

لم يسبق لأمّي أن تركتني لوحدي من دون أن تخبرني بذلك. ساورني التوجّس من جديد، وأحسستُ كما لو أنّهما تخلّيا عنّي. تطلّعتُ إلى وجه جدتي، فألفيته في منتهى الهدوء، وهو ما كان كافياً لتبديد مخاوفي.

بينما مضيتُ لأغسل وجهي في حوض الحمام، هيّأت لي وجبة إفطار مكوّنة من الكعك والسجق الأسود والبيض. وقد أُصبت بالخيبة لمّا وجدتُ في المرحاض الواقع خارج البيت أوراق صحف

مقطَّعة بعناية عوض لفّة الورق الصحي. لما فاتحتُ جدتي في الأمر، بدا عليها الضيق، وقالت إنّ الوقت لم يسعفها لشراء ورق المراحيض. ولم أكتشف أنّ للصحف وظائف متعددة إلّا بعد ذلك بأشهر، لمّا ساءت أحوالنا المادية، وصرنا ننظر إلى ورق المراحيض كترفٍ لا لزوم له.

بعد تنظيف أواني الفطور، اقترحَت عليّ جدتي أن أساعدها في الغسيل. كان يوجد في الفناء الضيق حوض معدني كبير مليء بالماء الساخن الممزوج بالصابون. ثبّتتْ عليه لوحة، وتناولتْ فرشاة وشرعتْ تدعك بهمّة فوطاً وقمصاناً. كانت يداها الحمراوان المتشقِّقتان لا تشبهان في شيء يدي أمّي البيضاوين، بأظافرهما المصبوغة الأنيقة.

ساعدتها في حمل الغسيل إلى المجففة. كنت أمسك طرفاً، وتعمد هي إلى إدخال الطرف الآخر بين الأسطوانتين، وهي عملية كان عليها تكرارها مراراً. قمنا بعد ذلك، وقد تيبَّست أصابعنا من البرد، بنشر الغسيل على سلك ممدود بين الباب الخلفي والمرحاض. ثمّ رفعناه أعلى ما يمكن بواسطة عصي خشبية، وشرع الغسيل يخفق في الهواء البارد فوق رؤوسنا.

عاد جدي عند الظهر، ليس من العمل كما كنت أظن، بل من محلّ القمار، أو من خمّارة إن كسب الرهان. كُسيَت المائدة بأوراق الصحف، ووضع عليها طعام الغذاء: حساء وخبز إيرلندي تقليدي.

قضيتُ معظم عطلة الأسبوع مع جدّي وجدّتي، إذ لم يعُد والديّ إلّا بعد أن نمت. وفي صبيحة اليوم اللاحق تغيَّبا من جديد طيلة اليوم. ولمّا لاحظتْ أمّي علامات التذمّر على وجهي، وعدتني بأن نقضي يوم الاثنين معاً.

قالت لي: «سنسجِّلُك في مدرستك الجديدة. وإذا كنت وديعة وساعدت جدّتك هذا اليوم، ستحصلين على مكافأة: سآخذك لنتغذّى خارج البيت».

هدّأتني كلماتها واستعدتُ الابتسامة. ضمَّتني إليها قبل أن تغادر، تاركة الغرفة تعبق بعطرها.

نجحت أشعة الشمس في اليوم اللاحق في النفاذ بحياء من خلال سحب الشتاء، لكنها لم تستطِع بثّ الدفء في ذلك الصباح البارد. غير أنّ فكرة قضاء اليوم بصحبة أمي أنساني قساوة البرد.

قالت لي مطمئنة: «لا تبعد المدرسة إلّا بنصف ساعة مشياً على الأقدام».

غادرنا البيت فور فراغنا من الفطور. جبنا أزقة بارك ستريت ونحن نمشي يداً في يد، وعبرنا ميداناً، ثم سرنا في شوارع تحفّ بها الأشجار، وتنتصب في جنباتها، أبعد قليلاً، بيوت مشيَّدة بالقرميد الأحمر. لم تكن المدرسة تختلف عن بقية المنازل إلّا بملاعب التنس وأجنحة مشيّدة بالقطع المفكَّكة الرمادية. دخلنا إلى باحتها، وقصدنا سكرتارية المدرسة.

أُدخلنا إلى مكتب الناظرة: امرأة مهيبة، اشتعل رأسها شيباً، ترتدي حلّة رمادية يكاد يخفيها شال أسود. قالت: «مرحباً بكما. أنا السيدة جونسون، لعلّك أنطوانيت».

تحدّثتْ إلى أمي قليلاً، ثم امتحنتني في القراءة. قرأتُ النص بلا تلعثم رغم توتّري، فابتسمَت لي ابتسامة عريضة.

«إنك تتقنين القراءة يا أنطوانيت رغم أنك لم تقضي في المدرسة غير أشهر. أَأُمُّك هي من علمتك القراءة؟».

- كلا. جدّتي هي من علّمتني. كنّا نقرأ قصص فلوك ودايلي مايل المصوَّرة.

ضحكت وسألتني عمّا تعلمته من جدتي أيضاً. أجبتها بأنني تعلمتُ العدّ من خلال لعبة الورق. سرّها ذلك وقالت لأمي: «حسناً، إنّها تملك المستوى المطلوب. أظنّ أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام».

بدت الغبطة على وجه أمي، وَسَعِدْتُ بإدخال الفرحة إلى قلبها. بعد جملة من الإجراءات الشكلية، رافقتنا السيدة جونسون لإلقاء نظرة على المدرسة. أبصرتُ خلال الفسحة جماعات صغيرة من التلاميذ وقد ارتدوا زيّاً أخضر موحّداً وهم يلعبون في الساحة، فقلت في نفسي لا شكّ أنني سأكون سعيدة في هذه المدرسة.

إثر ذلك قطعنا أنا وأمّي المسافة الصغيرة التي تفصل بين المدرسة والمدينة ونحن نحمل قائمة اللوازم المدرسية المطلوبة. أوّل ما كان علينا شراؤه هو الزيّ المدرسي: فستان أخضر وثلاثة قمصان بيضاء وربطة عنق بالأخضر والأسود. اشترينا أيضاً بذلة رياضية خضراء أنيقة مزينة بشعار أبيض على الصدر. قالت لي أمّي إنّها هديّة من جدتي الإنجليزية. ثمّ قصدنا المكتبة.

رغم ما تحمّلنا به من علب، قصدنا أحد المطاعم لتناول الغذاء الذي وعدتني به أمّي.

قالت ونحن في المطعم: «أنا واثقة من أنّ مدرستك الجديدة ستروقك». أجبتها وفمي مليء بالكعك المحلّى اللذيذ بإيماءة جذلى من رأسي.

قفزتُ من سريري صباح أوّل يوم ألتحق فيه بالمدرسة، وهرعت

إلى المطبخ لأغتسل وأتناول الفطور الذي أعدّته لي جدتي. كان أبي قد ذهب إلى العمل، أمّا أمّي فنشرت ملابسي الجديدة على سريرها. كانت رائحة جِدّتها تملأ الغرفة. لبستُ بمفردي، لكنّني طلبت مساعدة أمي عند ارتداء ربطة العنق. نظرتُ إلى نفسي في المرآة وقد مشطت شعري، وحملت محفظتي على كتفي، فرأيتني طفلة سعيدة، تخلّصت من سمنتها. ووجَّهت لنفسي ابتسامة واثقة. تفرّست صورتي بإعجاب لحظة، ثمّ نزلت إلى الطابق الأرضي. ضمّتني جدّتي بين ذراعيها بقوة، ثمّ انطلقنا أنا وأمّي إلى المدرسة.

قدّمتني معلّمتي إلى رفاقي في الصف، وأجلستني بجانب طفلة شقراء باسمة، تدعى جيني. مضى الصباح بسرعة، وشكرتُ في قرارة نفسي جدّتي التي علّمتني في البيت. لم تعترضني أيّ صعوبة في القراءة والحساب، بل إن المعلمة بشّت في وجهي وأثنت عليّ.

ما إن دقّ الجرس حتى هرع الجميع إلى الخارج. احتضنتني جيني. تعذّر على التلاميذ نطق اسمي، فراحوا ينادونني «آني- نيت» وهم يقهقهون. لم يكن ضحكهم مؤذياً، وسعدتُ باندماجي بينهم. وما كاد النهار ينتهي حتى صرنا أنا وجيني صديقتين حميمتين. بدت فخورة برعاية طفلة صغيرة تتحدّث برطانة غريبة، وقدّمتني لكلّ التلاميذ. أثلجَت هذه الصداقة الناشئة صدري ذلك بأنّ الأطفال يحتاجون إلى «صديق حميم»، وهي حاجة وجدت مَن يُشبعها لدي.

مكثنا في بيت جدّي وجدّتي أسبوعين آخرين، ثمّ حان وقت الرحيل. ساورتني هذه المرّة مشاعر متضاربة. راقني الانتماء إلى هذه العائلة الكبيرة، لا سيما أنني كنت أصغر أعضائها، ومحطّ اهتمامهم جميعاً. كانوا يشملونني برعايتهم. فحتى جدّي المعروف بتحفّظه وقلة كلامه، كان يتحدّث إليّ، ويبعثني إلى المتجر القريب

لأجلب له سجائره وأشتري الحلوى لنفسي. وكثيراً ما كان يلاعب جودي حين يجد نفسه بمفرده لا يراه أحد. كنت أعلم أنني سأشتاق إليهم، لكنّني كنت متلهّفة كذلك إلى اكتشاف الحياة الريفية، ومساعدة أمّي في مشروع تربية الدجاج.

وانتهى بنا الأمر، أنا وجدّي وجدّتي، إلى العثور على توافق يناسبنا جميعاً. فقد كانت الحافلات الريفية تقوم في ذلك العهد برحلتين في اليوم. تحمل العمال إلى المدينة صباحاً، ثمّ تعيدهم إلى بيوتهم مساء. واتّفقنا على أن أزورهما عند الخروج من المدرسة وأشرب معهما الشاي، ثمّ يرافقاني بعد ذلك إلى الحافلة، فأجد أمّي بانتظاري عند العودة. وبما أنّ غيابي عن جدّتي كان سيمتدّ طيلة عطلة عيد الفصح، فقد هيّأت لي سلّة مليئة بالكعك والخبز الإيرلندي التقليدي، وضعناها في السيارة مع مؤن أخرى وأواني وكمّيّة من الوقود.

ودّعت جدتي بغصّة في حلقي. شحنت الحقائب في السيارة، وجلست أنا وجودي في المقعد الخلفي، وانطلقنا نحو بيتنا الجديد، تتبعنا شاحنة صغيرة تحمل ما جلبناه من أثاث من إنجلترا، وهو الأثاث الذي لم تكن أمّي تتخيّل إمكانية التخلّي عنه.

وسرعان ما تحوّلت الطرق الواسعة إلى طرق ريفية ضيقة، ثمّ سلكنا طريقاً غير معبّدة تحفّ بها سياجات بريّة، وبلغنا أخيراً طريقاً مُتربة تقود إلى حاجز خشبي.

ترجّل والدي من السيارة وأزاح الحاجز بزهو، فلاح لنا منزل القش لأول مرّة. لم يكن المنزل الذي تخيّلته.

بينما ازدحمت الذكريات في رأسي، لسعني برد الملجأ، فشعرتُ بنفسي عاجزة عن الحركة، لكنّ الكرسي غير المريح الذي

اقتعدته أيقظني من غفوتي، فتلاشت الطفلة أنطوانيت لتحلّ محلها توني، المرأة البالغة.

سكبت لنفسي قدح فودكا، وأشعلتُ سيجارة، وأملتُ رأسي إلى الخلف وأنا أفكر في سعادة تلك السنوات الخالية. وتساءلت: لماذا شعرتُ إذن بما يشبه الخطر المُحدق؟ مع أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى الخوف في الملجأ.

همس الصوت: «كلا يا توني، أنت خائفة مني؟».

فأجبتُ: «كلا، أنت مخطئ، أنت ماضيَّ، وأنا سوّيت حسابي مع هذا الماضي».

لكنه مجرّد هراء. وبينما كنت أنظر من خلال سحابة الدخان إلى الركن الفارغ من الغرفة، شعرتُ بأنطوانيت تسحبني بقوة لأتخطّى حاجز منزل القش.

4

منزل صغير مربع ينتصب وسط مساحة مكسوّة بالحصى، تناثرت عليها نباتات الهندباء. بقع مقشرة رمادية تظهر على جدرانه البيضاء كاشفة عن طبقات طلاء قديمة، وتحت الميازيب تلوح خطوط قاتمة. كان ثمّة صهريجا ماء يمسكهما سلك حديد صدئ، وباب خشبي مقفل، وأربع نوافذ قذرة بلا ستائر.

يجاور المنزل كوخان آيلان للسقوط، تسدّ بابَيْ أكبرهما نباتات العلّيق والقرّاص المتشابكة. أمّا باب الكوخ الثاني فكانت مشرعة، تَلُوح منها صحف قديمة مصفرّة معلّقة إلى حبل، ومقعد مرحاض خشبي مهترئ. يقود إلى الكوخين طريق مكسو بألواح الخشب طغى عليها العلّيق والنباتات الطفيلية، وأمامهما أرضية من الخشب تآكلت من الرطوبة.

كنت أعلم أنّ أمّي كانت ترى في مخيّلتها أكواخ «كينت» الجذّابة، وتنظر إلى زوجها الوسيم، فيزيدها ذلك تعلّقاً بصورة ترسّخت في ذهنها: صورة رجل جذّاب راقصته على مرأى من صديقاتها الغيورات اللواتي يصغرنها سنّاً.

شرعت تتحدّث عن مشاريعها وفكرها ما زال تحت تأثير هذه

الذكرى، وتفاؤلها ما زال متّقداً. سيصير الكوخ الكبير خمّ دجاج، وستزرع الخضروات خلف المنزل، وتغرس زهوراً تحت النوافذ. ثمّ أمسكت بيدي وقادتني إلى الداخل.

ما إن فتحت الباب حتى هبّ تيار هواء حرّك الغبار المتراكم في أركان الغرفة. كان ثمّة عدد كبير من الذباب العالق في بيوت العناكب المترامية المغبرّة، المنسوجة حول العوارض الخشبية والنوافذ. وعلى الأرض بدت فضلات الجرذان على شكل خطوط مستقيمة تقود إلى الخزانة الوحيدة. وكان الجزء السفلي من الجدران المطلية بالأبيض قاتماً بسبب الرطوبة.

وفي أقصى الغرفة يوجد موقد فحم حجري أسود، وأسفل النافذة وضعت قطعة أثاث ثانية: رفّ خشبي فوقه إناء معدني بجوار طست من القصدير.

ثمّ هناك بابان متقابلان يفضيان إلى الغرفتين، وأمام الباب الأمامي أدراجٌ أشبه بسلم يقود إلى عِليّة. لمّا صعدنا الأدراج اكتشفنا غرفة واسعة معتمة مسقوفة بالقش، تفوح منها رائحة عطونة زكمت أنفي.

ما كاد الرجال يشرعون في تفريغ الشاحنة الصغيرة حتّى انهمكت أمّي في العمل لتحقيق مشاريعها. كنست الأرض بهمّة. وجلبت الفحم لإشعال النار في الموقد، وأحضرت الماء من البئر الموجود أسفل الحديقة. وكانت أوّل مهمة أسندتها إليّ هي إخراج الضفادع من الدلو. فمضيت أضعها بلطف على العشب قرب البئر.

علّقت أمّي: «هكذا ستكون مخيّرة بين العودة إلى أهلها أو النوم في الشمس».

بدأ الموقد ينشر الدفء في الغرفة التي نُظّفت من بيوت

العناكب، وجُهّزت بالأثاث الذي جلبناه معنا. وسمعت أمّي تدندن بأغنية منبعثة من المذياع. هكذا غمر البيت المهجور جوّ من المرح.

هيِّئ الشاي والساندويشات، واخترتُ أن أجلس في الخارج على العشب بجوار جودي التي اقتسمت معها حصتي من الطعام. كانت جودي تتشمّم روائح جديدة، فتصيب خطمَها تشنّجات خفيفة. التفتت إليّ وراحت تنظر إلي نظرة مفعمة بالأمل.

كانت منطقة «كينت» تبعد بسنوات ضوئية، وكنت متلهّفة، على غرار جودي إلى اكتشاف هذا العالم الجديد. تركت الكبار منهمكين في أعمالهم، ووضعتُ الحبل الأحمر في عنق جودي وتخطّينا الحاجز. وبينما كنّا نتجوّل في أقرب طريق إلى المنزل، أنعشتنا شمس بداية الربيع بأشعّتها، طاردة عنا برودة الكوخ. كانت الأزهار البرّية قد بدأت تتفجّر على أغصان شجيرات غير مشذّبة. قطفتُ أزهاراً، وصنعت باقة لأمي. ولفتت انتباهي مناظر وأصوات أخرى، وجعلتني رؤية أزهار أخرى أوغل في المغامرة، وأبتعد أكثر فأكثر عن البيت. مضى الوقت من دون أن أنتبه إليه.

بينما وقفتُ بجوار أحد الحقول أتأمّل خنزيرات ضخمة، تتبعها خنانيص سمينة، سمعت أبي يصيح: «أين أنت يا أنطوانيت؟».

التفتّ إليه وانطلقتُ جاريّة نحوه بخطى واثقة، وأنا أشدّ قبضتي على باقة الزهور البرّية، لكن الرجل الذي كان قادماً نحوي لم يكن يشبه في شيء الرجل الباسم الذي استقبلنا أنا وأمي في المرفأ. كان رجلاً بالكاد تعرّفت عليه، فظّ الملامح، ممتقع الوجه. بدا لي فجأة أطول من قامته، بعينين يقدح منهما الشرر وفم يرتعش من الغيظ. هممتُ بدافع الغريزة أن أهرب، لكن الخوف شلّني في مكاني.

أحكم قبضته على رقبتي، وضغط بمرفقه على رأسي وجذبني

إليه، ثمّ رفع فستاني القطني، ونزع سروالي بعد أن شلّ حركتي بأن ثبت جسدي نصف العاري على فخذيه بيد، وراحت الأخرى تهوي على عجيزتي. سمعت فرقعة، وشعرت بألم مبرح. حاولت الإفلات من قبضته وأنا أصرخ، لكن عبثاً. أحكمت يدُه الأولى قبضتها حول عنقي، بينما مضت الأخرى ترتفع في الهواء وتنزل عليّ بلا هوادة. تكوّمت جودي خلفي، وتناثرت باقة الزهور على الأرض.

لم يكن أحد قد وضع يده عليّ من قبل. صرختُ وبكيت من الألم والخزي وأنا لا أصدِّق ما وقع. وبينما كان يرجّني، انهمرت الدموع والمخاط من عيني وأنفي. وراح جسدي يرتعش من الهلع.

صرخ في وجهي: «هكذا ستتعلمين ألّا تخرجي للنزهة هكذا أبداً. هيّا! اذهبي إلى أمّك».

رفعت سروالي وغطيت ردفيّ الأليمتين وأنا أنتحب. أمسك بكتفي، وسحبني إلى البيت. كنت أعلم أنّ أمّي سمعت صراخي، لكنّها لم تقل شيئاً.

حلّ عيد الفصح ونحن في منزل القش، ولم يعُد برد الشتاء الأول غير ذكرى بغيضة. جُهّز الخمّ، وثُبّتت المحاضن في الغرفة التي أشغلها، ونُقلت رغماً عنّي إلى العِليّة.

كانت دجاجاتنا تنقر العشب وتتمرّغ فيه بمرح، والديك الشاب يتبختر بينها مستعرضاً ريشه الزاهي. وما لبثت المحاضن أن امتلأت بالبيض. على أنّ الأرانب التهمت مراراً، للأسف، الزهور التي غُرست تحت النوافذ، ولم يسلم في البستان غير البطاطس والجزر.

الآن وقد زاد عمري بسنة، صارت العطلة تعني أعمالاً منزلية جديدة: تخليص دلاء الماء من الضفادع بواسطة شبكة صغيرة، جمع

البيض. ذلك بأنّ الدجاجات لم تكن تضع بيضها في المحاضن التي وضعت لهذا الغرض، بل تعمد إلى إخفائه في كلّ أرجاء الحديقة، أو بين شجيرات الحقول المجاورة. على أن معظم الدجاجات كانت تبيض في الخم، وكنا نملأ سلال البيض كل يوم، فيأتي البقال مرّتين في الأسبوع لأخذها وتزويدنا بما نحتاج إليه من مؤن.

كنت أُبعث كلّ صباح إلى ضيعة قريبة لجلب الحليب في وعاء معدني. لم يكن أحد في ذلك الوقت يعبأ بالبسترة. وكانت زوجة صاحب المزرعة تستقبلني في مطبخ يخيم فيه جوّ لطيف. وكانت تقدّم لي فنجان شاي بالحليب وخبزاً ساخناً.

لم يكن يساورني، من شدّة انشغالي نهاراً، قلق حول التغير الذي كان يطرأ على الأجواء في بيتنا. وسرعان ما صار التوجّس الذي خامرني قبل عام من ذلك واقعاً. صارت سعادة أمّي متوقّفة على مزاج زوجها المتقلّب. فبدون وسائل نقل عمومية، ولا استقلال مالي، بل بدون حتى مخدع هاتفي قريب، تحوّلت المرأة السعيدة التي كانت مولعة بقضاء وقتها في قاعات الشاي بـ«كينت» إلى مجرد ذكرى، ولم يعُد يشهد على ذلك الزمن الذي ولّى سوى جودي وجامبو.

عند حلول الظلام، أجلس لقراءة كتبي على نور مصابيح النفط الباهت، بينما تنتظر أمي عودة أبي. وكنت أتصرّف بهدوء حتّى لا أثير إليّ الانتباه.

كان هدير سيارته يُسمع في بعض الليالي قبل أن آوي إلى فراشي. تقفز أمّي من مكانها وتضع غلاية الماء على الموقد، ثمّ تصبّ ما حضرته من طعام في الطبق، راسمة على وجهها ابتسامة

ودودة. أما أنا فكان يشلّني الخوف، وأتساءل عن أيّ الأبوين سيفتح الباب: الأب المرح الودود الذي يجلب الشوكولاتة لأمي ويداعب ذقني، أم ذلك الرجل المرعب الذي اكتشفته لأوّل مرة في هذا المكان، والذي صار يظهر أكثر فأكثر.

على أنّ الأب الأول كان بإمكانه أن يتحول في سرعة البرق إلى الثاني. فمجرّد وجودي كان يضايقه. كنت أشعر بنظراته ترشقني حتى وأنا عاكفة على صفحات كتابي.

كثيراً ما كان يسألني: «ألا تستطيعين مساعدة أمّك؟» أو يبادرني: «ماذا تقرئين؟».

لم تكن أمّي، وهي لا تزال واقعة في غرام الرجل الذي التحق بنا في بلفاست، تلقي بالاً لمحنتي. ولمّا كنت أسألها أحياناً عن سبب نقمة أبي الدائمة عليّ، كانت تكتفي بأن تطلب منّي أن أتصرف معه بلطف.

وفي الليالي التي لم تكن تعود فيها السيارة قبل أن آوي إلى فراشي، كانت تذبل شيئاً فشيئاً من طول الانتظار. وكثيراً ما كانت توقظني الأصوات المتعالية في جوف الليل. يستمرّ الشجار إلى أن يُفلح صراخ أبي الثمل في إخراسها. ويعمّ البيت في اليوم الموالي توتّر ظاهر بحيث تتحرّك أمّي في صمت، وكنت أبحث عن أوهى ذريعة لمغادرة البيت. وعادة ما كان الأب الودود يظهر بعد هذه الليالي، فيأتيني بالحلوى، ويسأل عن «حال صغيرته». ويجلب لأمّي الشوكولاتة أو الزهور، يقبّلها على خدّها، ويلاطفها طالباً عفوها إلى حين.

وصرتُ بتوالي الأيام أخشى حلول عطلة الأسبوع. ذلك أنّ أمّي دأبت على انتظار زوجها كل ليلة جمعة، فلا يعود إلّا في وقت

متأخّر. وفي جوف الليل توقظني شجاراتهما، وتخترق غرفتي عبارات غاضبة غير مفهومة، فأتسمّر في سريري من الهلع. كنت أنحشر تحت الغطاء لعلّي أفلت من ذلك الضوضاء البغيض.

كان يقضي صباحات يوم السبت مستلقياً على سريره، يعاني من صداع تسبّب فيه لنفسه، ويأمر أمّي أن أحمل له الشاي، فكانت تطيع أمره متجهّمة، وتحذرني من الابتعاد عن المنزل. صارت زياراتي للضيعة المجاورة مراقَبة، وبذلك انتهت فناجين شاي زوجة صاحب الضيعة وخبزها الدافئ.

كان يخيّل إليّ أنّني أجذب غضب أبي مثلما يجذب المغناطيس الحديد. فقد عدت ذات يوم من الضيعة وأنا أحمل دجاجة قزمة. ما إن رآني حتى بادرني: «هلا أعدتِ هذه الدجاجة إلى أصحابها!».

ولأوّل مرّة تدخلت أمّي مدافعة عنّي، فقالت له بغنج وهي ترخّم اسمه: «دعها تحتفظ بها يا بيدي. يمكن أن تتركها مع الدجاج في الخمّ، وأن تنتفع ببيضها».

غمغم بشيء، لكنه لم يعترض. وهكذا صارت الدجاجة القزمة «جون» حيواني الأليف. كانت تبدو كما لو أنها تدرك وضعها الأثير لدي، إذ كانت تقصد المنزل كل صباح لتضع بيضة أفطر بها.

كان أبي يتعطّل عن العمل خلال أعياد الفصح، فتأمل أمّي أن تكون تلك فرصة للخروج للنزهة بالسيارة. وفي ليلة جمعة الفصح، انتظرناه. أنا منقبضة القلب وهي مفعمة بالأمل. عاد الأب الودود وقبّلها على خدّها. مدّ لي بيضة الفصح، ولأمّي الشوكولاتة.

قالت: «لقد حضّرت وجبة خاصة. لم يبقَ سوى إغلاق الخمّ، وأكون جاهزة».

غادرت الغرفة وهي تدندن بصوت خافت، وتركتنا بمفردنا.

نظرتُ إليه خلسة بحذر وأنا أعلم تقلّبات مزاجه، لكنّه بدا، على غير عادته، باسماً.

قال لي وهو يربت على المقعد بجانبه: «تعالي يا أنطوانيت!».

طوّق خصري بذراعه وأجلسني بجواره، ثمّ وضع ذراعه على كتفي وقرّبني إليه. وبما أنني كنت متعطّشة لحنانه، التصقتُ به، وتساءلت في قرارة نفسي كيف يعقل أنّه غير غاضب عليّ.

لمّا ضمّني إليه، غمرني شعور بالأمان والطمأنينة. أسعدتني صحوة حنانه أخيراً. ومضى يداعب شعري.

راحت يده الأخرى تداعب ظهري وهمس: «أنت بنيتي يا أنطوانيت». وضغطت نفسي إليه أكثر كما يفعل الحيوان الأليف.

«هل تحبّين أباك؟».

وتلاشت كلّ ذكريات غضباته. أحسستُ لأوّل مرّة أنّه يحبّني. وأجبتُ بتحريك رأسي وأنا في غاية الفرح. مضت يده التي كانت تداعب ظهري تنزل أسفل فأسفل، واسترسلتْ إلى أن بلغتْ أعلى ساقي. نزلت إلى أسفل تنورتي، ثمّ شعرتُ باليد القاسية نفسها التي ضربتني قبل سنة من ذلك تلامس ركبتي. تصلَّب جسدي. أحكم قبضته على أعلى رأسي بيد بحيث شل حركتي، وانزلقت يده الأخرى على وجهي وأمسكت بذقني، ووضع فمه على فمي، وشعرتُ بلسانه يشقّ طريقه بين شفتي، ثمّ شعرت بلعابه يسيل على ذقني. ملأت خيشومي رائحة الويسكي والسجائر. منذ تلك اللحظة، فارقني الإحساس بالأمان إلى الأبد، تاركاً مكانه شعوراً بالقرف والخوف. حرّرني فجأة وأمسك بكتفي وهو يحدّق في عيني، ثم قال لي وهو يهزّني هزّاً خفيفاً: «لا تخبري ماما يا أنطوانيت. إنه سرّ بيننا، أسمعت؟».

فهمست: «لن أخبرها بشيء يا بابا».

ومع ذلك أخبرتها. كنت أثق في حبّها وأعلم أنّها تبادلني الحب نفسه، وبذلك ستطلب منه ألّا يكرِّر فعلته مرّة ثانية.

لكنّها لم تفعل.

5

رمشتُ بعيني لعلّي أرغم ذهني على العودة إلى الحاضر في الملجأ. فتحتُ من جديد سدادة قنينة الفودكا، وسكبتُ ما بقي فيها، ثمّ أشعلت سيجارة أخرى.

همست أنطوانيت: «أتذكرين الآن؟ أتظنّين حقّاً أن أمك كانت تحبّك؟».

فقلت معترضة:

- بالطبع.

فجاءني جوابها كالصفعة:

- لكن حبّها له كان أكبر.

شربتُ جرعة كبيرة من الفودكا، وسحبت نفساً من السيجارة لعلّي أستطيع إيقاف سيل الذكريات الجارف الذي كان يوشك أن يجرفني.

ومن خلال الضباب الذي كان يغشى فكري، أشهرت أنطوانيت صورة لم أكن أرغب في رؤيتها. لكنها كانت من الوضوح بحيث لم أستطع الإشاحة عنها.

تراءت لي الغرفة في بيت القش وبداخلها شخصان. كان الأمر

كما لو أنّه حدث البارحة. امرأة جالسة على أريكة مغلّفة بالثوب، وقبالتها تقف طفلة. كانت تنظر باستعطاف وتجهد نفسها، وهي في غاية التوتر، لكي تبوح بما حصل. تبحث عن الألفاظ المناسبة لتصف ما صنعه بها رجل راشد.

حدث ذلك بعد أسبوع من القبلة. انتظرت أنطوانيت أن يستأنف أبوها عمله لكي تخلو إلى أمّها. كانت لا تزال واثقة من حبّها، لكنّها بذلت قصارى جهدها من أجل العثور على كلمات تسعفها في وصف الفعل الشنيع الذي تعرّضت له. كانت هيئتها تشي بمقدار توترها، وكان ضيق أمّها يتزايد مع كل كلمة تنفلت من بين شفتيها. ووقفت الكلبة الصغيرة بجانب الطفلة الصغيرة كما لو أنها شعرت بأنّ الأمور لم تكن على ما يرام، وراحت تلقي إليها بنظرات مفعمة بالعطف.

ما زلت ألمح الغضب الذي ظهر في عيني الأمّ فوراً، فأدرك الآن وأنا راشدة، بأنّها كانت تخفي شعوراً آخر. أي شعور هو؟ تفحّصت تلك الصورة القادمة من الماضي من جديد، ففهمت أنّه الخوف. كانت مرعوبة ممّا ستسمع.

لم ترَ أنطوانيت طيلة الست سنوات ونصف من حياتها غير الغضب. انهدّ كتفاها المهزولان، ولاحت على صفحة وجهها مشاعر تمتزج فيها الحيرة بالألم. فقد سقط آخر متاريسها: أمّها غير عابئة بحمايتها.

ما زلت أسمع صوت أمّها تأمرها بألّا «تذكر هذا الأمر ثانية، مفهوم؟».

وجاءني صوت أنطوانيت مجيباً: «حسناً يا ماما».

وبدأت الدوامة. صار صمتها مضموناً، وأُشرع الباب بذلك لما سيعقب.

همس الصوت الذي كان يعذبني: «أرأيتِ، لقد بحتِ لها بالأمر!».

طوال سنوات وأنا أطرد من ذهني هذا المشهد الذي تقوّضت فيه ثقتي بأمّي. طردته من ذاكرتي. أرغمتُ تلك الطفلة المرعوبة، أنطوانيت، على الاختفاء مع ما تحمله من ذكريات. وأدركتُ، وهو أمر ساءني كثيراً، أنّ أمّي لم تكن تجهل نوايا أبي. كيف لطفلة أن تصف تلك القبلة لو أنّها لم تحدث فعلاً؟ من المستحيل أن تختلقها. لم تكن في ذلك العهد في الريف تلفزة ولا مجلة ولا كتاب تتعلّم منه طفلة في هذا السن تلك الأمور، وبذلك فإن أمي لم تسمع من فم ابنتها إلّا الحقيقة.

سألت أنطوانيت: «أتذكرين يا توني سنتنا الأخيرة، قبل رحيلك عنّي بسنة؟ شاهدي هذه الصورة».

قصدت ذكرى أخرى لا تزال منقوشة في ذهني. تراءى لي أبي عائداً بعد إحدى عشرة سنة قضاها في السجن، وأمي تنتظره في النافذة. فما كادت تراه قادماً من بعيد حتى انفرجت أسارير وجهها وجرت للقائه.

«طواك النسيان في تلك اللحظة. لم تسامحك أنت قطّ بينما سامحتْه هو».

كنت ما زلت لم أقبل الذكريات التي انطلقت من عقالها في ذهني. انتبهت منذ زمن بعيد إلى أن مخيّلة أمّي حفظت إلى الأبد صورة الرجل الجذاب الذي عرفته في شبابها. وظلّت تنظر إلى نفسها باعتبارها امرأة عادية حالفها الحظ في العثور على مثل هذا الرجل الوسيم الذي يصغرها بخمس سنوات.

ردّت أنطوانيت: «لا أحد ولا شيء يستطيع انتزاعه منها.

تذكّري الشهور الأخيرة في منزل القش، وتذكري ماذا فعلت في الأخير».

تساءلت تلك الليلة: هل يمكن أن يبلغ بها العشق إلى حدّ ارتكاب الخيانة العظمى من أجل الاحتفاظ به؟

أشعلت سيجارة أخرى وأنا أتساءل ما إذا كانت أسئلتي ستلقى جواباً في يوم من الأيّام، وما إذا كنت سأحصل لذلك على تفسير. لعلها أنكرت الأمر لفترة طويلة حتى انتهى بها الأمر إلى دفن الحقيقة إلى الأبد.

أخذ منّي التعب، فأغلقتُ عيني لبرهة. غفوتُ فعادت بي بالذاكرة إلى منزل القش.

حصلت على مدى سنتين سلسلة تحوّلات بالكاد انتبهت إليها، غيَّرت معالم حياتي. ولكي أطمئن نفسي، كنت أستحضر صورة جدّتي الإنجليزية، وكذا ذكريات الحب والهناء التي كانت لي معها. كنت أتذكر كذلك اللحظات الجميلة التي عشتها مع أمّي لمّا كانت تلاعبني وتقرأ لي قصصي المفضلة قبل أن أخلد إلى النوم.

لما كانت تشتدّ محنتي، كنت ألوذ بهذه الذكريات المنفلتة، وأتشبَّع بما تشيعه في النفس من سكينة. لكنها كانت تنأى ليلة بعد ليلة.

قامت بيني وبين أمي هوّة، وفصلت بيننا مسافة باردة ما عدتُ أستطيع تخطّيها. لم تعُد تتواطأ مع أحد الجيران لكي تفاجئني بحضورها لحظة خروجي من المدرسة، ولم تعد تنصت لثرثرتي وهي تبتسم. لم تعُد تنفق الساعات الطوال لكي تخيط لي ملابس جميلة. لقد تركت الأم الودود المرحة مكانها لأمّ غريبة سيطرت عليها

بالتدريج إلى أن اختفت تماماً أمّي التي عهدتها. هذه الأم الغريبة لم يعُد لها وقت تخصّني به. وهكذا أخذ شعوري بالإحباط والتعاسة يزداد يوماً بعد يوم، لا سيما أنني لم أكن أعرف الخطأ الذي ارتكبت.

أخبرتني أمي في بداية عطلة الصيف أنني لن أعود إلى مدرستي في المدينة، وأنها سجّلتني في مدرسة القرية التي تبعد عن البيت بست كيلومترات.

لم أستطع تمالك دموعي، لكنّني لم أشأ البكاء أمامها. فقد تعلّمتُ ألّا أظهر ضعفي. خرجتُ مع جودي، ولما اختفينا عن الأنظار، أجهشتُ بالبكاء. لن أرى صديقتي الأثيرة ولن أنتمي إلى تلك المدرسة التي كنت أنوي قضاء سنوات بها، ولن أرى ثانية جدّي وجدّتي بمفردي، ولن أنعم بتلك الأحاديث اللذيذة معهما. وبدا لي المستقبل حالكاً لا يُطاق.

تعلّمت في هذا الصيف معنى الوحدة، وكبر بداخلي شعور كنت أصغر من أن أعثر له على اسم: إنه الخيانة.

وحلّ شهر سبتمبر، ومعه أول يوم من السنة الدراسية في المدرسة الجديدة. ولم يكن قد بقي على عيد ميلادي السابع غير أيّام معدودة. دأبت أمّي على مرافقتي إلى المدرسة في اليوم الأوّل من الموسم الدراسي، لكنّها لم تفعل ذلك العام. ارتديت زيّي المدرسي القديم بفتور، وهيّأت نفسي لقَطع المسافة الطويلة. لم يكن النقل العمومي قليلاً في ذلك العهد فحسب، بل لم يكن للنقل المدرسي من وجود. كان عليّ أن أقطع بمفردي الكيلومترات الستة الفاصلة بين البيت والمدرسة مشياً صباح مساء.

حين قطعتُ هذا الطريق لأوّل مرة، بدا كما لو أنه يتمدّد مع كلّ

خطوة. كانت المناظر رتيبة لا تتخللها إلّا أكواخ عديمة الرونق. وبلغتُ المدرسة بعد ساعة من المشي. وصل تلاميذ آخرون على الدراجات أو مشياً على الأقدام، وانتبهت فجأة إلى أنّ المدرسة مختلطة، ذلك أنّني لم أتردَّد حتى تلك الساعة سوى على مدارس البنات. رفعت رأسي وانتصبت في مشيتي حتى أكون في مستوى التحدّي الذي ينتظرني. تخطّيت باب المدرسة، ورحتُ أبحث عن أحد المعلمين.

لم تكن البناية تشبه في شيء البناية الجميلة المشيّدة بالقرميد الأحمر التي ألفتها. كانت عبارة عن بناء واطئ، رمادي اللون، ذا طابع وظيفي، يتوزّع إلى حجرتي درس: إحداهما للتلاميذ دون الثامنة، والأخرى لأولئك لمن تتراوح أعمارهم بين الثامنة والحادية عشرة. لم يكن فيها عشب يلعب عليه الأطفال في الفسحة. كلّ ما فيها ساحة مبلّطة تكفي لحوالي مائة تلميذ، وهو عدد التلاميذ بالمدرسة.

لم أعثر خلال الفسحة على أيّ فتاة تعوّض جيني وتقدّمني للآخرين، ولم أحظَ بأيّ بسمة لطيفة تشّجعني على الاندماج في مجتمع المدرسة. وفي الساحة، راحت جماعات من الأطفال يرتدون أزياء متباينة، ينظرون إليّ بارتياب ظاهر.

كان التلاميذ، وهم في معظمهم من أبناء مزارعي المنطقة، يسخرون من نبرتي الإنجليزية ومن زي المدارس الخاصة الذي كنت أرتديه. أما المدرِّسين، فتجاهلوني.

حين حلّ وقت الغذاء، جرى التلاميذ مثنى أو جماعات في صخب نحو المطعم، وكان كلّ منهم يحرص على أن يحجز أماكن لأصدقائه. بحثت بارتباك عن مكان أجلس فيه، فرمقت كرسيّاً في

أقصى الطاولة، وضعتُ فيه محفظتي ثم التحقتُ بالطابور لأجلب الطعام. كانت الوجبة مؤلفة من بطاطس مهروسة ولحم بقر مصحوب بالكرنب المسلوق. أجبرتُ نفسي على التهام طعامي بصمت. أدركتُ أنني صرت أوجد في عالم آخر، لم أعد «آني- نيت»، بل فتاة غريبة في عيون الآخرين. ساعدني كبريائي على مواجهة تهكُّم الأطفال الجارح برباطة جأش، وهو أمرٌ سأعتاد عليه بمرور السنين، لكنني لم أكن قد ألفته بعد في ذلك الحين.

عند نهاية الصيف وبداية الخريف، ومع شروع النهار في التقلص، صارت الكيلومترات الستة التي أقطعها يومياً للعودة إلى البيت تبدو أطول كلّ مساء.

وشيئاً فشيئاً، تعاظم خوفي من الظلام، وصارت العتمة من ألدّ أعدائي. كنت أحاول أن أحثّ الخطى، لكن ثقل محفظتي المليئة بالكتب كان يزداد مع كل خطوة. ومع حلول منتصف أكتوبر، صار الظلام يحلّ في وقت مبكّر، ومضى الريح يخلّص الأشجار من آخر أوراقها. وبوصول شهر نوفمبر، كان عليّ مواجهة عدوّ جديد: المطر. كنت أواجه وابل المطر منكّسة الرأس وأنا أعلم أنّ معطفي سيصبح في الغد، عند عودتي إلى المدرسة، مبلّلاً ومع مرور الأسابيع تلاشت الفتاة الصغيرة النشيطة الواثقة التي كنتُها قبل ذلك بأشهر. وصرتُ لمّا أنظر إلى صورتي في المرآة، أرى فتاة مهملة مهزولة. فتاة ترتدي ملابس مكمّشة، بشعرٍ أملس باهت. فتاة لا أحد يرعاها، تبدو راضية بالتغيّرات التي لحقت حياتها.

كان يوجد في منتصف الطريق بين المدرسة والبيت متجر صمّم، على غرار كثير من البنايات المتناثرة في المنطقة، ليقاوم المناخ

الإيرلندي، لا ليكون منظره جميلاً. كان عبارة عن بناية واطئة، ذات أرضية مبلطة، وكونتوار من الخشب العادي، ثُبِّتت خلفه الرفوف. كان بإمكان المزارعين القاطنين في الناحية أن يجدوا فيه كلّ ما يحتاجون إليه من زيت مصابيح وخبز إيرلندي تقليدي ولحم خنزير مدخّن.

لم تكن النساء تتردّدن عليه للتزوّد بما يلزمهنّ فحسب، بل ليتحرّرن لحظة من أزواجهن ويستمتعن بلقاء بنات جنسهنّ. كانت أيامهن شاقّة وطويلة. ذلك بأنّ البيوت لم تكن مجهّزة بالماء والكهرباء، ووسائل النقل كانت نادرة. لم يكنّ يبرحن بيوتهن إلّا أيام الآحاد للتردّد على الكنيسة. فقد كانت الساكنة البروتستانتية الورعة مواظبة على القداس.

كانت صاحبة المتجر، وهي امرأة ودود، تستقبلني دائماً ببشاشة. حين كنت أشرف على المتجر، أسرع لأحتمي فيه من البرد، وأستمتع بصحبة تلك المرأة اللطيفة. كانت تقدّم لي عصير برتقال، وتضيف له أحياناً كعكة ساخنة خرجت لتوّها من الفرن، لا تزال زبدتها تقطر. كانت طيبوبتها تُثلج صدري وتمنحني الشجاعة لمواجهة النصف الثاني من الطريق بعد يوم كئيب في المدرسة.

وفي يوم من الأيّام الشتوية المشمسة النادرة، التي تتمكن فيها أشعة الشمس من تبديد ظلال العتمة، لفتت انتباهي كلبة صغيرة أشبه بكلاب كولي، كانت مربوطة خلف الكونتوار. بدت مهملة بشعرها الأكمد، وقطعة الحبل المحيطة بعنقها، وبحاجة إلى الحنان مثلي. لمّا أحنيت عليها لأداعبها، جثمت خائفة وهي تئن.

علّقت صاحبة المتجر قائلة: «لقد أنقذها ابني من صاحبها. كان يضربها ويسيء معاملتها، بل كان يلقي بها في مياه المراحيض. يا

لقساوة هؤلاء الناس. لو كانت بيدي سلطة، لأوسعتهم ركلاً على مؤخراتهم! من يسمح لنفسه بارتكاب مثل هذه الأفعال؟! ينبغي أن أبحث لها عن مكان تلقى فيه حسن المعاملة. أنا واثقة من أنّها لا تحتاج إلا إلى الحنان».

ألقت إليّ الكلبة بنظرة مفعمة بالأمل. جثوتُ على ركبتي، ووضعت وجهي على شعرها الحريري الأبيض. كنت أدرك معنى الحاجة إلى الحب، واجتاحتني رغبة جامحة في حمايتها. وما كدتُ أشرب عصير البرتقال وآكل الكعكة حتى استأنفتُ طريقي برفقة الكلبة الصغيرة التي سمَّيتها على التوّ سالي. بدا لي الشوط الثاني من الطريق هذا اليوم رائقاً. توقّفت مراراً لكي أكرّر على مسامع سالي بأنّني لن أدع أحداً يؤذيها بعد اليوم، وأنّني سأحبّها، وستصير صديقة جودي. بدت كما لو أدركَت بغريزتها أنّها عثرت على حامية، فاستعادت نشاطها وخفّة حركتها.

لمّا وصلت إلى الممشى الذي يقود إلى بيتنا، بدا لي ضوء المصباح الزيتي الأصفر متلألئاً. دفعت الحاجز، وقصدت باب المنزل.

بادرتني أمي وهي تنحني لمداعبة صديقتي الجديدة: «ما هذا؟».

فقلت متضرّعة: «هل أستطيع الاحتفاظ بها؟».

فأجابت: «ألا ترين أن الوقت غير مناسب للتخلّص منها الآن؟!».

لم تضِف شيئاً، ومضت تلاطف سالي ثمّ همست: «يا للصغيرة!».

دهشت وأنا أرى الدموع تترقرق في عينيها وهي تقول: «كيف تبلغ القسوة بالإنسان إلى هذا الحدّ؟».

كنت أصغر من أن أستوعب مدى سخرية هذا الموقف. وأيقنت أن سالي قد عثرت على مأوى جديد.

لحقت بنا جودي وهي تحرِّك ذنبها، وراحت تتشمّم الوافدة الجديدة فيما بدا لي أشبه بتحيّة ودود. بدت كما لو أنّها شعرت، رغم ميل الكلاب الغريزي للدفاع عن إقليمها، بأن سالي لا تمثّل تهديداً لها. وقرّرتْ قبولها على الفور بوصفها رفيقة وعضواً جديداً من أعضاء الأسرة.

اكتشفتُ مندهشة صباح اليوم الموالي ذلك الأب الطيّب، حتّى أنّني فوجئت لردّ فعله: بدا مشدوهاً بمنظر سالي المتعطّشة للحنان، ومضى ينظر إليها بلطف.

صرتُ منذ ذلك اليوم، كلّما توقفت في المتجر، أحكي لصاحبته عن شقاوة سالي، وأحدثها عن الصداقة التي نشأت بينها وبين جودي، بل وأحدّثها أيضاً عن الدجاجة جون. أخبرتها بأنّ الدجاج يخبئ بيضه في العشب الطويل تحت الشجيرات، فلم تكد تمضي أسابيع حتّى أهدتني عنزة صغيرة.

قالت لي: «خذي هذه لأمك يا أنطوانيت. إنها أفضل وسيلة لجزّ العشب».

ربطت العنزة بحبل وأنا أقول في نفسي: لن نحافظ على العشب قصيراً فحسب، بل سنحصل على الحليب أيضاً. ستسرّ أمي لمّا تراها.

قلت لها بينما كانت الكلبتان تنظران إلى العنزة بغطرسة وتنبحان: «الآن لن نحتاج إلى شراء الحليب!».

أجابت وهي تنفجر ضاحكة: «إنّه جدي يا عزيزتي، لذلك ينبغي أن تعيديه لصاحبته».

وفي صباح اليوم الموالي، كان الجدي يتبعني من جديد، رافقني خلال الكيلومترات الثلاثة الأولى من مسيرتي. شعرت بالارتياح وأنا أعيده لصاحبة المتجر، لأنّ أمّي شرحت لي بأنّ قرنيه سينموان كثيراً، وقد يصير خطيراً.

خلال أشهر الشتاء تلك، قضيت مع أمّي لحظات حميمة حفظتها ككنز ثمين في ذاكرتي رغم أنّني لمست في تصرفاتها معي تغيّراً غير مفهوم. كانت في السابق شغوفة بالعناية بابنتها الصغيرة: تُلبسني أثواباً جميلة، وتغسل شعري بانتظام، وتربطه من حين إلى آخر بواسطة شريط. كل هذا تلاشى. صار الزيّ الذي أرتديه في المدرسة يصغرني بكثير، بحيث لا تبلغ التنورة ركبتي، والقميص الصوفي بالكاد يغطي نصفي العلوي، وكمّاه لا يتجاوزان مرفقي. اختفت ثناياه تقريباً، وفقد بريق لونه الأخضر، ممّا جعل هندامي يبدو بالغ الإهمال. صار شعري الذي كانت أمي تمشطه بولع كلّ صباح، مجعداً وباهتا. وترك القرطان اللذان كانا يزيّنان أذني الصغيرتين مكانهما لشعر مهمل يبلغ الكتفين، مطوِّقاً وجهاً هجرته البسمة إلى الأبد.

لو حدث ذلك في أيامنا هذه لبادر المدرِّسون إلى تنبيه أمّي. أما في سنوات الخمسينيات، فكان الإنذار يوجّه إلى التلاميذ.

رقّت لحالي إحدى المدرسات الشابات، وحاولت أن تتعامل معي بطيبة. نادت عليّ ذات يوم خلال الفسحة، ومشطت شعري، وربطته بشريط أصفر جميل. ناولتني إثر ذلك مرآة صغيرة لكي أرى صورتي، وقالت لي: «اسمعي يا أنطوانيت، قولي لأمك أن تمشط شعرك بهذا النحو كلّ يوم. فأنت تبدين جميلة هكذا!».

لأوّل مرّة بعد شهور شعرت بنفسي جميلة، وشعرت بالزهو وأنا

أعرض تسريحتي الجديدة على أمّي. لكنها استشاطت غضباً، ونزعت من شعري الشريط لسبب لم أفهمه. ثمّ أضافت بغضب واضح: «قولي لمعلّمتك إنّني قادرة على العناية بابنتي!».

صعقني تصرُّفها هذا. وسألتُ نفسي: أيّ ذنب ارتكبت يستدعي كل هذا الغضب؟ ولم أجد جواباً.

لاحظَت المعلّمة في اليوم الموالي أنّ شعري في حال أسوأ من المعتاد. فسألتني: «أين الشريط يا أنطوانيت؟».

وأدركتُ على نحوٍ غامض بأنّني سأسيء لأمي إن نقلت كلامها إلى المعلّمة، خفضت بصري، ولزمت الصمت. سمعت نفسي أغمغم وقد امتقع لوني: «لقد فقدته». شعرت بامتعاض معلّمتي. لا شكّ أنها اعتبرتني بنتاً جاحدة.

قالت بنبرة جافة: «حسناً، ولكن صففي شعرك على الأقل». وبهذا فقدتُ حليفتي الوحيدة في تلك المدرسة. تغيرت نظرتها إليّ، ولم تعُد تعاملني بلطف كما كانت قبل هذه الواقعة.

كنت أدرك أنّ صديقاتي وأصدقائي الصغار لم يكونوا يكنّون لي الودّ، ولم يكن المدرّسون أحسن منهم حالاً رغم صغر سني فهمتُ أن سبب هذا الصدود لا يعود إلى نبرتي الغريبة فحسب، بل إلى مظهري أيضاً. لم أكن أشبه في شيء الفتيات الأخريات بشعورهنّ النظيفة البراقة، منهن من تمسكنه بمشابك، ومن تصففنه إلى الخلف، وتربطنه بشرائط. كنت الوحيدة مَن تملك شعراً ملبّداً أشعث. وكانت أزياؤهن المدرسية مكوية بعناية، وقمصانهنّ ناصعة البياض، وكنزاتهنّ الصوفية غير مرتّقة. وكان التلاميذ الذين يقطنون بعيداً من المدرسة يركبون دراجات، فلا تتمزّق أحذيتهم وتبهت من كثرة المشي في الوحل مثل حذائي.

وقرّرت أن أتصرّف من أجل تحسين صورتي لعلّي ألقى قبولاً بينهم.

استجمعتُ شجاعتي، وانتظرتُ أن أخلو بأمي لكي أفاتحها في الموضوع. وتأتّى لي ذلك ذات مساء عند عودتي من المدرسة.

«هل يمكن أن أكوي لباسي المدرسي؟ ينبغي أن أعيد خياطة ثناياه. وهل يمكن أن أستعير ملمّع بابا وأستحمّ؟ أريد العناية بمظهري لكي أبدو جميلة في المدرسة».

وراحت مطالبي تنفلت من فمي الواحد تلو الآخر، وبعد كلّ حرف كنت أنطقه، كان الصمت يزداد ثقلاً

بادرتني أمّي بلهجة فاترة لم تكن غريبة عليّ: «هذه هي كلّ مطالبك يا أنطوانيت؟!».

رفعتُ رأسي باتجاهها، فقرأتُ في عينيها بارتعاب ملامح الغضب نفسها التي رأيتها يوم حدَّثتها عن قبلة أبي.

قالت بصوت يكاد يكون حانقاً: «لماذا تسعين دائماً لافتعال المشاكل؟ لا بأس بمظهرك. يا لك من فتاة متغطرسة!».

هكذا فقدتُ كلّ أمل في أن أجد لي مكاناً في المدرسة. كنت أعرف أمّي حقّ المعرفة، لذلك لم ألحّ في الطلب. لو أنني ثرتُ في وجهها، لكنت عرّضت نفسي للعقوبة التي كانت تؤذيني أكثر من غيرها: أن تتجاهلني تماماً.

كنت أتوجّس كلّ صباح وأنا في طريقي إلى المدرسة من كراهيّة التلاميذ، وازدراء المدرِّسين الذي لم يكونوا يخفونه. وكنت أجتهد للعثور على وسيلة تحبّبني إليهم.

كنت أواظب على إنجاز واجباتي المدرسية، وأحصل على أعلى العلامات، لكنّني كنت أعلم أن ذلك لن يزيدني إلّا نبذاً.

ولاحظت خلال الاستراحة أن الأطفال يجلبون أنواعاً من الحلوى، ويعمدون في بعض الأحيان إلى تبادلها كما يفعل الكبار بالنقود. وقد كانت وسيلة فعالة للتفاوض على كلّ حال. كنت أعلم أنّ الأطفال يحبّون الحلوى، ولكن كيف السبيل للحصول عليها وأنا لا أملك النقود؟ وعنّت لي فرصة للحصول عليها. ذلك أن المعلمة كانت تجمع المال لمطعم المدرسة مرّة في الأسبوع، وتتركه على مكتبها في علبة حديد بيضاء. فرسمتُ خطتي.

انتظرتُ خروج التلاميذ فاندفعتُ نحو المكتب وفتحتُ العلبة وأخذتُ ما استطعت إخفاءه من نقود في سروالي. قضيت بقيّة اليوم أمشي بحذر، إذ كانت القطع النقدية الملتصقة بلحمي تذكِّرني عند كل خطوة بجنايتي. كنت أخشى أن يفضحني رنينها، لكن كلّ شيء مضى على خير ما يرام.

خضع جميع التلاميذ عند اكتشاف السرقة للتفتيش. فحصت محافظهم، لكن لم يفكر أحد في تفتيش الملابس الداخلية.

كنت طفلة هادئة. أبدو في الظاهر مهذبة، لكن لا أحد كان يحفل بما أشعر به في قرارة نفسي. كنت أبعدُ مِن أن أتَّهم بالسرقة على كل حال. ولمّا عدت إلى المنزل ذلك المساء، دفنتُ غنيمتي في الحديقة. انتظرت أيّاماً قبل أن أستخرج بعض القطع وأشتري كيس حلوى من المتجر وأنا في طريقي إلى المدرسة.

خلال الفسحة انحشرتُ بين التلاميذ مُبدية ابتسامة خجولة، ورحتُ أعرض عليهم كيس الحلوى ليأخذوا منه ما شاءوا. تحلّقوا حولي متزاحمين وهم يمدّون أيديهم إلى الكيس ليصيبوا منه. تعالت ضحكاتهم، وأحسستُ لأول مرّة أنّني واحدة منهم. سعدتُ لفكرة أنهم قبلوني أخيراً بينهم، لكنّ ما إن فرغ الكيس حتى انفضوا من

حولي بالسرعة نفسها التي تجمّعوا بها وهم يهتفون فرحاً. عندئذٍ انتبهت إلى أنّهم إنما كانوا يضحكون منّي، وأنّ شغفهم بالحلوى لن يقرّبهم منّي أبداً. لاحظت أن كراهيتهم لي زادت بعد هذه الحادثة. فقد لمسوا أنني أتملّقهم وأشحذ عطفهم.

تذكّرت زياراتي إلى بيت السيدة تريفيت والسؤال الذي كنت أطرحه عليها باستمرار: «ممّاذا تُصنع الفتيات الصغيرات يا مدام تريفيت؟» فتجيبني: «من السكر والتوابل»، وكانت تضيف: أما أنتِ، فمصنوعة من مادّة أخرى.

6

كنت أصل إلى البيت منهكة من المشي، فأجلس إلى مائدة المطبخ لأنجز واجباتي المدرسية وأنا أغالب النوم. كان مصدر الحرارة الوحيد هو الموقد الموجود في أقصى الغرفة، بينما ينبعث من مصابيح النفط ضوء برتقالي باهت.

عندما أنهي واجباتي، أتناول كتاباً وأجلس قرب الموقد أو أراقب أمّي وهي تحضّر طعام العشاء. كانت تصبّ في مقلاة معدنية خليطاً غريباً يتحول بالحرارة على نحوٍ سحري إلى كعك أو إلى خبز إيرلندي تقليدي. كان علينا في ذلك الوقت تدبير مصاريفنا على نحو دقيق، بحيث كان شراء الكعك والخبز من المخابز ترفاً، شأنه في ذلك شأن اللحم الأحمر والفواكه. لم نكن نشتري شيئاً تقريباً، وكنا نعدّ كل ما نحتاجه بأنفسنا.

توفر لنا الدجاجات البيض، وما فضُل عن حاجتنا نبيعه لنشتري ما يلزمنا من متجر البقالة. فقد كان البقال يزورنا مرّتين في الأسبوع. وتزوّدنا حديقتنا بالجزر والبطاطس. ولمّا كنت أذهب إلى الضيعة المجاورة لجلب الحليب، كنت أُحضر أيضاً اللبن الرائب الذي تستعمله أمي في تحضير الكعك.

كنت أقرأ بطلاقة وأنا لم أتجاوز السابعة والنصف من عمري.
وكان حبّي للكتب يتزايد. تمرّ بالقرب من منزلنا كلّ عطلة أسبوع مكتبة متنقّلة، عبارة عن شاحنة محمّلة بالكتب، فكنت أستعير منها ما شئت. كانت الكتب والحيوانات هي وسيلتي الوحيدة للإفلات من واقعي. أهرب إلى عوالم عجيبة أعيش فيها مغامرات رائعة. أتخيّل نفسي مفتّشة شرطة مع «نادي الخمسة» لـ«إينيد بليتون»، وأرتعش من الخوف وأنا أقرأ «حكايات» غرين. وكانت «فتيات الدكتور ماتش الأربعة» تثبت لي أنّ بوسع النساء أن يعشن حياة مستقلّة. كنت أحلم بأن أصير «جو» لمّا أكبر، وألتقي خلسة، في ضوء مصابيح النفط الخافت بأصدقاء خياليين، أعيش معهم حياة أرتدي فيها ثياباً رائعة، وأحظى بحبّ الجميع. وبمقدار ما كان حبّي للكتب ينمو، كان بُغض أبي لها يتضاعف.

لم يكن يقرأ أكثر من ركن الرياضة في الجرائد، ويعتبر أنّ اهتمامنا، أنا وأمّي، بالكتب مضيعة للوقت. وبينما لم يكن يجرؤ على انتقاد أمي، لم يكن يتردّد في صبّ جامّ غضبه عليّ.

كان يغمغم: «فيم ستفيدك؟ ألا يوجد عمل أنفع تقومين به؟ أليست أمّك بحاجة إلى مساعدة؟ هيا، اذهبي وانظري ما إذا كان في المطبخ غسيل تقومين به!».

وفي أحيان أخرى كان يسألني: «وواجباتك المدرسية؟!».

فأجيبه: «أنجزتها». فلا يخفي تذمّره. كان بغضه يرهقني، وكنت أدعو الربّ أن يحلّ موعد النوم بسرعة لكي أخلد إلى فراشي، وأهرب من جديد.

كانت تنتاب أبي، وهو رجل يحقد على كلّ مخلوق سعيد أو مثقف، سورات غضب فجائية. لكنه كان أحياناً يعود إلى البيت

باكراً، ويجلب لنا الحلوى والشوكولاتة. كان في لحظات الوداد هذه يقبّل أمّي، ويُبدي لي حنانه. كان لي أبوان: أحدهما قاسٍ والآخر لطيف. الأول يرهبني، أما الثاني فكان الرجل البشوش المرح الذي تعلّقت به أمّي. على أن هذا الأب لا يظهر إلّا نادراً، ومع ذلك كنت متعلقة بأمل أن يتغلّب هذا الأب الطيب على الأب القاسي.

بحلول الربيع، استأجر أبي مخزناً وضع فيه لوازمه. قال لنا إن جميع المخازن القريبة من البيت تُستعمل في تربية الماشية. وهو يريد مخزناً يصلح فيه سيارته. وهو أمر سيمكّننا من ادّخار بعض المصاريف. فهو ميكانيكي ماهر، وسيكون من البلادة أن يؤدّي على خدمة يستطيع هو القيام بها! أليس كذلك؟

لم تعترض أمّي فراقَ مزاجه. وتغيّرت معاملته لي تماماً بين عشيّة وضحاها. كفّ عن توبيخي لأتفه الأسباب. عوض أن يتجاهلني أو ينهرني، صار يُحسن معاملتي. وقد دعاني هذا التحوّل في سلوكه إلى الحذر، لأنني لم أنسَ ما حصل لمّا تركتني أمّي معه في المطبخ، لكن حاجتي إلى الحنان جعلتني أتجاهل مخاوفي. على أنّه كان عليّ أن أصدق هواجسي.

قال لأمّي ذات ليلة: «لقد اشتغلتْ كثيراً في البيت هذا الأسبوع. ثمّ إن المسافة الطويلة التي تقطعها إلى المدرسة ذهاباً وإياباً أرهقتها! سآخذها في نزهة بالسيارة!».

ولاحت على وجه أمّي ابتسامة عريضة: «أسمعتِ يا أنطوانيت؟ أبوك يريد أخذك في نزهة بالسيارة».

قفزتُ إلى السيارة وأنا في منتهى الحماس، وإنْ كنت شعرت بشيء من التذمّر من عدم السماح لجودي بمرافقتنا. تساءلتُ وأنا أنظر من خلال زجاج النافذة أين ستنتهي بنا هذه الجولة، ولم يتأخر

الجواب. ففي طرف الطريق الذي يقود إلى بيتنا، انعطفت السيارة لتعبُر الحقل الذي يوجد به المخزن الصغير المستأجر. سيصير هذا المكان هو مقصد كلّ نزهاتنا الأسبوعية اللاحقة.

دلفت السيارة إلى البناية المعتّمة. كان ثمّة بصيص ضوء يتسرّب من نافذة صغيرة مُغلَقة بقطعة خيش. انقبض قلبي وانتابني خوف لم أشعر بمثله قط. لزمتُ السيارة ولم أرغب في مغادرتها.

«أرجوك يا بابا، لنعُد إلى البيت، هذا المكان لا يروقني!».

«لا تتحرّكي يا أنطوانيت، أبوك جلب لك هدية ستروقك كثيراً، سترين!».

وتحوّل خوفي إلى جزع، فتسمّرت في مكاني على المقعد. ترجّل من السيّارة وأغلق باب المخزن، ثمّ فتح باب السيارة حيث كنت أجلس. وفي اللحظة التي أرغمني فيها على الاستدارة نحوه، لمحت أزرار سرواله مفتوحة. كان وجهه ممتقعاً، وعيناه مضطرمتين. نظرت إليه، لكنه بدا كما لو أنه لم يكن يراني. مضى جسدي الصغير يرتعش، وندّت عنّي صرخة صغيرة متأوّهة.

قال وهو يمسك بيدي الصغيرة: «كوني بنتاً وديعة!». ضغطتْ يدٌ قاسية على بطني، بينما مضت الأخرى تنزع تنورتي وتُنزل سروالي بحركة فظّة. شعرتُ بالخزي من ظهور جسدي الصغير عارياً أمامه. وضعني على جلد المقعد البارد، وأرغمني على الاضطجاع على جنبي ورفع ساقيّ. حاولت شدّهما، لكنّه تمكّن من فتحهما. شعرتُ به يباعد بينهما وينظر إلى تلك المنطقة من جسدي التي كنت أظنّها حميميّة. وشعرتُ بمخدّة توضع تحت ردفي، وبألم حاد بالرغم من أنه لم يصل إلى أن يمزّقني.

أصابني الخرس، وشلّت حركتي. حاولت أن أركّز ذهني على

أيّ شيء آخر باستثناء ما أتعرّض له، لكن رائحة الزيت والرطوبة في المخزن، الممزوجة برائحة التبغ والعرق المنبعثة منه، جعلتني أشعر كما لو أنها تنفذ من خلال مسامّي.

مضت لحظة بدت لي أطول من الدهر ثمّ ندّت عنه شهقة وانسحب. أحسستُ بمادة دافئة لزجة تسيل على بطني. رمى إليّ بقطعة خيش وهو يقول: «امسحي بهذا!».

امتثلتُ لأمره من دون أن أنبس.

العبارة التي تفوّه بها إثر ذلك ستصير لازمة مؤذية: «لا تخبري أمّك بشيء يا صغيرتي. هذا سرٌّ بيننا. وحتى إذا أخبَرْتِها، فلن تصدّقك، وستتخلّى عن حبّك».

كنت أعلم مسبقاً أنّ قوله صحيح.

السرّ الذي حفظته لأبي ولنفسي لم تكن أمّي تجهله. هكذا بدأت لعبتنا منذ ذلك اليوم، لعبة اسمها: «السر الذي بيننا»، وهي لعبة سنلعبها أنا وأبي لسبع سنوات.

7

أعلن عيد ميلادي الثامن عن حلول خريف مبكّر، ما لبث أن تلاه برد شتوي قارس. ورغم أنّنا لم نكن نكفّ عن ملء المدفأة بالفحم، إلّا أن انتشار الحرارة لم يكن يتجاوز بضع عشرات من السنتيمترات. كنت أجلس أقرب ما يكون من المجفف الخشبي الذي أضع عليه معطفي المبلل وحذائي وسروالي الصوفي. كان عليّ أن أجففها لليوم الموالي لأنني لا أملك غيرهما.

يوقظني صوت أمّي القادم من المطبخ في الصباح الباكر. يقرص البرد طرف أنفي بمجرّد ما أخرج رأسي من الفراش. أمدّ يدي إلى الكرسي لألتقط ملابسي، ثمّ أرتديها وأنا تحت الفراش. ألبس سروالي الصوفي أوّلاً قبل أن أنزع الجزء العلوي من المنامة وأرتدي قميصي الصوفي وأسناني تصطكّ من البرد. عندئذٍ أغادر عشّي الدافئ لأواجه برد البيت اللاسع. كنت أسارع إلى وضع الغلاية على الموقد الذي يعيده الفحم شيئاً فشيئاً إلى الحياة.

أغتسل على عجل في حوض المطبخ بينما تكون البيضة التي سأتناولها على النار. أتمّم ارتداء ملابسي، وأفطر بسرعة ثمّ أرتدي معطفي الذي ما زالت به آثار البلل، أتناول محفظتي وأنطلق إلى المدرسة.

كنت أرتدي في عطلة نهاية الأسبوع قميصي الصوفي القديم، وأنتعل الحذاء المطاطي الطويل، وأساعد أمي في جمع البيض من المحاضن، وكذا ما تناثر منه خارج الخمّ. كانت تقدّم لدجاجاتها حليباً بالشوكولاتة حوالي الساعة الحادية عشرة من كلّ يوم لعلّها تبيض بيضاً مشبَعاً بحمرة. لم نعرف أبداً ما إذا كان لذلك أثر على حجم ذلك البيض المشبع بحمرة، لكن الدجاجات كانت تجري باتجاهها بمجرد ما تناديها، وتغمس مناقيرها بلهفة في ذلك السائل الدافئ، ثم ترفع رؤوسها إلى الأعلى.

كنا نخلص أيضاً الدّلاء المليئة بماء البئر من الضفادع، ونجمع الحطب للموقد. ولعلّ أجمل اللحظات التي كنت أوثرها هي لمّا أراقب أمي وهي تطبخ. حين يبرد الكعك والخبز الإيرلندي التقليدي، تضعه في علب معدنية لكي تحميه من هجمات جحافل الجرذان التي تتّخذ من بيتنا مستقرّاً خلال الشتاء.

وكانت أمّي تضع علب الكعك والبسكويت على الرفّ. فإذا ما كانت رائقة المزاج، تركتني ألحس الإناء، فلا أترك فيه قطرة عجين.

انبعثت في هذه الفترة من حياتي علاقتي الحميمة بأمّي، فكانت تغذّي حبّي لها. فإذا كانت قد نقشت في ذاكرتها صورة الرجل الإيرلندي الوسيم الذي راقصها ذات يوم في أحد المراقص، وانتظرها على الأرصفة، ولم يبخل عليها بالقبل والوعود، فإنّ ذاكرتي قد حفظت منذ طفولتي المبكرة، وإلى الأبد، صورة أمّ حنون باسمة.

اشتريتُ بالنقود التي سرقتُ مصباحاً يدوياً وبطاريات، أخفيتها في غرفتي. وهو ما مكّنني من قراءة الكتب خلسة في غرفتي ليلاً. كنت أتكوّم تحت الغطاء، وأتعب عينيّ في تقليب الصفحات.

أستغرق في القراءة فلا أسمع طنين الحشرات ودبيب الحيوانات الصغيرة التي تسكن سقف القش. وأنسى للحظة «نزهات» أبي بالسيارة.

في كلّ مرّة كان يتناول فيها المفاتيح مُعلناً عن حلول موعد النزهة الأسبوعية، كنت أتضرّع لأمّي في صمتٍ من أجل أن تعترض، أن تقول إنها بحاجة إليّ في أمر من الأمور، جمع البيض أو تخليص الدلاء من الضفادع أو حتى جلب الماء للغسيل، لكنّها لم تكن تفعل شيئاً.

«اذهبي مع أبيك يا عزيزتي، سأحضّر لكما الشاي». كان يأخذني إلى المخزن كلّ أسبوع. وهكذا تعلّمت أن أفصل بين مشاعري وبين الواقع.

كنّا نجد أمّي عند عودتنا قد حضّرت ساندويشات، ووضعت على المائدة طبقاً فضيّاً به كعك كبير مقطّع.

كانت تقول لي: «اغسلي يديك يا أنطوانيت!» ثمّ نجلس إلى المائدة لتناول شاي الأحد.

لم تسألني قطّ عن تلك النزهات، ولا عن المكان الذي نذهب إليه، ولا عمّا فعلناه.

بعدما كانت زياراتنا لكولراين مألوفة فيما سبق، صارت نادرة في هذه الفترة. اشتقتُ إلى عائلتي هناك، وإلى الدفء الذي كنتُ أشعر به في بيت جدّي وجدّتي، وكذا للقاء أبناء أعمامي وعماتي.

في المرات النادرة التي أخذنا فيها أبي لزيارتهم، كنا نملأ حوض الاستحمام المعدني المتواري خلف ستار في المطبخ. وفي عشية السفر، كنت أغتسل، فتجفّف أمي شعري بواسطة منشفة،

وتلفّ جسدي المهزول في ثوب بالٍ، وتضعني قرب الموقد. وكانت تمشط شعري إلى أن يبدو لامعاً، وفي صباح اليوم الموالي، نُخرج أجمل ملابسنا، ويلمِّع أبي حذائي، في حين تشرف أمّي على إلباسي. كانت ترسل شعري إلى الخلف وتمسكه بعصابة قطيفة سوداء. أنظر في المرآة فتتراءى لي صورة أخرى غير تلك التي اعتادها زملائي في المدرسة. تختفي تلك الفتاة المهملة لتحلّ محلّها فتاة في حلّة بهية، يرعاها والداها حقّ الرعاية.

إنها بداية لعبة شاركنا فيها ثلاثتنا: لعبة «الأسرة السعيدة». كانت أمّي هي صاحبة هذه اللعبة. تتظاهر بتحقيق حلمها: زواج ناجح برجل وسيم، وبيت وبنت صغيرة جميلة.

خلال زياراتنا العائلية، كانت ملامح أمّي تتخذ هيئة خاصة لم تكن خافية عليّ. توحي حركاتها بأنّها إنّما أتت إلى هناك بدافع اللباقة، وتعلو وجهها ابتسامة مهذّبة تدلّ على أنّها لم تُجبَر على المجيء، لكنها لا تجد بالمقابل في ذلك أيّ متعة. وكانت هذه الابتسامة تتلاشى بمجرد ما تغادر السيارة الشارع الذي يقطن فيه جدّي وجدّتي.

ما إن تتحرّك السيارة حتّى تشرع سحابة الكراهية في التكثّف شيئاً فشيئاً ثم تأخذ في السقوط قطرة قطرة. تنطلق في استعراض تصرفات كلّ عضو من أعضاء العائلة: لا يفلت من نقدها أحد، كل ذلك تصاحبه ضحكة لا أثر فيها للدعابة. وكلّما أمعنت في تذكير أبي بأصوله، وبالفروق بينهما، ازدادت رقبته احمراراً.

فإذا كانت ذاكرتها قد حفظت صورة الرجل الوسيم الذي راقصها، فإنّ الصورة التي ترسّخت في مخيلته هو هي صورة الإنجليزية الأنيقة التي لم يحلم يوماً بالارتباط بمثلها.

أما أنا، فلا يحلّ وقت النوم حتى تكون متعة تلك اللحظات العائلية قد تبخّرت، ولا يفضُل منها غير ذكريات بعيدة. تتوقّف لعبة الأسرة السعيدة وأنا أعلم أننا لن نعود إليها إلا في الزيارة اللاحقة.

وعُدنا إلى بيت جدي وجدتي قبيل آخر عيد ميلاد أمضيناه في منزل القش. اكتشفتُ في الغرفة الصغيرة التي كان جدي يصلح فيها الأحذية سابقاً طائراً غريباً، أكبر من الدجاجة، بريش رمادي وطوق أحمر حول عنقه، وكانت إحدى رجليه مربوطة بسلسلة إلى حلقة مثبتة في الجدار. قرأت في نظرته أنه محتاج إلى الرُّفقة والحرية. سألت جدّي وجدّتي عن اسمه، فأجاباني ببساطة: أنثى ديك رومي.

لم أكلّف نفسي كثيراً لأعثر لها على اسم: «السيدة داند». خفت في البداية من منقارها الذي يكبر منقار الدجاجة، لذلك اكتفيتُ بالجلوس بقربها والتحدث إليها، لكن لما لاحظت وداعتها، تشجّعت ومددتُ يدي لأداعبها. لم تصدّني، فقلت في نفسي لقد اكتسبتُ صديقة جديدة. على أنّ أحداً لم يخبرني بالمصير الذي كان ينتظرها.

وبما أن جدّي وجدّتي دعوانا لقضاء حفل عيد الميلاد معهما، فقد حرصتُ على إتقان دور الفتاة الصغيرة السعيدة التي تعيش في كنف أسرة متماسكة. كانت الغرفة حاشدة، وكانوا قد وضعوا قرب نافذة الصالون المزدحم شجرة سرو بالغوا في تزيينها بقطع حمراء وذهبية اللون. راح أحدهم يوزّع المشروبات، وتناقلت الأيدي الكؤوس. وصار أبي الذي انتشى بالكحول هو مركز اهتمام الجميع. كان يمزح ويضحك: هو الابن والأخ المحبوب، وكنت أنا أيضاً محبوبة لأنّني ابنته.

نقل جدي وجدتي مائدتهما الصغيرة من مكانها المعهود قرب النافذة إلى وسط الغرفة، وأضافا لها أجزاء بدا لونها، من ندرة

استعمالها، مخالفاً للون المائدة، وذلك حتى تَسَعَ ثمانية أشخاص. لُمّعت الأواني بهذه المناسبة، ووُضع «كريستمس كراكر» بجانب كل صحن من صحون الضيوف، واستعيرت الكراسي ونُضِّدت حول المائدة. وقد جلستُ قبالة والدي.

كانت تفوح من المطبخ الصغير العاجّ بالحركة رائحة لذيذة. جلبت جدتي وعمّتي أطباقاً عديدة من اللحم والخضر المسلوقة والبطاطس المقليّة المغمورة في المرق. لم تعرض أمّي مساعدتها، ولم يَطلب منها أحد ذلك.

شعرتُ بلعابي يسيل وأنا أنظر إلى الصحن المليء أمامي. ذلك أنّ وجبة الإفطار كانت في الواقع خفيفة: فنجان شاي وبسكويت. كنت متلهّفة لأن يشرع أحد البالغين في الأكل لكي أسدّ جوعي وأستمتع. وضع أبي اللحم في صحنه وأخبرني بما وقع لصديقتي.

تحوّلت شهيتي إلى إحساس بالغثيان، ورحتُ أنظر مشدوهة إلى الجمع في صمت لثوانٍ. مضى أبي ينظر إليّ نظرة هازئة. أما الآخرون فوجدوا الموقف مسليّاً. أجهدتُ نفسي لأخفي مشاعري، أدركتُ بالغريزة أنّني إن أعرضتُ عن الأكل فسيشعر أبي بالرضا، وأن أي دمعة أذرفها على صديقتي ستكون مدعاة لتهكُّم الراشدين. فهم لا يكترثون بمشاعر طفلة صغيرة في سني.

أكلت إذن ما بصحني وأنا أبلع اللقمات على مضض، وشعرت بدواخلي تغلي من الغضب. وهكذا اكتشفتُ الكراهية في هذه المناسبة، واستحالت ضحكات الراشدين المتعالية في نظري إلى رمز للمؤامرة.

ثم فُتحت أوراق «الكراكر»، ووُضِعت القبّعات التقليدية على الرؤوس. تورّدت الوجوه بالحرارة وكمية الكحول الكبيرة التي شربها

الحاضرون باستثنائي أنا وماما. فقد احتست نبيذاً أبيض، بينما شربتُ أنا عصير برتقال.

لم أكفّ عن التفكير في ذلك الطائر الذي بدا تعيساً في تلك الغرفة الضيقة حيث قضى آخر أيامه. شعرتُ بالخزي من حفل الميلاد الذي تسبَّب في قتله، وبالخزي أيضاً من أنني أكلته تلافياً لاستهزائهم.

أحضروا إثر ذلك حلوى أعياد الميلاد (كريستمس بادينغ)[1]، وقد كانت قطعة الفضة من نصيبي. ثم حلّ وقت الهدايا. أهداني جدي وجدتي قميصاً صوفياً، وأهدتني عمّاتي وأعمامي شرائط ومشابك لشعري وحليّاً ودمية. وقدّم لي والدي علبة كبيرة قادمة من إنجلترا، تحتوي على عدد من كتب إينيد بليتون، كُتب عليها اسمي. إنّها هدية جدتي الإنجليزية. وهي هديّة حرَّكت في نفسي ذكريات الأيام الماضية السعيدة. تراءت لي هيئتها الأنيقة، وسَمِعْتها تناديني: «أين أنت يا أنطوانيت؟». وتناهت إلى سمعي ضحكاتي وأنا أتظاهر بالاختباء، وشممتُ عطرها لما كانت تُحني عليّ لتقبّلني. قلت في نفسي لو كانت معنا، لاستعدنا سعادتنا من جديد.

وأهداني والداي مقلمة وكتابين مستعملين. لم نمكث إلّا قليلاً بعد ذلك ثمّ غادرنا.

نمت على الفور عند عودتنا إلى البيت من شدّة التعب من دون أن أقرأ أو أنتبه لضجّة الهوامّ في سقف القش.

خرجت في اليوم الموالي في نزهة من دون الكلبتين آملة أن

---

(1) حلوى أعياد الميلاد التقليدية التي تدسّ بداخلها أحياناً قطعة فضية (المترجم).

أصادف أرانب. فقد اعتدتُ على الذهاب إلى حقل موجود في أعلى تلّة كنت أستلقي عليها وأراقبها، لكن انتظاري خاب ذلك الصباح. فقد منعها الجو البارد من الخروج.

ولم أفلح في رؤيتها بعد صبر طويل إلّا في عيد الفصح لما صادفت خرنقاً وجهاً لوجه. بدا كما لو أنّ والديه هجرانه. لم يتحرّك لمّا أحنيت عليه لأحمله بين ذراعي. دسسته تحت قميصي الصوفي لكي يستدفئ، ثمّ جريتُ إلى المنزل وقلبي يخفق خفقاناً شديداً.

هتفت أمي حين رأت نتوءاً غير عادي تحت قميصي: «ماذا تخفين هناك؟».

رفعتُ قميصي لأريها الخرنق، فتناولته بلطف بين يديها وقالت: «سنُعدّ له مخبأ، ونحتفظ به إلى أن يكبر ويصير قادراً على العثور على أسرته».

أحضرتْ جرائد قديمة، وأرتني كيف أصنع له مأوى. ثم بحثتُ عن صندوق خشبي حوَّلناه إلى قفص. ولمّا علم المزارعون من جيراننا بأنّنا آوينا أرنباً، أحضروا لنا أرانب أخرى. قالوا إنّ الكلاب والثعالب تقتل الأرانب البالغة، فتخلّف صغاراً غير قادرة على الاعتماد على نفسها للبقاء. هكذا تكلّفنا أنا وأمّي بالعناية بيتامى الأرانب، فكنّا نحضر لها التبن والعشب والماء، ونطعمها بأيدينا.

علّقتْ قائلة: «لا يمكن أن تحتفظي بها لمّا تكبر. إنها أرانب برية تعيش في الحقول. لكننا سنحتفظ بها إلى أن يشتدّ عودها».

كان أبي يراقب ما نصنع من دون أن يعلّق. كنت أشعر، انطلاقاً من مراقبتي الدائمة لمزاجه، بأنه لم يكن راضياً على ما نفعل. لكنّه لم يتدخل لأنّ أمّي كانت تشاركني الاهتمام بهذه المخلوقات الضعيفة.

وبينما كنّا نستعد لإطلاق الأرنب الأوّل بعد أسابيع من وصوله، نزلت إلى المطبخ بحثاً عن أمّي فوجدتها تنتظرني بسحنة ممتقعة وقد استشاطت غضباً.

ما كادت تراني حتّى صفعتني صفعة من القوة بحيث استغربتُ أن تصدر عن امرأة في حجمها، ثم أمسكتْ بكتفي وجعلتْ تخضُّني. كان يستدفئ قرب الموقد وهو يختلس إلينا النظرات، وقد ظهرت على محيّاه بسمة خبيثة.

كل ما استطعت أن أنطق به هو: «ماذا فعلت؟».

«لقد تركتِ باب القفص مفتوحاً فدخلت الكلاب وارتكبت مجزرة».

فاعترضتُ قائلة: «لقد أغلقت باب القفص مساء أمس، ولم أعُد إليه!».

صفعتني ثانية متّهمة إيّاي بالكذب، ثمّ سحبتني إلى مكان المذبحة. كانت الأرض مطليّة بالدم، وأذناب الأرانب ومزق من فروها مبعثرة في المكان، ولم تسلم غير قوائمها. وددتُ لو أصرخ، لكن لساني انعقد، وراحت فرائصي ترتعد.

أمرتني بجلب الماء وتنظيف الأرضية. ظلّت فكرة واحدة تشغل فكري: أنا واثقة من أنّني أغلقت باب القفص.

8

أخذت الحياة مجراها في منزل القش: قطع المسافة الطويلة بين البيت والمدرسة، إنجاز الواجبات المدرسية، و«نزهات السيارة» في عطلة نهاية الأسبوع. وفي بعض الأحيان، كنت أنزاح عن هذه الرتابة بزيارة جدّي وجدّتي، لكن منذ أعياد الميلاد، فترت همّتي.

وذات يوم سبت، بينما ذهبت إلى الضيعة المجاورة لجلب الحليب، بادرت زوجة صاحب الضيعة بدعوتنا إلى شرب الشاي في اليوم الموالي، وحمّلتني رسالة قصيرة أسلّمها لأمي. وكم كانت سعادتي كبيرة لمّا قبل والداي الدعوة.

يقدّم الشاي في الريف عند الساعة السادسة مساء، لأنّ المزارعين يستيقظون عند الفجر وينامون باكراً. واستُؤنِفت لعبة الأسرة السعيدة فور خروجي من الحمام، وارتدائي أجمل ثيابي بعد تصفيف شعري. وبما أنّني كنت آمل أن يسمحا لي باكتشاف الضيعة، أبديتُ عدم رغبتي في هذا اللباس، لأنّ أمّي لم تكن تسمح بأن ألعب بلباسي الجميل مخافة تلطيخه.

قالت زوجة صاحب الضيعة لولديها فور وصولنا كما لو أنّها

قرأت ما يجول بخاطري: «رافقا أنطوانيت لزيارة الضيعة، فهي تعشق الحيوانات».

واندفعت إلى الخارج بصحبة الولدين قبل أن تجد أمي الوقت لكي توصيني خيراً بملابسي. لطالما بدا لي الولدان اللذان يكبرانني سنّاً بقليل، خجولين، لكن ما إن اختفينا عن أنظار الكبار حتى اكتشفتُ أنّهما في غاية اللطف. رافقاني في البداية إلى زريبة الخنازير، حيث ترقد خنزيرة ضخمة على جانبها وقد تعلّق بأثدائها حشد من الخنانيص. كانت تبدو غير عابئة بوجودهم. وحين سمعَتْ أصواتنا، فتحت عيناً محفوفة بأهداب بيضاء ثمّ أغلقتها وغطّت في النوم من جديد. لعلّها قدّرت أنّنا لا نهدّد صغارها. ثم أخذني الولدان إلى الحلابة الكهربائية حيث كانت تقف بقرات هائلة تنتظر انتهاء الآلات العالقة بضروعها من الحلب. ورافقاني إلى كوخ صغير قريب كانت تُحضّر فيه الزبدة يدوياً. وفي الأخير زرنا مخزناً كدّست فيه رزم التبن حتّى السقف. كان المكان مناسباً تماماً للعبة الغمّيضة، فلعبنا إلى أن نادت علينا زوجة صاحب الضيعة.

أمرت الولدين بأن يغتسلا لأنّهما ساعدا والدهما في أعمال الفلاحة قبل مجيئنا. وعاد زوجها أيضاً لكي يتهيّأ لشرب الشاي. وقامت أمّي بمساعدتها في إعداد المائدة.

سألتني المرأة: «هل رأيت صغار القطط يا أنطوانيت؟».

فأجبت: «كلا».

أمسك أبي، وقد لبس قناع الأب الطيب ذلك اليوم، بيدي وهو يقول: «تعالي سنبحث عنها معاً بينما يُحضَّر الشاي».

انقطع أملي بعد هذا اليوم في أنه يمكن أن يكون أباً طيّباً.

أخذني إلى المخزن حيث لعبتُ أنا والولدين قبيل لحظات،

توغّلنا داخله فعثرنا على سلة مليئة بقطط صغيرة من مختلف الألوان، تمتدّ من الأسود الفاحم إلى الأبيض الناصع. كانت بالغة الصغر وعيونها كانت ما زالت زرقاء. مضى أحدها يتثاءب، فكشف عن لسان صغير وردي وأسنان دقيقة بيضاء. قرفصت لأداعب فرو هذه المخلوقات الصغيرة التي كانت تتحرك بلطف وقد دوّختني روائح الدواب. التفتّ وألقيتُ إلى أبي نظرة متضرّعة لعلّه يسمح لي بأخذ واحداً منها، لكن ما إن التقت عيني بعينه حتى تجمّدتُ في مكاني: لقد نزع قناع الأب اللطيف، ولاح لي اتّقاد عينيه من جديد، ونظرته الماكرة، فشعرت بغصّة في حلقي، وانعقد لساني.

ورأيت، كما لو كان ذلك مشهداً صُوِّر بالعرض البطيء، يده ترفع تنورتي فجأة، وتسحب بحركة فظّة سروالي إلى الكاحلين. أحسست بخشونة التبن على جسدي العاري. وبعد أن انتهى، مضى يزرّر سرواله، وأخرج من جيبه منديلاً ورماه لي، وجاءني صوته من بعيد يقول: «امسحي بهذا!».

تلاشى ما أحسستُ به من بهجة ذلك اليوم، وتوارت الشمس ليبدو العالم رمادياً وعدائياً. امتثلت لأمره وهو يراقبني.

سألني وهو يرتّب شعري: «أأنت جاهزة يا أنطوانيت؟» ثمّ لبس قناع «الأب الطيب» وأمسك بيدي، وعدنا إلى البيت لتناول الشاي.

ارتسمت على زوجة صاحب الضيعة ابتسامة عريضة. اعتقدَت أن سبب عبوسي هو اعتراض أبي على أن آخذ معي قطّاً، فقالت: «انظري يا أنطوانيت، هذه القطط ليست أليفة، كل ما يهمّ قطط الضِّيع هو صيد الفئران».

نظرتُ إليها من دون أن أنبس، ولم أعد أقوى على الكلام. جلستُ في مكاني مصعوقة. قدّموا لنا وجبة خفيفة سخيّة: لحم

خنزير مدخّن ودجاجاً مشوياً وبيضاً مسلوقاً وسلطة وحلوى بطاطس وخبزاً إيرلندياً تقليدياً ومربّى معدّاً في البيت. وظلت تقول لي: «هيا يا أنطوانيت، كلي!» ثمّ تقول لأمي: «إنها هادئة اليوم».

ألقت إليّ أمي نظرة ازدراء جعلتني أتجمّد في مكاني، ثمّ التفتت إلى صاحبة البيت باسمة وقالت: «ابنتي ليست ثرثارة. تقضي معظم وقتها في القراءة».

كانت هذه هي الزيارة العائلية الوحيدة التي قمنا بها خلال هذه المرحلة من حياتي باستثناء زيارة جدّي وجدّتي.

رحتُ أفكر وأنا جالسة في قاعة انتظار الملجأ في تلك الفتاة التي كنتُها ذات يوم. تذكرت أنّها كانت مفعمة بالثقة: واثقة من حبّ أمها، ولا شيء كان يدعوها إلى الارتياب في الراشدين. تراءت لي في سنّ الثالثة من عمرها وهي تبتسم أمام عدسة التصوير. وتذكّرت حماسها لمّا سافرت إلى إيرلندا الشمالية، وبهجتها عند التحاقها بالمدرسة الجديدة، وتعلّقها بكلبتها. وتساءلت عن حياة أنطوانيت كيف كانت ستكون لو تُرِكَت تكبر كبقية الأطفال.

وألحّت علي صورة أخرى: فتاة صغيرة في غرفة مظلمة شلّها الخوف، متكوّمة في سريرها قرطاها البنيان ملتصقان برقبتها وهي تمصّ إبهامها، وعيناها جاحظتان، عاجزة عن إغلاقهما مخافة أن يعاودها الكابوس. ترى نفسها مطارَدة ولا تستطيع السيطرة على نفسها. هذا الكابوس الذي ما زال يقضّ مضجعي إلى اليوم يعود إلى تلك المرحلة.

كانت تعلم أنّها أكبر من أن تستغيث بأمّها، فتمكث في سريرها مرتعشة إلى أن يأخذ منها التعب مأخذه.

وتذكرتُ لأوّل مرّة بعد سنوات الخيانة العظمى التي حدّدت مصير هذه الطفلة. لم أستطع الاستمرار في الحياة إلا بطمرها في أعماق ذاكرتي وخلق شخصية توني.

تمنيت لو أستطيع القفز على السنين وضمّها بين ذراعي، وحملها إلى مكان آمن، لكن أنطوانيت لم يعُد لها وجود حتّى أنقذها.

كنت أطرح دائماً السؤال نفسه: «لماذا تغاضت أمّي كل هذا التغاضي؟».

لطالما ظننتُ أنّ أمّي عاشت حياة لا سعادة فيها. حياة حطّمتها أنانية أبي. كنت أعتبر أنّها جاءت من الطبقة الوسطى الإنجليزية، ولم تهنأ قط بالعيش في إيرلندا الشمالية، وأخفقت في اختيار الزوج المناسب. لكنني أدركتُ فجأة، ولأوّل مرّة، الذنب الذي اقترفته. لمّا حدّثتها عن تلك القبلة، كانت تعلم حتماً ما سيعقُبُها. كانت حينئذٍ في السادسة والثلاثين من عمرها وعاشت فترة الحرب. سحبتني من المدرسة التي كنت سعيدة فيها. مدرسة تضمّ أكفأ أساتذة إيرلندا، تديرها ناظرة من الفطنة والذكاء بحيث كانت ستلاحظ لا محالة ما كان يطرأ عليّ من تغيُّر، وستتساءل عن السبب. فهمتُ أن هذه هي اللحظة بالذات التي صارت فيها أمّي متواطئة مع أبي في الجريمة.

وهمس الصوت: «أفهمت الآن يا توني؟ فهمتِ ما اقترفتْ؟

- كلا، لم أفهم شيئاً. أريدها أن تعترف لي بذلك وأن تفسّر لي السبب.

- تذكري تلك الألعاب يا توني».

كانت اللعبة الأولى في بادئ الأمر هي «سرنا الصغير»، ثم تلتها لعبة «الأسرة السعيدة»، ثم أخيراً لعبة روث «الضحية».

عادت بي الذاكرة إلى المرّات العديدة التي كانت توظف فيها لباقتها ونبرتها الإنجليزية لكي تُخرِج نفسها من المواقف الحرجة، وتقنع الناس بأنّني طفلة مشاكسة وهي أمّ صبور.

كانت تعلم أن مسافة اثني عشر كيلومتراً التي أقطعها مشياً كل يوم، لا تترك لي وقتاً لاكتساب أصدقاء. فكلّ تلاميذ القرية يسكنون قرب المدرسة، ومن ثمّة يتعذر عليّ لقاؤهم في عطلة نهاية الأسبوع والعطل الأخرى. كنت أعيش في عزلة تامة، ومن ثمّة ليس لي أحد أبوح له بأسراري.

أقول في نفسي بمرارة إنّه شيء كنت أعيه تمام الوعي، ومع ذلك لم أكفّ أبداً عن حب أمي، لأن هذه هي سجية الأطفال. إلّا أنني أتساءل الآن، وهي على فراش الموت، عمّا إذا كانت ستقدّم لي تفسيراً. هل ستقرّ أخيراً بأنها لم تكن ضحية، وأنني لم أفعل شيئاً يدعوني للشعور بالذنب؟ هل ستتفوّه بكلمة اعتذار؟

هذا ما أمِلْتُه وتقتُ إليه وأنا عائدة إلى غرفتها. جلستُ قرب سريرها، وغلبني النوم.

9

خيّمت على منزل القش سحابة سوداء جعلت تحوم حول رؤوسنا وتخترق أذهاننا. سمّمت الجو، وتحوّلت إلى كلمات؛ كلمات مرارة وعتاب وغضب. ظلّت أمّي تردّد الاتهامات نفسها: إنّ أبي مقامر ومدمن كحول، بدّد تعويضات الإقالة من العمل. دفعته اتهاماتها هذه إلى قضاء معظم وقته خارج البيت، لكن صبره نفد، فغضب غضبة ستُلقي بظلالها على كل ركن من أركان البيت لفترة طويلة.

وانتصبت علب الشاي من جديد في الصالون، واختبأت الكلبتان تحت المائدة، كما لو استشعرتا خطراً محدقاً.

أخبرتني أمي بأننا سنغير المسكن. كنت أسحب عليّ الغطاء في السرير حتى أحتمي من القلق الذي كانت تزرعه في نفسي شجاراتهما الدائمة.

وممّا كان يضاعف من غيظ أمّي موقع بيتنا النائي، وحاجتنا الدائمة إلى المال رغم ما تبذله من جهد، لكنّ ابتسامة منه كانت كافية لإطفاء غيظها.

لطالما حلمتْ بامتلاك منزل على غرار والدتها، لكنّ أملها في

العثور على عمل يدرّ عليها دخلاً وفيراً تبدّد: كان عليها أن تكافح من أجل أداء كلفة الإيجار، ولم يكن يفضُلُ لها شيء تدّخره.

قالت لي ذات صباح: «سنذهب لزيارة سيّدة يا أنطوانيت. إنْ نلتِ إعجابها، لربّما انتقلنا للعيش معها. أريدك أن تتصرّفي ببالغ الأدب. لو قيِّض لنا العيش معها، ستعودين إلى مدرستك القديمة. ألا يروقك هذا؟».

تحرّكت مشاعري، لكنني حرصت على إخفائها، واكتفيت بأن أجبت: «أجل يا ماما، هذا يروقني كثيراً».

آويت إلى فراشي تلك الليلة وقد تعلّقت بهذا البصيص من الأمل. هل سأترك حقّاً مدرسة القرية التي لا يحبّني فيها أحد، وأعود إلى مدرستي القديمة إلى جانب أصدقائي؟ ثمّ توالت الأسئلة: من تكون هذه السيدة العجوز؟ ولماذا لا يرافقنا أبي؟ شغلت بالي هذه الأسئلة التي لم أعثر لها على جواب إلى أن غالبني نوم مضطرب.

استيقظت باكراً، وكان أوّل ما تبادر إلى ذهني الحديث الذي دار بيني وبين أمّي في اليوم السابق. عبرَت جسدي رعشة من الإثارة، لكنّني حاولتُ قمعها مخافة أن يخيب أملي.

أأعود حقّاً إلى مدرستي القديمة؟ وساورني الأمل في هذه العودة وأنا أنزل السلم.

وضعت أمّي أوعية ماء كثيرة على الموقد، وقالت لي إنّني سأستحم، وهو ما عزّز آمالي. وبينما كنت أتناول فطوري، جهّزتْ حوض الاستحمام. نزعتُ ملابسي بسرعة وانغمرت في الماء الساخن الممزوج بالصابون. تناولت أمّي قطعة ثوب وفركتني من رأسي إلى أخمص قدمي، ثم مشطت شعري بعناية كبيرة. استطبتُ

تلك الحركات المنوّمة وحرارة الموقد، فالتصقتُ بركبتيها. وغمرني شعور عجيب بالأمان. تمنيتُ لو كانت تعتني بي بهذا النحو كلّ يوم كما كانت تفعل في السابق.

بعدما انتهت من تمشيطي، أتتني بالملابس: جوربان بيضاوان وحذائي ملمّعاً. ثمّ رافقنا أبي إلى كولراين حيث ركبنا أنا وأمّي حافلة أقلّتنا إلى الريف على بعد كيلومترات.

اجتزنا بضع مئات من الأمتار بعد نزولنا من الحافلة، وبلغنا مدخل ممشى تظلّله شجيرات طويلة. ولمحنا على إحدى الأشجار لافتة كتب عليها: كولداراغ.

لم يكن عند المدخل حاجز. أمسكتُ بيد أمي، وانطلقنا نعبُر الممشى. كانت أغصان كِلا جانبيه تتشابك ناسجة ما يشبه سقفاً مقبّباً أخضر فوقنا. تجاوزت الحشائش الطفيلية ونبات القرّاص جانبَي الممشى وغزت الحصى الذي يكسو أرضيّته. وبينما كنت أتساءل إلى أين نحن ماضيتين، بدت لي كولداراغ لأوّل مرّة عند المنعطف، فانقطعت أنفاسي. لم أرَ في حياتي أكبر ولا أجمل من ذلك المنزل.

هبّ كلبان للقائنا، تتبعهما سيّدة عجوز وقور. امرأة طويلة ونحيفة، يعلو رأسها شعر أبيض صففته على شكل كعكة. يتساءل مَن يراها بقوامها الرفيع عن جدوى العكازة التي تمسك في يدها. ذكّرتني بشخصيات رأيتها على صور فوتوغرافية قديمة ذات لون بني داكن تعود إلى عهد آخر. صافحتها أمّي وقدّمتني لها وهي تضع يدها على كتفي: «هذه ابنتي أنطوانيت». ثمّ قدَّمتها لي قائلة: «وهذه السيدة غيفين يا أنطوانيت».

منعني الخجل من الكلام، فلم أنبس، وهو ما أدركته السيدة العجوز، فبادرتني بابتسامة.

رافقتنا السيدة غيفين إلى غرفة كان فيها الشاي جاهزاً ومقدّماً في صينية. كنت لا أزال صغيرة، لكنّني أدركتُ أننا سنخضع أنا وأمي للتقويم في هذا اللقاء. طرحتْ عليّ السيدة العجوز جملة أسئلة: ما أحبّ فعله في وقت فراغي، وما إذا كنت أحب المدرسة.

تدخّلت أمّي من دون أن تترك لي المجال للإجابة: «كانت تتردّد على مدرسة المدينة، وكانت تلميذة مجتهدة، غير أننا اضطررنا للأسف للانتقال إلى الريف، وسكنّا بيتاً بعيداً عن المدرسة، ومع ذلك راقتها المؤسسة كثيراً، أليس كذلك يا أنطوانيت؟».

فأمّنت على قولها.

واستطردت: «إن سكنّا هنا، قد تركب الحافلة إلى المدرسة. هذا من الأسباب التي جعلتني أرغب في الاستقرار هنا. ستتمكّن ابنتي من العودة إلى مدرستها السابقة التي تعلّقت بها كثيراً».

نظرت إليّ السيدة العجوز: «أهذه رغبتك يا أنطوانيت؟».

تسارعت دقّات قلبي: «أجل! أنا متشوّقة للعودة إلى مدرستي السابقة».

ما كدنا ننتهي من شرب الشاي حتى مدّت لي يدها وهي تقول: «تعالي يا صغيرتي، سنقوم بجولة في الحديقة».

لم يكن فيها شيء من حنان جدّتي لأمّي وجدتي لأبي، لكنني انجذبتُ إليها من أول نظرة. قدّمت لي كلبيها العزيزين. مسحت بيدها على كلب «الترير» الذي ذكّرني لون فروه بجودي.

«هذا الكلب هو رفيقي منذ أن كان صغيراً. عمره الآن ثلاث عشرة سنة، وهو يسمّى سكامب».

ثمّ ربتت على الكلب الآخر، وهو أضخم من الأوّل، فنظر إليها نظرة مفعمة بالحبّ.

«وهذا يُدعى برينو. هجين بين الكلب الذئبي وكلب الكولي، وهو في الثانية من عمره».

سألتني عن كلبتيّ، فحدّثتها عن جودي التي حصلتُ عليها في عيد ميلادي الخامس، وعن سالي التي آويناها في بيتنا، وحدّثتها أيضاً عن جون.

«إذا سكنتِ هنا، يمكنك أن تجلبي كلبتيك. هناك متّسع لهما».

وتنفّستُ الصعداء، فأنا لم أجرؤ على طرح هذا السؤال الذي كان يشغل بالي. وبينما كنت أنظر إلى كلبيها وهما يلعبان فوق العشب، لاحظتُ وجود شجيرات مناسبة للعب، وخلفها تمتدّ أجمة من الأشجار العالية.

علقت السيدة غيفين قائلة: «لدي مزرعة خاصة بأشجار عيد الميلاد، وبذلك أستطيع أن أختار للحفلات ما يناسبني منها».

وبدأت أطمئنّ لصُحبتها. واصلنا الحديث بينما كنّا نقصد الحقل الكبير الموجود بجوار المنزل، حيث كانت مجموعة من الأفراس القزمة السمينة ترعى. تقدّمت نحو الحاجز، وراحت تنظر إلينا بعيونها الزجاجية الواسعة. انحنت السيدة غيفين لكي تداعبها، وقالت لي إنّها أمضت شبابها في نقل الفحم، وأنّ بوسعها الآن أن ترتاح، وتنهي حياتها في سلام. استقامت وأخرجت قطع سكر من جيبها، ومدّتها لها. عجبتُ من الكيفية اللطيفة التي تمسكها بها، بحيث تثني شفتيها في راحة اليد.

ثمّ سألتني بلا مقدمات: «ما رأيك يا أنطوانيت، أيروقك العيش هنا؟».

كان المكان ساحراً، كما لو اقتطع من عوالم الحكايات العجيبة

التي كنت أقرأها. لم أتخيّل يوماً أن أعيش في مكان كهذا. نظرتُ إليها وأنا لا أكاد أصدق اقتراحها وقلت ببساطة: «بالطبع، يعجبني».

ابتسمت لي ثانية، والتحقنا بأمّي لكي نكتشف المنزل. مررنا في البداية برواق خاص بالصيد، زُيّن جداره المحاذي للمدفأة الرخامية ببنادق قديمة وخناجر وُضعت من غير ترتيب. وقد علمت لاحقاً بأنّها تعود لجدٍّ حارب الهنود الحمر. ثمّ مررنا بباب يقود إلى الصالون الخاص بالسيدة غيفين، مزيّن بأثاث بالغ الأناقة لم أرَ مثله قطّ: مقاعد وأرائك ذات أرجل منحوتة. وقد عرفت في الشهور اللاحقة بأنّه أثاث ثمين من طراز لويس الخامس عشر.

فهمتُ من خلال حديث المرأتين أنّ أمّي ترغب في أن تشتغل وصيفة ومساعدة في أشغال البيت. ذلك أنّ السيدة غيفين لم تعُد تملك ما يكفي من المال لأداء رواتب حشد من الشغالين لكي يعتنوا ببيت كبير كهذا، لا سيما وأن عهد الأجور الرخيصة ولى بعد إنشاء معامل في إيرلندا الشمالية.

سيستمرّ أبي في العمل ميكانيكياً بالمدينة، وبذلك تأمل أمي، بفضل راتب إضافي وعدم أداء كلفة الإيجار، في توفير قليل من المال تشتري به منزلاً

لمّا علمت بإبرام الصفقة، وأننا سنسكن مع السيدة غيفين، شعرتُ كما لو أنني نجحت في امتحان عسير وأنّ أمّي لا بدّ أن تكون فخورة بي. لا أذكر أنّها جمعت الأثاث، لأننا لم نكن نملك إلّا القليل منه، وأظنّ أننا تركنا كثيراً من أثاثنا القديم في بيت القش. بيعت الدجاجات، بما فيها جون، لأصحاب الضيعات المجاورة. وانطلقنا، على غرار المرات السابقة، بقليل من الحقائب وعلب الشاي القديمة، ملأتها أمّي بالملابس والأغطية والكتب.

عند وصولنا إلى كولداراغ، وجدنا السيدة غيفين بانتظارنا عند عتبة الباب، فبادرتني:

«تعالي معي يا عزيزتي أنطوانيت، سأدلّك على غرفتك».

عبرنا رواق الصيد، وانتهى بنا السلم الرئيس إلى ممرّ كبير يفضي إلى عدّة غرف. وأدخلتني إلى غرفتي الواسعة التي تضمّ سريراً من النحاس يعلوه لحافٌ سميك، ووُضِع مصباح نفط على منضدته المكسوة بشرشف. وعلى مقربة من النافذة يوجد مكتب صغير ومكتبة. أخبرتني بأنّها تشغل الغرفة المجاورة، وهو ما غمر نفسي بالبهجة والأمان.

ثمّ رأيت سُلّمَيْن يُفضيان إلى المكان الذي كان يستقرّ فيه الخدم، أحدهما للرجال والآخر للنساء. أما والديّ فشغلا غرفة الوصيفة، قرب الحمام الوحيد في كولداراغ. وقد كان يجلب الماء إلى هذا الحمام في الماضي جيش من الخدم، ويُسخن على موقد المطبخ. أما الآن، فيتطلب الاستحمام مرّة في الأسبوع جهداً مُضنياً.

توجد غرفتانِ أخريان في أسفل السلم، كان يشغلهما في السابق كبير الخدم. وهناك باب صغير يفضي إلى باحة صغيرة توجد بها مضخّة تزوّد المنزل بالماء الشروب. أمّا الحاجات الأخرى، فكان يستعمل فيها ماء المطر الذي يُجمع. وكنّا نملأ الدلاء كل صباح ونضعها قرب الموقد.

كان ثمّة ممر طويل مبلَّط بحجر أحمر يقود من المطبخ ومَسْكَن الخدم إلى قلب المنزل حيث يوجد صالون والديّ.

أحصيتُ لاحقاً أربعاً وعشرين غرفة، كانت أربع منها فقط مؤثثة، شغلت منها أنا ووالديّ غرفتين. وكانت صُغراها وأشدّها اغبراراً هي غرف الخدم القديمة.

لم يكن ينقص كولداراغ الكهرباء وماء الصنبور فحسب، بل حتى الحافلة لم تكن تمرّ عليها إلّا مرة في الصباح عندما تقصد المدينة، وأخرى لما تعود بعد السادسة مساء. وهو ما اضطرّني إلى تناول وجبة الغذاء في المدرسة. معنى هذا أنني كنت أستطيع إنجاز واجباتي المدرسية في دفء المكتبة، وتناول وجبة بعد الظهر مع تلاميذ الداخلية قبل ركوب الحافلة.

لما استقررنا في مسكننا الجديد، رافقتُ أمّي لكي تشتري لي زيّاً مدرسياً خاصاً بمدرسة كولراين. كنت سعيدة بعودتي إليها، لكنّني لم أعُد تلك الصبية المرحة التي عرفها زملائي. صرت منطوية على نفسي. وبما أنّ المعلمات لم يتابعن نموّي يوماً بيوم، لا شكّ أنهنّ اعتقدن ببساطة بأنّني تغيرت مع مرور الأيام.

كثيراً ما كان أبي يتغيّب عن البيت في عطل نهاية الأسبوع، وكانت أمّي تعلّل لي ذلك بأنّه يشتغل «ساعات إضافية»، وهو ما كان مدعاة للارتياح بالنسبة إلي. كنا نتناول وجبة الغذاء إذن مع السيدة غيفين في غرفة الطعام المزيّنة، على غرار صالونها، بأثاث عتيق كخزنة الأكاجو المليئة بالأواني الفضية. فكنّا نجلس إلى مائدة كبيرة مصقولة تتّسع لعشرة أشخاص. ورغم أنّ أمّي لم تكن طباخة ماهرة، إلّا أنها كانت تُتقن تحضير طبق اللحم المشوي في عطلة نهاية الأسبوع. بالعودة إلى تلك المرحلة، يُخيّل إليّ أنّ أبي كان يختلق الذرائع ليتغيّب في هذا اليوم، لأنّ السيدة غيفين تنتمي إلى فصيلة كانت في طور الانقراض: الأرستقراطية الإيرلندية الشمالية، وأبي لم يشعر قط بالراحة في هذا الوسط، بخلاف أمّي التي كانت تعدّ نفسها، فيما أظن، صديقة السيدة غيفين لا خادمة في بيتها.

كانت هذه المرأة التي جاوزت الثمانين شديدة الشعور بالعزة

والأنفة. وقد اهتديتُ بالفطرة إلى أنها تعاني من الوحدة، ونشأت بيني وبينها العلاقة التي تنشأ عادة بين الأطفال الصغار والمسنين. بعد الغذاء كنت أساعد أمّي في تخليص المائدة وغسل الأواني في حوض المطبخ الأبيض قبل أن أخرج للعب مع الكلاب. كنّا نلهو بين الشجيرات، ونذهب للتفرّج على الأفراس القزمة التي كانت تسمح لي بمداعبة أنوفها ورقابها.

شعرت بالأمان في كولداراغ لأنّ غرفتي كانت محاذية لغرفة السيدة غيفين. لن يجرؤ على الاقتراب منّي.

كنت في الأيام الممطرة أستكشف المنزل. فخزانات السيدة غيفين حافلة بأشياء تعود إلى عهد الحروب الأميركية. كانت تجد متعة كبيرة في الحديث عن جدّها، وكانت تريني ما ورثته عنه من أشياء.

وفي بعض الأحيان، كنت أتناول كتابي وأجلس في المطبخ الواسع الذي يفوح دائماً بروائح مختلف أنواع الخبز والكعك التي تحضرها أمّي. وقبل أن يتركوني أنضمّ إلى «نادي الخمسة»[1]، كان عليّ أن أنجز بعض الأعمال: جلب الماء من المضخّة والفحم للموقد أو الخشب لمدفأتَيْ غرفتينا. وفي الأيام التي يكون فيها الجوّ صحواً، وهي نادرة في الشتاء، أخرج للبحث عن الأغصان اليابسة والشجيرات الميتة، وأضعها قرب الموقد لكي تجفّ. كنت أرتدي أحياناً قفازات البستنة وأخرج بحثاً عن نبات القرّاص فأملأ منه السلال. ذلك أنّ أمي كانت قد قرأت في مكان ما عن فوائد نقيعه

---

(1) سلسلة روايات بوليسية للأطفال والفتيان كتبها إينيد بليتون، صدرت أولى حلقاتها سنة 1940 (المترجم).

الصحيّة. كانت تغليه على الموقد، فتملأ رائحته اللاذعة أجواء المطبخ.

كنت أسمع الفئران تتقافز بينما أعبر الممرات في الصباحات الشتوية لجلب الماء قصد الاغتسال. لم تكن تخيفني، لكنّ وجودها كان يفرض حفظ الطعام في العلب أو وضعه في مكان لا تستطيع الوصول إليه. لاحظت ذات صباح أنّ أبي ترك علبة سكر مفتوحة في الليلة السابقة، فقضى فيها فأر سمين ليلته. صرفته وتخلّصت من العلبة في القمامة. رغم وجود جيش من القطط بكولداراغ، لم يكن يعفيني ذلك من تنظيف المكان من فضلات الفئران كل صباح.

عاد عيد الفصح حاملاً معه جوّاً أكثر اعتدالاً كنت أقضي معظم وقتي الفارغ في اكتشاف الغابة برفقة الكلاب. تنشر أشعة الشمس الدفء تحت الأشجار، وتضفي بريقاً على الأوراق المتفتقة. وتتعالى أغاريد الطيور الحاضنة في الأعشاش. كان سكامب الذي أصابه العمى، يجد صعوبة في اللحاق بنا بسبب تقدّمه في السن، لكن الكلاب الأخرى كانت تجري من حولي، وتحفر الأرض هنا وهناك. تنطلق جودي أحياناً لمطاردة أرنب، فآمر برونو قائلة: «الحق بها وأعِدْها»، كان ينطلق ويعود بها.

يجري بين أجمة شجر التنوب والغابة غدير كنت آخذ مكاني على أحد جانبيه وأروح أراقب بيض الضفادع. أعكّر المياه بواسطة عصا لأرى ما إذا كانت ثمّة كائنات حية تختبئ تحت الطين، ولم يكن صبري يطول حتى تظهر ضفادع في منتهى الصغر، ما زالت شراغف تقريباً، أو علاجم جاثمة على العشب قرب مجرى الماء.

وعند الغروب كنت أرافق السيدة غيفين لكي نقدّم الحلوى للأفراس القزمة. كانت معتادة على هذا الموعد بحيث كنا نجدها

بانتظارنا عند الحاجز. وعند العودة إلى البيت، أساعد أمّي في إعداد طعام العشاء قبل عودة أبي. كنت أحمل إلى السيدة غيفين صينيتها إلى صالونها، ثمّ أعود لأتعشّى مع والديّ في المطبخ.

خلال كلّ هذه الفترة، لم يكن أبي يتحدّث إليّ إلّا نادراً. كنت أشعر بأنّه يتابعني بعينيه، لكنه كان ينتهي بتجاهلي، وكنت أنا أيضاً أتجاهله.

مثلت تلك فترة استراحة هادئة في حياتي. مرّت الشهور، وبدأ يخيّل إليّ أنّ هذه الهدنة ستدوم إلى الأبد، لكن هيهات.

خيّم صمت غريب على المنزل ذات صباح من صباحات بداية عطلة الصيف. نزلت إلى المطبخ فلمست بأنّ ثمة شيئاً غير عادي. أخبرتني أمّي أن السيدة غيفين أسلمت الروح بهدوء خلال نومها. قالت لي ذلك بنبرة في غاية الوداعة، لأنهّا كانت تعلم مدى حبّي لهذه السيدة. صعقني الخبر. فقد كانت السيدة غيفين صديقتي وحاميتي. وددتُ لو أنني تمكنتُ من توديعها. صعدت إلى الغرفة حيث ترقد فوجدتُ جثتها مستلقيّة على السرير مغمضة العينين، وفمها مشدودٌ بعصابة. لم يُرعبني الموت مع أنه أوّل لقاء لي به. لقد اختفت السيدة العجوز، هذا كل ما في الأمر.

ظلت الكلاب هادئة ذلك اليوم. بدت مثلي كما لو أنها فقدت صديقة عزيزة. وعند الغروب ذهبتُ إلى الأفراس القزمة لأقدم لها الحلوى وأجد في نظراتها اللطيفة شيئاً من العزاء.

لم أعُد أذكر شيئاً من جنازتها ولا من زيارات أهلها. لكنني أذكر كنّتها التي قضت بضعة أسابيع بكولداراغ، قامت فيها بجرد محتويات المنزل، ولا سيما الأثاث القديم. امرأة جميلة وجذابة، تفوح بالعطر دائماً. دعتني إلى غرفتها المجاورة لغرفتي، وأهدتني

مشابك شعر وشرائط، بل جلبت لي فستاناً اسكتلندياً من لندن حيث كانت تقطن. وخاطت لي أمي، وهي خياطة ماهرة، أوّل سترة من الفلانيل الرمادي. وقد سرّتني كثيراً صورتي في المرآة، وتلهّفت لمرافقة كنّة السيدة غيفين إلى الكنيسة وأنا بهذه الحلّة.

خلال زيارتها هذه توقّف قداس يوم الأحد بسبب خفاش. لم يكن بالنسبة إليّ غير فأر يطير، لكنه بثّ الرعب بين الحاضرين، فقلت في نفسي عجباً لهؤلاء الكبار الذين ترعبهم أشياء صغيرة كهذه.

كانت تلك هي أول مرة أرى فيها أمي تستمتع برُفقة امرأة من سنّها. كنت أشعر دائماً بأنّ رُفقة جدتي لأبي وعمّتي تُشعرها بالملل. كثيراً ما كنّا نتناول الشاي ثلاثتنا خلال عطلة الأسبوع في الحديقة على الطريقة الإنجليزية. كانت أمي تضع في الصينية إبريق شاي فضي وفناجين خزفية، وتقدِّم الكعك الإيرلندي الذي تكون قد حضَّرته وساندويشات صغيرة مهيأة بالبيض ونبات الخردل أو مزيَّنة بقطع رفيعة من لحم الخنزير المدخن. كانت تلك اللحظات تروقني كثيراً، لأن المرأتين تُشركاني في أحاديثهما.

وما لبث أن حلّ اليوم الذي طالما خشيته. أخبرتني كنّة السيدة غيفين بأنّها ستعود إلى لندن، ومنحتني هدية قبل فراقنا.

قالت: «اسمعي يا أنطوانيت، علمتُ أنّ عيد ميلادك سيحلّ قريباً، وأنا آسفة لأنني لن أتمكّن من حضوره، لكنّني أودّ أن أقدم لك هذه الهدية الصغيرة».

منحتني سلسلة وقلادة صغيرة من الذهب، عقدتها حول عنقي.

قلت في نفسي الآن وقد فرغ المنزل، ستشعر أمّي بأنها صاحبته، وهو ما وقع فعلاً لسنة كاملة.

10

أيقظني ضوء الصباح، فنظرتُ من حولي بعينين ناعستين. لاح لي فستاني الاسكتلندي ذو المربعات الملونة بالأحمر والأزرق معلّقاً على باب الغرفة، وبدت لي ألوانه أشدّ بريقاً تحت أشعة الشمس.

شعرتُ بقشعريرة تسري في جسدي من الإثارة: إنّه يوم عيد ميلادي العاشر. لأوّل مرة في حياتي هيّأت حفلاً دعوت له كل تلميذات صفي. لمّا علم والدي بموافقة أمّي على الحفل، أعلن بأنه ذاهب ليلعب الغولف، وبذلك أهداني بغيابه أثمن هدية. كان ذلك اليوم يومي، خلوت فيه إلى أمّي من دون أن يعكّر علينا شبحه تلك اللحظة الجميلة.

وقع نظري على القلادة الذهبية التي تلقيتها هدية من كنّة السيدة غيفين. وقلت في نفسي وأنا أشعر بغصّة في حلقي ليت هاتين السيدتين شهدتا عيد ميلادي. وعدتني أمّي خلال عطلة الصيف بأن تسمح لي بتنظيم حفل عيد ميلادي تلك السنة، وقد قبلت كلّ زميلاتي في الصف دعوتي. كنت متلهّفة لكي أريهم المنزل، لأنّ كولداراغ كان بالنسبة لي وإلى أمّي، منزلنا.

لمّا كنت أخرج أنا والكلاب للنزهة، كنا نمرّ على الأجمة،

وكنت أتخيل أبناء السيدة غيفين وهم يختارون أشجار عيد الميلاد السنة تلو الأخرى، ثمّ يضعونها في البهو الواسع. كنت أتصوّرهم مثلما يظهرون في الصور القديمة التي تزيّن الصالون، في أبهى الحلل وقد اعتلوا سلّماً صغيراً لكي يزيّنوا الشجرة. ويتراءون لي صباح يوم عيد الميلاد وهم يفتحون الهدايا أمام المدفأة المتّقدة. وفي أقصى الغرفة، ينتظر الخدم لحظة دعوتهم للمشاركة في الحفل.

كنت مستلقية في سريري، تمطّيت وقد غلبني الكسل، فقرّرت أن أمكث في الفراش بضع لحظات أخرى. وددتُ أن تكتشف صديقاتي سحر هذا المنزل.

وانتزعني من أحلامي نداء أمّي من أسفل السلم. ارتديتُ ملابسي، ولحقت بها في المطبخ. وبينما كنت أعبر الممر، فغمت أنفي رائحة شهيّة أعلمتني بأنّ أمي بدأت الاستعدادات.

كانت قد حضرت كعكة عيد الميلاد في الليلة السابقة، وزينتها بطبقة وردية وعشر شمعات، وكتبت عليها عبارة «عيد ميلاد سعيد». وعندما دخلتُ إلى المطبخ، اكتشفتُ صفوفاً من الحلويات الصغيرة تبرد على الرفوف. أبصرتُ أيضاً الزبدية الثمينة التي يمكنني الاستمتاع بها بعد الفطور، بمجرد ما تسكب أمي مستحضر الزينة الملون على الحلوى.

كانت المائدة معدّة لشخصين: إبريق شاي ملفوف في غطائه المحبوك، وبيضتان مسلوقتان، وخلف الأطباق عدد من العلب.

قالت أمي وهي تقبّلني: «عيد ميلاد سعيد يا عزيزتي». هكذا كانت بداية ذلك اليوم الرائع. فتحتُ علب الهدايا: أهداني والداي حذاء أسود لامعاً، بسَيْرٍ دقيق في جانبه الأمامي، وجدّي وجدّتي

كنزة صوفية بالجاكار. أمّا جدّتي الإنجليزية، فأهدتني ثلاثة كتب من تأليف لويزا م. ألكوت، وهي: بنات الدكتور مارتش الأربع، حلم جو مارتش وعائلة جو مارتش الكبرى.

التهمتُ فطوري وأنا أقدّم بعض الفُتات خلسة للكلاب. كان الجوّ رائعاً، واستفردت بأمّي وأنا مسرورة بما تلقيته من هدايا.

انتظرت هذا الحفل بفارغ الصبر طيلة الأسبوع. كنت أتخيّل نفسي وأنا أتجوّل مع بنات قسمي في الحديقة وهنّ يَغبِطْنني على العيش في مثل هذا المكان. كان الصيف قد أوشك على النهاية، فأضفَت دعوتهن على الدخول المدرسي جرعة إضافية من الإثارة. قضيت عطلة الصيف على أحسن ما يرام لولا الوحدة. ذلك أنّ رحيل السيدة غيفين خلّف فراغاً كبيراً في حياتي. لم يكن لي من رفيق غير الكلاب التي كنت أقضي معها نهاراتي في استكشاف الحقول. أحمل الساندويشات وعصير البرتقال، وأختفي طيلة اليوم، ولا أعود إلّا عند الغسق حاملة بعض الحطب لموقد المطبخ. كنت أحرص على قضاء مهامّي اليوميّة، إذ كان عليّ، وقد صرتُ يافعة، أن أقطع الأغصان اليابسة إلى قطع صغيرة. لكنني لم أكن ألتقي بأحد، ولم أكن أبرح كولداراغ. كان ينقصني لقاء أطفال من سني. إذ لم تكن في محيط منزلنا ضِيَعٌ قريبة، وأقرب المتاجر كانت في كولراين، والحافلة لم تكن تمرّ إلا مرتين في اليوم. لم نكن نغادر البيت إلّا لِماماً. فقد كان اللبَّان يمرّ كلّ يوم، والبقال مرّتين في الأسبوع.

غير أنّ عطلة الصيف تلك قرَّبت بيني وبين أمّي، لا سيما أنّنا كنّا نعاني معاً من الوحدة. وفي الأيام الممطرة، كنّا نقضي ساعات طوال في المطبخ، نستمتع بما كانت تهيئه من حلويات. كنت

أستغرق في القراءة بينما تعكف هي على حياكتها، وكان رنين إبر الحياكة يبعث الطمأنينة في نفسي.

كانت قد حاكت لي بلوفراً صوفياً أخضر داكناً ذا طوق مفتوح للدخول المدرسي. وكانت تنهمك أحياناً في رتق جواربي الصوفية أو تتحسّر على تنورة قصيرة ستضطر للتخلّي عنها لأنّ حاشيتها لم تعُد تسمح بإطالتها.

لما فرغت من الفطور ساعدت أمّي في تزيين الكعكة، ثمّ انصرفت للهو مع الكلاب. أوصتني أمي بألّا أبتعد، لأنّ عليّ أن أستعدّ للحفل. تخليت إذن عن جولتي المألوفة بين الأشجار. زرت الأفراس القزمة، وقدّمت لها الحلوى، ثمّ عدت إلى المنزل، ودخلت من الرّدهة الصغيرة الموجودة خلف المطبخ، فبدا لي لون جدران القرميد الأحمر أبهت تحت أشعة الشمس. وجدت ماء الاستحمام جاهزاً قرب المدفأة، فحملته إلى الحمام في ثلاث نقلات.

ارتديت السترة الاسكتلندية التي أهدتني إياها السيدة غيفين، والحذاء الأسود، ووضعت أمّي القلادة حول عنقي ومشطت شعري. نظرت إلى صورتي في المرآة فشعرت بالرضا.

قبل الموعد الذي ضربته للبنات بنصف ساعة، جلستُ على الدرج أمام باب البيت أنتظر وصول أوّل سيارة، وعيناي لا تكادان تفارقان الممشى. كانت الكلاب تؤنسني، منتبهة بدورها، كما لو أنّها أدركت بأن هذا اليوم ليس كباقي الأيام.

وما لبثتُ أن رأيت بضع سيارات سوداء قادمة، توقّفت أمام المنزل، فأحدث احتكاك عجلاتها بحصى الساحة المغبرّ صريراً حادّاً. ترجّلت منها صبيات في منتهى الأناقة، تحمل كل منهنّ هدية

ملفوفة بشكل بديع، ثمّ غادر الآباء بعد أن وعدوا أمّي بالعودة عند الساعة السادسة والنصف مساء.

جلبت لنا أمي عصير البرتقال إلى الحديقة، وشرعت في فتح علب الهدايا تحت الأنظار المتطفّلة. معظم الهدايا كانت عبارة عن علب حلوى، تناقلتها الأيدي بابتهاج إلى أن انتهت بين يدي أمّي، فقرّرت أن تحتفظ بها في البيت مخافة أن تسدّ شهيتنا، فلا نأكل ما أعدّت لنا. أمّا الهدايا الأخرى فكانت عبارة عن مشابك وشرائط. وقد شعرتُ بغاية الفرح لما اكتشفت بين الهدايا قلماً أسود بحلقة فضية ومذكّرة بغلاف ورديّ لم أسوِّد منها صفحة واحدة، لأنّ لا شيء بدا لي بعد هذا اليوم جديراً بالتسجيل. لكنّني وأنا محفوفة في بداية تلك الظهيرة المشمسة برفيقاتي، لم يخطر ببالي ما حدث لاحقاً.

ساعدتني أمّي في ترتيب هداياي، واقترحت عليّ أن أرافق صديقاتي في جولة بحديقة المنزل، وهو أمر لم تكن بحاجة إلى الإلحاح عليه. وبينما كنت أريهنّ التحف القادمة من أميركا المعروضة في الرواق، شعرت بأنّ الأمور بدأت تأخذ منحى مغايراً لما كنت أتوقّع. أخذن يتهامسن ويتخافتْن ويكبتن الضحكات. وسرعان ما تغيّرت نظرتي لكولداراغ. صرتُ أراه بعيونهنّ.

عوض المكان المهيب الذي كثيراً ما حدثتهنّ عنه، لاحَ لي ورق الجرائد الذي يسدّ المدافئ غير المستعملة لاتّقاء الريح، وبيوت العناكب في الأركان، والسجادات المغبَرّة في السلالم المفضية إلى الغرف المهجورة. ولاحظت عيونهن في غرفة الأكل تحط على الأواني التي لم تنظّف منذ وفاة السيدة غيفين. وانتبهت إلى الستائر الباهتة المعلّقة منذ سنين، ومصابيح الزيت على البوفيه الشاهدة على أنّ هذا المنزل القديم لا يتوفر حتّى على الكهرباء.

وسمعت إحدى الفتيات تهمس: «أنا متأكدة من أن هذا البيت لا يتوفر فيه ماء ساخن. . ».

تسكن زميلاتي بيوتاً جميلة بحدائق وأثاث عصري وأوان لامعة. لا تترك الخادمات أثراً للغبار في تلك البيوت، وهنّ يستحممن مرّة كلّ يومين. لا غرابة إذا بدت لهم كولداراغ إذن بلا رونق، أو بالأحرى بيتاً خرباً. استطاعوا الربط، بفطرة الأطفال التي لا تخطئ، بين حال البناية وما سمعوا من أهلهم من أنّ أمي ليست إلّا حارسة، وأنّني لا أنحدر من أسرة ميسورة مثلهنّ، ومن ثمّة لا يمكن أن أكون واحدة منهن.

وشعرتُ مرّة أخرى بالبون الفاصل بيننا، وأنني غريبة عنهنّ. ما قبلن دعوتي إلّا بدافع الفضول لا الصداقة. وأحسستُ بأنّ الصداقة التي طالما تُقت إليها بعيدة المنال. خُيّل إليّ أنّ جداراً زجاجياً فاصلاً انتصب بيننا، ورحت أنظر إليهنّ من خلال هذا الجدار الخفي وهن يضحكن ويتحدّثن، ولم يكن أمامي إلّا محاكاتهنّ. أحسستُ كما لو أنّني غريبة أتابع مجريات حفل شخص آخر غيري.

لعبنا ألعاباً مختلفة تلك الظهيرة، ولا سيما لعبة الغميضة. ساعدنا على ذلك وجود غرف كثيرة فارغة. ولما حلّ دوري لكي أختبئ، لاحظت أنهنّ لم يكن يجهدن أنفسهنّ في البحث عني كما يفعلن بعضهن مع بعض. ففهمت أنهنّ كنّ ينتظرن مجيء سيارات آبائهن لتتحرّرن من هذا المكان، وتعدن إلى منازلهن المعقّمة.

أُعجبن بكلّ ما حضّرته أمّي من معجون فواكه وساندويشات وكعك. ولما حلّ وقت إطفاء شمعات كعكة ميلادي، قالت لي إحداهن إنّني إن تمكّنتُ من إطفائها جميعاً بنفخة واحدة، أستطيع أن أتمنى أمنية تتحقّق. ملأت رئتي بالهواء ونفخت من دون أن أفتح

عينيّ فصفّق الجميع: نجحت في إطفائها جميعاً، وركّزت ذهني حتى أتمنّى أمنية.

أغمضت عيني وتضرّعت: «اجعلهنّ يُحبِبنني يا ربّ، ويقبلنني صديقة!» وحين فتحتهما ظننتُ للحظة أنّ أمنيتي تحقّقت. وبدا لي أنّه أنسب وقت لتوزيع الحلوى التي أهدينني إياها. قصدتُ المكان الذي رتّبت فيه أمّي هداياي، لكنّني فوجئت باختفاء الحلوى. لعلّ الفتيات التهمنها خلال لعبة الغميضة لمّا كنّ يتلكّأن في البحث عنّي، ونظرتُ إلى أمي في ذهول.

ضحكت وهي تقول: «ينبغي أن تتعلّمي مشاطرة الآخرين ما لديك!».

وتبادلت ابتسامات متواطئة مع الفتيات. شعرت فجأة كما لو أنهنّ يهزأن بي جميعاً، فداهمني الإحساس بالوحدة من جديد.

انتهى الحفل ووقفت عند باب البيت أنظر إلى موكب السيارات التي جاءت في إثر «صديقاتي». شكرنني بأدب ووعدنني بدعوتي إلى بيوتهنّ. قرّرت أن أصدِّق الوعود ومضيتُ ألوِّحُ لهنّ مودّعة إلى أن اختفت السيارات عند المنعطف.

عاد أبي في المساء، فأدركتُ من احمرار وجهه أنّه ثمل. مضى يحدّق فيّ، وتمنّيت لو أستطيع الهرب، لكن نظراته شلّتني كالعادة.

طلبت منّي أمي بصوت يفضح توتّرها أن أطلعه على ما تلقّيته من هدايا: «انظر ماذا أهدتها زميلاتها يا بيدي».

وعرضتها عليه الواحدة تلو الأخرى.

«ألم يقدّموا لك حلوى؟» وقرأ الجواب على وجهي.

«ألم تحتفظي ببعض الحلوى لأبيك؟».

وتفرّست وجهه لعلّي أعرف ما إذا كنت أتحدّث إلى الأب

الودود الذي يمكن البسط معه أو إلى الأب الآخر. وشعرت بالغصّة تنعقد في حلقي.

كان القلم هو آخر هديّة عرضتها عليه. لمّا تناوله ومضى يتفحّصه، شعرت بيدي ترتعش، وفهمت من ابتسامته أنه لاحظ ذلك أيضاً.

سأل: «أين القلم الآخر، ذاك الذي أهديناك إياه أنا وأمّك؟» وأدركتُ مرعوبة بأن مَن يسألني ليس الأب الودود.

أجبتُ بصوت خجول: «في محفظتي».

وندّت عنه ضحكة بغيضة: «ائتني به إذن، فأنتِ لست بحاجة إلى قلمين».

فقلت معترضة: «بلى، يلزمني قلم بديل، لهذا السبب أهدته لي ماري».

وتهيّأ لي كما لو أنه أخذ ينتفخ كما تفعل العلاجين في الحديقة بين الأشجار. انتفخ صدره، واحمرَّت عيناه، ولاحت لي على شفتيه تلك التكشيرة المنذرة، فندمتُ على أنني أجبته، لكن الأوان كان قد فات.

صرخ وهو يمسك بخناقي ويرفعني من فوق مقعدي: «لا تردّي عليّ!».

وشعرتُ بنفسي أختنق وأنا مرفوعة في الهواء. أطبقت يداه على عنقي وسمعتُ أمي تصيح:

«كفّ عنها يا بيدي، ستقتلها!».

حاولت أن أفكّ أصابعه عن عنقي وأنا أخفق بساقيّ. صرخت أمي: «افعل ما أقول لك!» واستمرت أمّي تناشده أن يتركني، فحرّرني أخيراً.

وصرخ: «فلتغرب عن وجهي، خذيها إلى غرفتها».

أمسكت بذراعي من دون أن تنبس، وعبرت بي الممرّ والسلم وأدخلتني إلى غرفتي وأمرتني أن ألزمها.

قالت وقد بدا عليها الإحباط: «لماذا تسعين دائماً لإثارته؟ أنت تعلمين سوء مزاجه. ألا تستطيعين تجنّبه من أجلي؟» كان الحزن بادياً عليها. أدركتُ أنها مرعوبة مثلي.

عادت إليّ في وقت لاحق وهي لا تزال مصدومة بينما كنت أحاول تهدئة نفسي بقراءة «بنات الدكتور مارتش الأربع»، وأدركت من نظرتها أنّ الأمان الذي نعمتُ به في عهد السيدة غيفين قد ولّى. لقد انحازت أمّي إلى جانب أبي، وصارت تنظر إليّ كمصدر للمشاكل.

«تلافي إغضاب أبيك يا أنطوانيت» هذا كلّ ما قالته لي وهي تغادر غرفتي حاملة مصباح الزيت. توقفت عن القراءة وأغمضتُ عيني، ورحت أتخيّل قصة. قصة أحظى فيها بصديقات تحببنني وتدعونني إلى حفلاتهن.

حضرت فنجان قهوة وأشعلت سيجارة لعلّي أستطيع إيقاف سيل الذكريات، لكن أنطوانيت، شبح طفولتي، كانت لا تزال حاضرة، وسمعت صوتها من جديد.

«ابذلي ما في وسعك يا توني لتتذكّري، لتتذكري الحقيقة».

كنت أظن أنّني سوّيت الحساب مع ماضيّ، لكنّ وجه أنطوانيت عاد يطاردني. كنت قد مزّقت كلّ صور هذه الطفولة، طفولتي، لكن ها هي تعود الآن الواحدة تلو الأخرى. ظهرت على إحداها صبيّة

منتفخة الوجنتين، يزيّن أذنيها قرطان بنّيان، وهي تبسم للعدسة، شابكة ساقيها، واضعة يديها الممتلئتين على ركبتها، ومرتدية فستانها المفضل الذي خاطته لها أمّها.

وتظهر في صورة أخرى - التُقطت بعد سنوات من ذلك - نحيلة، ترتدي فستاناً أصغر من مقاسها رسمت عليه مربعات، وتنتعل صنادل قديمة تكشف عن قدميها. كانت نظرتها مبهمة، تطوّق عينيها هالتان سوداوان. وهي صورة التقطت لها واقفة على عشب كولداراغ الأخضر، حاملة جودي بين ذراعيها، وباقي الكلاب عند قدميها.

في صورة أخرى ظهرت بين شجيرات كولداراغ مع الأمّ التي أحبّتها كثيراً، لكنِ لا وجود لصورة تظهر فيها مع أقرانها.

طردتُ هذه الصور من ذهني وعدت إلى غرفة أمّي. ما كدت أغمض عيني حتى عادت إلى مخيلتي صبية كولداراغ الوحيدة والحزينة. تذكّرت عيد ميلادها العاشر الذي أفسدته وحشيّة أبيها ولامبالاة أمّها وعجزها عن الشعور بالوئام مع بنات مدرستها.

كانت تعلم، وهي في العاشرة من العمر، أنّ الأوان كان قد فات، وأنّ ما قد تعيشه من لحظات سعيدة ليس سوى وهم عابر.

تذكرتُ فجأة وأنا جالسة بجوار سرير أمّي محاولة تمرّد بلهاء قمت بها، فارتسمت على وجهي ابتسامة هازئة. كان ذلك بعد عيد ميلادي مباشرة، وهو يشهد على أنّ الصبية كانت لا تزال قادرة على الشعور بالغضب، وأنّها ليست دمية فحسب.

لم تُغلَق المدافئ بأوراق الصحف لاتّقاء البرد فحسب، بل لمنع الطيور والخفافيش من التسلل إلى البيت أيضاً. ذلك أنني كثيراً ما كنت أرى الخفافيش وهي تطير لمّا أخرج إلى الفناء عند حلول الظلام، فيذكّرني طيرانها بالرعب الذي زرعه صباح ذات أحد خفاش

بالكنيسة. اكتشفتُ ذلك اليوم مدى الخوف الذي بثّه حيوان صغير في نفوس النساء الحاضرات.

انتقيت بعنايةٍ المساء الذي نفذتُ فيه انتقامي. ذلك أن أبي ذهب صباحاً إلى كولراين ولم يرجع ثملاً إلّا في وقت متأخر من الليل. وكانت لأمي طقوس لا تحيد عنها. لمّا كانت تتعب من انتظاره، تترك الصالون وتعبر الرواق الذي يفضي إلى المطبخ حاملة شمعة في يدها، فتحضّر الشاي ثم تصعد إلى غرفة النوم عبر الأدراج الخلفية.

حسبتني نائمة، لكنّني تركتُ فراشي خلسة مساء تلك الجمعة وأنا مصمّمة على إدخال بضعة خفافيش إلى البيت. أحدثتُ ثقوباً في أوراق الصحف التي تسدّ منافذ المدافئ، ثمّ فتحت الباب المفضي إلى الفناء الصغير الموجود قرب الإسطبلات القديمة حيث كانت تختبئ تلك الطيور الغريبة.

جلستُ أعلى الأدراج الخلفية أنتظر بأناة دخول زوّار الليل، وما لبث أحدها أن تسلّل من باب الفناء، فنزلتُ الأدراج وأغلقته بلا ضجّة، ثمّ عدتُ إلى مكاني. لم أنتظر طويلاً لأرى بقيّة الأحداث.

انفتح باب الصالون، ورمقتُ ضوء الشمعة خافتاً، وما لبث الخفاش أن شرع يحوم حول رأس أمّي، فجعلت تصرخ.

ظننتها ماتت من الخوف في تلك العتمة، فجريتُ نحوها وحضنتها بين ذراعي. كانت ترتعش، فرافقتها إلى الصالون وأجلستها، وشرحتُ لها بأنّني كنت في الحمام لحظة سماع صراخها.

تركتها وانصرفتُ إلى المطبخ لأحضر لها شاياً. كلّ هذه الضجة لم توقظ الكلاب من نومها. حملتُ صينية عليها فنجان الشاي وكوز

حليب والسكر ورافقت أمّي إلى غرفتها عبر الأدراج الرئيسة، تلافياً للقاء الخفاش من جديد. وضعتُ الصينية قرب سريرها، وعانقتها ثانية.

أحاول أن أتمثّل الآن، وأنا امرأة، كيف كانت حياة أمّي خلال كل تلك السنوات. أفهم لماذا كانت تهرب إلى عالمها الوهمي، عالم «الأسرة السعيدة» الذي يجري فيه كلّ شيء على خير ما يرام. بعد كلّ شيء، ماذا كان بوسعها أن تفعل؟ فبعد وفاة السيدة غيفين، لم تعُد تلتقي أحداً. لم تكن لها بإيرلندا الشمالية عائلة ولا أصدقاء، ولم تكن تتمتّع باستقلال مادّي. وفي غياب وسائل النقل، كانت وحدتها واكتئابها يزيدان يوماً بعد يوم.

المرأة اليوم، بعد خمسين سنة، تملك من حرية الاختيار ما لم يتوفر لأمّي، لكنّها لو أعطيت الاختيار آنذاك، أكانت ستختار طريقاً آخر؟ ما وقع في السنوات اللاحقة جعلني أرتاب في ذلك.

بقيتُ جالسة بجوارها، ورحت أتأمل جسدها النحيل في الضوء الخافت. بدت كما لو أنّ النوم خفف من ألمها، ولاحت قسماتها هادئة. كنت ممزّقة بين مشاعر متضاربة على غرار الصبية أنطوانيت ليلة انتقامها: مزيج من الحيرة والغضب، ورغبة جامحة في مؤاساة أمّي وحمايتها.

11

بعد رحيل السيدة غيفين وسفر كنّتها، شرع أبي يتردَّد على غرفتي من جديد. كان يذهب إلى المدينة بالسيارة، وعند عودته في وقت متأخّر نكون أنا وأمي في غرفتينا الواقعتين في طرفي المنزل. تكون غرفتي غارقة في الظلام، لا يصلها إلّا بصيص من ضوء القمر الشاحب إذا كانت السماء صافية. كثيراً ما كان يغالبني النوم وأنا أحدّق في وجه القمر الودود من خلال النافذة. كنت قد فقدت مصباحي اليدوي منذ فترة طويلة، وبما أنّ أمي تأخذ مصباح الزيت من غرفتي، كانت وسيلتي الوحيدة للإنارة هي الشمعة التي أستضيء بها إلى غرفتي كلّ ليلة. كنت أستلقي في الظلام وأشدّ قبضتي مغمضة العينين، متوهّمة أنّني إنْ لم أفتحهما، لن يقتحم أبي غرفتي، لكنه كان يقتحمها دائماً. كنت أتكوّم تحت الغطاء، إلا أنه كان يزيحه عنّي وينزع قميصي وهو يهمس في أذني: «أيروقك هذا يا أنطوانيت؟».

لم أكن أجيب، فيضيف: «ترغبين في مصروف الجيب، أليس كذلك؟».

يخرج نصف كرونة من جيبه ويضعها في راحتي المنقبضة، ثمّ ينزل سرواله. لن أنسى أبداً الرائحة التي كانت تنبعث منه: مزيج من

الويسكي والتبغ ورائحة جسده. ثمّ كان يعتليني. كنت قد كبرت قليلاً، لكن رغم حذره، صارت بهيميته تزيد أكثر فأكثر فأشعر بنظراته من خلف جفني المغلقين. كان يطلب منّي أن أفتح عيني، إلّا أنني أمتنع. كان يؤلمني لأنني كنت ما أزال صغيرة. يصدر زفرة عميقَة أخيرة ثم ينسحب. ينهض ويسارع إلى ارتداء ملابسه، ثمّ يقصد غرفته لينام في سرير أمي.

وأبقى هناك شادّة قبضتي على القطعة النقدية.

كان عنفه الجسدي يتزايد بوتيرة زياراته نفسها. كنت ألعب ذات مساء بصالون السيدة غيفين، وقد اخترتُ ذلك المكان لأخلو إلى نفسي بعيداً عن والدي، لكنّه حلّ به ليقرأ جريدته. كنت ألهو بلعبة معدنية صغيرة أشبه بضفدع. كنت جالسة أسمع رنين تلك اللعبة المتكرّر وأنا أضغط عليها بأصابعي، فإذا بي أحسّ به ينظر إليّ. قال: «كفّي عن هذا حالاً يا أنطوانيت!».

انخلع قلبي من الخوف، فانزلقت اللعبة المعدنية من بين أصابعي وأحدَثَت آخر «طقطقة»، طقطقة كانت كافية لإثارة حفيظته. أمسك بخناقي وطرحني أرضاً وهو يصرخ قائلاً: «لمّا أطلب التوقف، ينبغي أن تكفّي فوراً!».

كثيراً ما كان يوقظني الكابوس نفسه: أحلم أنّني أهوي في حفرة مظلمة سحيقة. ثمّ انضافت إلى هذا الكابوس في وقت لاحق زيارات أبي. كان يتعذر عليّ العودة إلى النوم بعد انصرافه. وفي الصباح لمّا كنت أذهب إلى المطبخ لجلب الماء لكي أغتسل، كنت أشعر بأنّني متعبة. وكنت أحرص على غسل بين فخذي بعناية كبيرة. ما زلت أجد صعوبة كبيرة في تذكر ما كنت أحسّ به حينئذٍ، والغالب أنّني لم أكن أشعر بشيء.

كانت زياراته المتكرّرة توفر لي نقوداً، وبذلك صار بوسعي أن أشتري الحلوى، وأستميل إليّ زملائي في المدرسة. غير أنّ الأطفال، شأنهم في ذلك شأن المفترسات، يستطيعون تمييز الضعيف أو المعطوب أو المختلف. كانت تربية تلاميذ مدرستي حسنة، فلم تكن الفظاظة من عادتهم، لكن بغضهم لي كان غريزياً. وهذا ما جعلني أتلافى أقراني بمطعم المدرسة قدر الإمكان. كنت أميل إلى مجالسة الفتيات الأصغر منّي واللعب معهنّ، أو مع فتيات تكبرنني، وقد كنّ لطيفات معي. أمّا بقية الوقت، فكنت أقضيه في إنجاز واجباتي بالمكتبة. كنت أعلم أنّني لا أروقهن، ولا أروق حتّى للأساتذة. كنت أشعر بأنّ العاملين بالمؤسسة يعاملونني بأدب متكلّف فيزيدني ذلك إحساساً بالإقصاء. وحين بلغت العاشرة من عمري انقطع أملي في حبّ الآخرين.

كانت رحلة العودة بالحافلة تستغرق نصف ساعة، وهي مدّة كنت أقضيها في إنجاز واجباتي المدرسية، وقراءة النصوص التي كنا سندرسها في اليوم الموالي. وذات مساء صعد أبي إلى الحافلة عند أوّل محطة. لم يجلس بجواري، بل قبالتي تقريباً حتّى يتمكن من النظر إليّ. لاحت على وجهه بسمة الأب الودود، لكنني لم أعُد أصدق تلك البسمة منذ زمن بعيد. لم أستطع ذلك المساء العثور على بطاقة ركوب الحافلة، وانتابني ذعر شديد وأنا أفتّش في جيوبي ومحفظتي تحت أنظار أبي. همستُ للسائق: «لم أجد البطاقة، لا تخبر أبي بالأمر من فضلك».

لكن السائق انفجرِ ضاحكاً. فبما أنه كان يسوق الحافلة يومياً، كان يعرف أنّني أتوفر على بطاقة أسبوعية. وقال لي: «لا عليك، لن يغضب أبوك. انظري، إنّه يبتسم لك، لا تكوني غبيّة».

كان يبسم بالتأكيد، لكن ذلك البريق الرهيب كان واضحاً في عينيه. ونزلنا من الحافلة في ظلام دامس وبارد. وما كادت تختفي، حتى أحكم قبضته على رقبتي بيد، مثلما توقعت، وراحت يده الأخرى تهوي على ردفيّ وكتفيّ. رجّني بعنف، لكنّني لم أبك ولم أصرخ. كان صراخي قد انقطع منذ فترة طويلة. لكنني شعرت في طريق العودة إلى المنزل بالدموع تنهمر على خدّي. لا شكّ في أنّ أمّي لاحظت بكائي، لكنّها لم تعلّق. ابتلعت عشائي من غير شهية وأنا في غاية الاضطراب، وأنهيت واجباتي ثمّ صعدت إلى غرفتي لأنام. كنت متأكّدة من أنني لستُ طفلة تسعى إلى إغاظة والديها، وأن أبي كان يبحث عن أوهى الذرائع لكي يضربني.

زار غرفتي تلك الليلة قبل نومي، وأزاح عني الغطاء بعنف غير مسبوق، ممّا أصابني بهلع شديد، فأجهشتُ في البكاء.

قلت له بنبرة متضرعة: «لا أريد مصروف الجيب، ولا أريد أن تفعل بي هذا، كفى أرجوك، إنّك تؤذيني!».

كانت تلك هي أوّل مرّة وآخرها أبكي فيها أثناء تردّده على غرفتي. كانت أمّي في الردهة، فسمعت صراخي.

هتفت: «ماذا جرى؟».

فأجابها أبي: «لا شيء، انتابها كابوس، فجئت لأستطلع الأمر. هي الآن على ما يرام. لقد هدأت».

وقبل أن ينصرف، همس في أذني: «حذار من أن تخبري أمك».

جاءت أمي إلى غرفتي بعد دقائق ووجدتني مدفونة تحت الأغطية، فسألت: «ماذا جرى يا أنطوانيت؟

- لا شيء، انتابني كابوس».

اكتفت بهذا الجواب وانصرفت، ولم تسألني عن الأمر بعد ذلك قط.

وفي بعض الليالي، كنت ألبد في فراشي إلى أن أسمع صرير الحصى تحت عجلات السيارة، فأعلم بعودته، ثم أسمع وقع خطواته رغم حرصه على كتمها. وباقترابه من غرفتي، كنت أتظاهر بالنوم، آملة ألا يصرّ على إيقاظي. لكنه كان يفعل.

لم يكن يمنحني القطعة النقدية في كلّ زيارة، لكنّه كان يقوم بذلك مرّتين في الأسبوع. وفي بعض الأحيان، عوض أن يحشرها بين أصابعي المتصلّبة، كان يرميها في إناء خزفي موضوع على المنضدة كنت أضع فيه قلادتي، ويقول: «خذي مصروف الجيب».

في الليالي التي كان يعود فيها باكراً، كنت أجلس في الغالب على الأريكة والكلاب مستلقية عند قدمي، وأفتح كتاباً. كانت حكايات الآباء الرؤوفين بأبنائهم تُبكيني، وهي ذريعة كان يتصيّدها، فيبادرني:

«لماذا تبكين؟».

فأغمغم وأنا أتلافى النظر إلى عينيه:

- لا لشيء.

فيقوم من مقعده، ويمسك برقبتي ثم يخضني بعنف ويضربني على كتفي في الغالب، ثمّ يقول بنبرة هادئة: «هكذا ستعرفين لِمَ تبكين».

ولم تكن أمّي تتدخل.

بعد فترة من الزمن، أقلعتُ عن قراءة قصص الأسر السعيدة وشرعت أقرأ كتب أمّي. لم أكن أقدّم لها أيّ توضيح، وهي لم تكن تسألني على كلّ حال. من كتب الكبار الأولى التي قرأت سلسلة:

«وايتواك»[1] ليست قصصاً حزينة، لكنها لا تضمّ بين شخصياتها أطفالاً

ذات يوم اعترض طريقي رجل عند باب المدرسة وقدّم لي نفسه بوصفه صديق أبي. أجازت له المعلمة المكلّفة بالداخلية بدعوتي لتناول فنجان شاي. أخذني إذن إلى قاعة شاي وطلب لي كعكاً وحلوى ومثلّجات، أي كلّ ما تطيب له نفوس الفتيات الصغيرات! حدّثني عن مدرستي، ونجح شيئاً فشيئاً في كسب ثقتي. سألني عن نوع الكتب التي أحبّ، فحدَّثته عن «جالنا»، إحدى روايات «وايتواك»، فعلق قائلاً: «إنك متقدّمة عن سنك».

تضرّجت وجنتاي لهذا الثناء. استلطفته وسعدتُ باهتمامه بي. ثمّ رافقني إلى المدرسة وقال لي إنه استطاب مجالستي، واقترح عليّ أن نلتقي من جديد، فقبلت بطيب خاطر.

زارني بالمدرسة بعد ذلك مراراً. ولم تعترض المعلمات على أن أرافقه بعد أن علمْن أنّه صديق أبي. وصرت أنتظر زياراته بشوق. كان يُشعرني وهو ينصت لحديثي بأنّني أكبر سنّاً، وجديرة بالتقدير. كان يترك لي الحرية في طلب ما أشاء بالمقهى. وكان يبدو كما لو أنّ حديثي يأسره حتّى ظننتُ أنني كسبت صديقاً من الكبار الذين لم أعتَدْ على اهتمامهم بي. واستمرّ الأمر على هذه الحال إلى أن حلّت آخر زيارة له.

أخذني في ذلك اليوم إلى حديقة عمومية، ومضى يردّد مدى إعجابه بالنزهات التي أرافقه فيها. قال لي إنّه يحب الفتيات

---

(1) كنية أبطال سلسلة من روايات الكاتبة الكندية: مازو دو لاروش (1879-1961) (المترجم).

الصغيرات، ولا سيما الناضجات منهن مثلي. ثمّ نظر إلي، فذكَّرتني عيناه فجأة بعيني أبي. نزع بعض العشب، وجعل يمرره بين أصابعه من الأعلى إلى الأسفل، ومن الأسفل إلى الأعلى، في حركة موحية.

ثمّ قال: «هل تعلمين يا أنطوانيت ما أريدك أن تفعلي الآن؟».

كنت أعلم بالطبع.

«أنا واثق من أنه سيروقك، يا أنطوانيت، أليس كذلك؟».

وأخذتُ أرتعش كأرنب وقع في فخّ.

استطرد يقول: «أعلم أنك تفعلين هذا مع أبيك. لمّا أعود المرّة القادمة، سنذهب إلى منزل نقضي فيه بعض اللحظات ثمّ أرافقك إلى الحافلة. سيروقك الأمر، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي موافقة كما علّموني أن أفعل.

ولمّا حل المساء، حدّثتُ أبي عن صديقه، فاستشاط غضباً، وصرخ في وجهي وهو يرفع قبضته مهدّداً: «لا تفعلي ذلك مع أحدٍ سواي!».

لكنّه غادر غرفتي هذه المرّة من دون أن يضربني. لم يعُد ذلك الرجل إلى المدرسة قط، ولم أعرف كيف عرف ما كان يقع بيني وبين أبي. قد يكون أبي هو من أسرّ له بذلك. يبدو أنّ حتى الشياطين لا تطيق احتمال العيش في الكذب. لا بد أنها تحتاج إلى من يعرف حقيقتها ويعبّر لها عن رضاه عنها.

قضينا في كولداراغ بضعة شهور أخرى، ثمّ أخبرتني أمّي ذات يوم بأنّ المنزل بيع، وأنّ علينا إخلاءه والعودة إلى «كينت». شرحت لي أنّ عليهما، هي وأبي، أن يعثرا على عمل، لأنّ راتباً واحداً لم

يعد كافياً بعدما صار من اللازم دفع الإيجار. وأضافت أنّها ستعثر، بلا شك، على عمل هناك بسهولة.

أخبرتني أيضاً بأنّها استطاعت، خلال السنتين التي أمضيناهما في كولداراغ، ادّخار بعض المال لشراء منزل. منذ بضعة سنين وقسمات وجهها تبدو قاسية، لكنّها وهي تتحدث عن شراء المنزل، لانت تلك الأسارير وتطلّقت: يبدو أن تحقيق حلمها صار وشيكاً.

لم أكن في مثل حماسها، لأنّ تعلقي بكولداراغ كان شديداً.

12

ممّا زاد من هواجسي علاوة على انتقالي من كولداراغ، هو أنّ أمّي أخبرتني بأنّني لن أقيم معهما، بل سأقيم مع كفيلتي بتانتيردون، وأنّ كلّ الترتيبات اتُّخذت من أجل تسجيلي بالمدرسة هناك. شعرت بأنّهما تخلّيا عنّي، رغم تأكيدها بأنّ مقامي هناك سيكون مؤقّتاً، ريثما يعثرا على منزل يسعنا جميعاً. ورغم أنّ حياتي الأسرية كانت رهيبة، فإنّني وجدت أنّ تسليمي لامرأة غريبة أدهى وأمرّ.

انشغلت أمّي بمصير كلبها الأثير برونو أكثر من انشغالها بكلبتي، وقد اهتدت إلى حلّ: بعثته إلى بنت من بنات السيدة غيفين، تقطن بإيرلندا الجنوبية.

وقد تضاعف حزني لمّا علمت أنّ سالي ستقتل حقناً بالسم. شرحت لي أمي أن الكلبة الصغيرة لم تشفَ من آثار ما تعرَّضت له من معاملة سيئة. بدأت تعتريها نوبات، ولن تستطيع تحمّل أعباء السفر الطويل.

سألتها باكية عن مصير جودي والقطط، فأجابتني بأنّ القطط ستمكث في كولداراغ، في حين سيعهد بجودي إلى أحد الجيران، سيرعاها إلى أن نستقر في إنجلترا.

شعرت بأنّني محطمة. سأغادر كولداراغ والمدرسة الوحيدة التي شعرت فيها بالهناء. وبينما كنت أودّع الحيوانات، اجتاحني إحساس بالضياع. هكذا مضيتُ لتوديع أصدقائي. شرعت ببرونو الذي قفز بمرح من سيارة صاحبته الجديدة. ظللتُ أراقبهما وهما يبتعدان إلى أن اختفيا في نهاية الممشى وكلي رجاء في أن تحبّه مثلما أحببته أنا.

أكثر ما شقّ عليّ هو فراق سالي. لما رأيتها تصعد واثقة إلى سيارة أبي كما لو أنها ذاهبة في نزهة، انفطر قلبي. مددتُ ذراعي من خلال النافذة لأداعبها لآخر مرّة، جاهدة في أن أخفي دموعي. علمت من أبي ذلك الصباح بأنّه سيأخذها إلى البيطري. لإعدامها.

أذكر عمق الحزن الذي انتابني، وما زلت أتساءل كيف أصرّ هذا الرجل الذي يتقن الكذب على أن يواجهني بالحقيقة ذلك اليوم، بل حتّى أمّي لم تخف عني الأمر. ماذا كانا سيخسران لو جنّباني هذا الموقف، علماً بأنّ كلّ حياتنا الأسرية كانت قائمة على ألوان أخطر من الكذب؟ حاولت أمّي مواساتي، لكن عبثاً. شعرتُ كما لو أنّني أرسلتُ صديقة إلى المشنقة.

خلال الأسابيع الموالية، ساعدتُ أمي في لمّ أغراضنا ووضعها في صناديق الشاي، وهيّأت حقيبتي استعداداً للإقامة مع كفيلتي التي لم أعُد أذكر عنها شيئاً. وبما أنّه لم يسمح لي إلّا بحقيبة صغيرة، اضطررتُ للتخلّي عن بعض كنوزي، وقد كان جامبو أوّلها.

أودعنا كلّ أغراضنا في مخزن قبل أيام من سفرنا. وذات صباح أخذ أبي جودي إلى الجار المزارع. كانت رغبتي جامحة في مرافقة كلبتي، لكنّني أعرضتُ عن ذلك خشية الاختلاء بأبي، واكتفيتُ بأن

قبّلتها آخر قبلة في السيارة، فلحسَت يدي كما لو أنها شعرت بحزني.

أحسستُ بوحدة رهيبة وأنا أتابع السيارة وهي تبتعد. فقدت كلّ أصدقائي، ولم تكن أمّي بأحسن حالاً منّي، لكنني لم أرثِ لحالها هذه المرّة. كلّ ما شعرت به هو ضرب من الاستياء العميق.

وحلّ يوم الرحيل. كدّسنا أمتعتنا في السيارة وانطلقنا نحو بلفاست. هناك ركبنا سفينة إلى ليفربول، أمضت اثنتي عشرة ساعة في مخر العباب. إثر ذلك توجهنا بالسيارة إلى كينت. لم أشعر بأيّ حماس عند وصولي إلى ليفربول، بل ساورتني كآبة شديدة.

حاولت أن أقضي ما تبقّى من السفر في القراءة، لكن ازدحام الذكريات بمخيلتي منعني من ذلك. تراءت لي عينا سالي البنّيّتان الواثقتان وهي في طريقها إلى مثواها الأخير، وعيون الأفراس القزمة وهي تنتظرني عند الحاجز لمّا ذهبت لتوديعها وإعطائها قطعاً من الحلوى، ونظرة برونو إليّ من خلال زجاج نافذة السيارة التي كانت ستقلّه بعيداً عن كولداراغ، وجودي التي افتقدتها.

كانت أمّي تحدّق في أبي وهما يتحدثان، وتلتفت إليّ بين الفينة والأخرى وأنا في المقعد الخلفي، لكنني كنت أحرص على إخفاء وجهي بالكتاب حتّى لا تطّلع على مشاعري: حنقي على تخليهما عنّي، ونقمتي على حرماني من أصدقائي.

توقّفنا في الطريق مرّات عديدة لنأكل ساندويشات ونشرب الشاي. وقد أكلت بلا شهيّة.

عند حلول الليل وقفنا أخيراً أمام منزل كبير ذي جدران رمادية، تتقدّمه حديقة عُلّقت على بابها لافتة كتب عليها: «بيد آند بريكفست».

أعلن والداي أنّنا سنقضي الليلة هناك، وأنّ أمّي ستأخذني في صباح اليوم الموالي إلى بيت كفيلتي. قدّمت لنا صاحبة الفندق العشاء في غرفة طعام صغيرة معتمة، ثمّ آويت إلى سرير موجود في الغرفة نفسها مع والديّ وأنا في منتهى التعاسة، لكنني نمت على الفور.

طيلة الرحلة التي استغرقت ساعة، مضت أمّي تتحدّث بمفردها. أدركتُ من نبرة صوتها أنها تداري توترها. قالت لي إن كفيلتي متلهّفة للقائي، وطلبت منّي أن أكون وديعة، وأكّدت بأنّها ستعود في إثري قريباً، وأنّ المكان سيروقني.

رحت أنصت إليها وأنا لا أكاد أصدّق. وبما أنّني لم أكن أجيبها، لاذت هي أيضاً بالصمت. تهيأ لي أنّ مصيري ليس بأفضل من مصير الكلاب: ها هما يعهدان بي إلى امرأة غريبة. لم أستطع أن أستوعب سبب تخليهما عني، لا سيما أنهما سيستقرّان في مكان غير بعيد! توقّعتُ ألا تكون علاقتي مع كفيلتي على أحسن ما يرام، وأنني لن أحبّها. وقد تأكّد حدسي حين بلغنا بيتها.

مقابل الطوب الأحمر الحَفِيّ بمنزل كولداراغ، يبعث لون هذا المنزل الرمادي الكآبة في النفس. تطلعتُ بامتعاض إلى الحديقة الصغيرة حيث غُرِس نبات كوبية في قطعة أرض سوداء. وبينما كانت أمّي تطرق الباب، تطلّعت إلى ستائر النوافذ التي تحجب ما يوجد بداخل المنزل، تحرك ستار في الطابق العلوي، لكنني لم ألمح أحداً. وسمعت وقع أقدام في الأدراج، ثمّ فتح الباب فظهرت كفيلتي باسمة، ودعتنا إلى الدخول.

تعلّمت مع مرور الزمن كيف أفهم طبائع الناس. لو التقيتُ بهذه المرأة اليوم، لرأيت فيها سيّدة في أواسط العمر، فظة المظهر ولا تستلطف الأطفال. أمّا بعيون الطفلة الصغيرة التي كنتها، فبدت لي

بجسمها الطويل النحيف أشبه بساحرة. كانت تلك النظرة كافية لأحسم موقفي منها.

جلسنا أنا وأمّي في صالونها البسيط على كرسيين مستقيمين نظيفين. غابت لحظة ثمّ عادت بصينية الشاي التي لا غنى عنها في المجالس. وبينما كنت أحاول الحفاظ على توازن صحن الكعك الصغير الموضوع على ركبتي بيد، وأمسك على نحو أخرق فنجاناً من الخزف باليد الأخرى، مضيتُ أتفحّص كفيلتي وتتفحّصني. وإذا كنت قد رأيت فيها أنا ساحرة، فلا شك أنها رأت فيّ طفلة متجهّمة، تبدو أكبر من سنها، وبالغة النحول. ورمقت في عينيها النفور نفسه الذي شعرت به نحوها.

راحت المرأتان تتحدثان عنّي كما لو كنت متاعاً من الأمتعة. ولأوّل مرّة أحسست حقّاً بالامتعاض من أمّي. كيف سمحت لها نفسها بأن تتخلّى عنّي هناك؟

توقّفا عن الحديث، وخيّم صمت ثقيل قطعته كفيلتي بأن قامت فجأة لتُخلّص المائدة من الصينية، وقالت: «حسناً، سأترككما لكي تتوادعا».

بقيت أنا وأمّي، وراحت كلّ منا تحدّق في الأخرى من دون أن ننبس. انتظرتُ أن تبادر هي بالحديث، وانتهى بها الأمر أن فتحت حقيبتها وأخرجت ظرفاً مدّته لي وهي تقول بصوت هادئ: «ينبغي أن أنصرف الآن يا أنطوانيت. لقد وضعتُ مصروف الجيب في الظرف. عليك أن تُحسني استعماله ريثما أعود».

ضمّتني بين ذراعيها ثمّ غادرت على الفور وتركتني مذهولة. ولمّا سمعت باب المنزل ينغلق، قصدتُ النافذة وأزحتُ الستار

ورحت أتابعتها ببصري يائسة إلى أن اختفت. لم تلتفت إلى الخلف ولو مرّة واحدة.

تضاعف حنقي واستيائي، وشعرت بشوق عارم لجودي. وفي المساء، أجهشتُ بالبكاء حين تذكرت الحيوانات. أحسستُ بأنّني عوقبت على ذنب لا أعرفه. وأخفيتُ كربي خلف قناع متجهّم. لم تدرك كفيلتي، التي لم تكن لها خبرة بالأطفال، أنّ الصبية التي أمامها تعاني من اضطرابات نفسية. لم ترَ فيها غير طفلة مشاغبة.

حين كنت في بيت والديّ، لم يكن اضطرابي المتفاقم يجد الفرصة لكي يتجلّى ويظهر للعيان، لأنهما كانا يحافظان على الضغط. كنت أخضع لمراقبة دائمة تكبت مشاعري وتقنِّن تصرفاتي. أما الآن، فقد زال هذا الرادع. فإذا ربّيتَ حيواناً على الخوف، وزال عنه ذلك الخوف ذات يوم، قد يصير مؤذياً. لم أنشأ على الحنان والإطراء الذي يُكسب المرء الثقة في المستقبل. كانت لياليّ كوابيس ونهاراتي شقاء وأذى. لم أشعر بفقدان عالمي الأسري فحسب، بل كنت خائفة من أن يتخلّى عني أبي وأمي إلى الأبد. وبما أنني لم أنشأ على السيطرة على انفعالاتي، أحسستُ بخطر كبير محدق، فأبديت مقاومة شرسة لسلطة كفيلتي.

كان والداي يضبطان تصرفاتي: أبي بالتهديد والوعيد، وأمّي بالعاطفة، أما في هذا المكان، فصار الحنق هو الإحساس الذي يسري في عروقي، هو وسيلتي لمقاومة التعاسة، وصارت كفيلتي هي محطّ هذا الحنق. صمّمت على ألّا أقدّم أي تنازل، ورحت من ثمة أتمرّد على أبسط ملاحظة تبدُر منها.

تقول لي عند الخروج من الكنيسة: «لا تجرِ يا أنطوانيت» فأنطلق جارية. أو تقول: «عودي إلى البيت فور خروجك من

المدرسة»، فأتعمّد التلكّؤ في الطريق، تأمرني: «كُلي الخضروات»، فأزيحها إلى جانب الصحن إلى أن تيأس، فتسمح لي بمغادرة المائدة إلى غرفتي لأخلو إلى كتبي. راسلتُ أمّي، وأخبرتها بأنّني لستُ سعيدة في بيتها، وأنّ الأَوْلى أن تأتي لأخذي. لا شكّ أن أمّي كانت تأمل أن تتعوّد هذه السيدة عليّ وتحبّني، ومن ثمّة تحتفظ بي في بيتها. على أنها اضطرَّت إلى القدوم في إثري.

علمت لاحقاً أنّ كفيلتي أنّبت نفسها لأنّها لم تعرف كيف تعتني بي. لم تلمني ولم تخبر أمّي بتصرفاتي، وهو ما جنَّبني العقاب.

سعدتُ بمغادرة ذلك المنزل الكئيب، واستعجلتُ فراق تلك المرأة العجوز التي لم تألفني ولم تحبّني. لو كنت أعلم بما كانت تخبئ لي الأيام اللاحقة لكنتُ أعدت النظر في ذلك القرار، غير أنني، وأنا في الحادية عشرة من العمر، لم أكن أعلم بشيء من ذلك.

13

حدثتني أمي خلال رحلتنا بالحافلة ثمّ بالقطار من تانتيردون إلى آولد ووكين عن المنزل الذي اشترته هي وأبي، وكيف زيّنته.

كانت المنازل في سنوات الخمسينيات، وقبل موضة الباحات، تتوفر على فناء خلفي توجد به مراحيض وسلك النشير، ومكان توضع فيه دراجة الزوج، لكن أمّي التي أعجبت بأزهار كولداراغ، شاهدت صورة فيلا ريفية فرنسية، وحاولت أن تستنسخ مظهرها الخارجي قدر الإمكان.

طَلَت الجدران بالأبيض، والأبواب وخشب النوافذ بالأزرق، ووضعت في النوافذ وعلى الجدران التي تحيط بالفناء الخلفي أصصاً، فكان لون الكبوسين البرتقالي يتعارض على نحو بديع مع بياض الجدران الحديثة الطلاء.

قالت لي إنها لم تزيّن البيت من الداخل بعد. وهي عازمة على إزالة ورق الجدران، ثمّ طلاء المطبخ بالأصفر، وباقي الغرف بلون قشدي. كما أنّها تنوي كساء أرضية غرف الطابق الأرضي بمشمع شبيه بالباركيه.

فهمت من خلال إسهابها في وصف البيت مقدار متعتها في

ترتيب منزلنا الجديد، وهو المنزل الأوّل الذي تمكنت هي وأبي من شرائه بعد عشرين سنة من الزواج تقريباً.

غادرنا المحطّة وسرنا مسافة قصيرة إلى أن بلغنا شارعاً تحفّ به منازل صغيرة تعدم الرونق، ولا يوجد به شجر ولا نبات يكسّران رتابته. كان منزلنا بارزاً بالنظر إلى صف المنازل المجاورة له، وكان يلفت النظر بجدرانه البيضاء وأزهاره الملوّنة وبابه الأزرق المزين بمقرعة نحاسية براقة.

لمّا عاد أبي من العمل، تعشينا ثلاثتنا. لمستُ فرحة والديّ بعودتي فتشجّعت وأعلنت لهما الخبر: «أنا الآن أدعى توني».

قالت لي كفيلتي إنّه ترخيم اسم أنطوانيت، وهو اسم راقني. قلت في نفسي إنّ مَن تحمل هذا الاسم تستطيع كسب كثير من الأصدقاء. ابتسمت أمّي وقالت: «حين تلتحقين بمدرستك الجديدة، ستجدين هذا الاسم أيسر في الكتابة على دفاترك».

كان هذا هو أسلوبها في التعبير عن رأيها.

أما أبي، فلم يعلّق بشيء، وظلّ طول حياته يرفض أن يناديني توني.

اشتغل أبي في عطلة نهاية الأسبوع الموالي، فساعدتُ أمّي في إزالة ورق الجدران. هكذا قضينا يوم السبت بكامله في تقشير الجدران. وشعرت من جديد بالقرب بيني وبين أمي. ظلّت تثني عليّ وتردّد أنني ساعدتها. وبينما كنّا نتناول الشاي في الفناء الخلفي المزيّن بالزهور، وأجابت، عن غير قصد، عن أسئلة لم أكن قد طرحتها عليها بعد.

«سيسافر أبوك بعد أسبوعين لزيارة جدّك وجدّتك بإيرلندا،

وسيعود بجودي. سأرافقك إلى مدرستك الجديدة يوم الاثنين، وستقابلين الناظر».

اكتشفت أنّها مدرسة مختلطة، وأنا لم أعتد إلّا على المدارس الخاصة بالبنات. سألتها: «ماذا سأرتدي؟».

أجابت: «سمح لك الناظر بارتداء زيّ مدرستك السابقة إلى أن تصير أصغر من مقاسك».

وشعرتُ بغصّة في حلقي. سيكون عليّ هذه المرّة أيضاً أن أبدو مختلفة عن الآخرين.

مرّ يوم الأحد سريعاً كما أمِلتُ، وحلّ يوم الاثنين فرافقتني أمّي إلى المدرسة. ارتديتُ زيّي المدرسي بعناية فائقة: تنّورة خضراء وقميصاً أبيض وربطة عنق ملونة بالأخضر والأسود، وجوربين يبلغان الركبتين، وحذائي القديم، وسترة خضراء.

وددتُ عند وصولنا إلى المدرسة لو أغور في الأرض. كانت تلعب في الساحة فتيات صغيرات تلبسن تنّورات رمادية وقمصاناً بيضاء وقبعات وأحذية بلا كعب. جماعات من الأطفال في سني ومراهقون يتجاذبون أطراف الحديث. تبدّدت ثقتي بنفسي، ولم يعُد بيدي شيء أواجه به هذا الوضع الطارئ غير اسمي الجديد. وتبعتُ أمّي إلى مكتب الناظر.

تفحّص كشوف علاماتي المدرسية، وطرح عليّ جملة أسئلة حول السنتين الدراسيتين الأخيرتين. سألني أيضاً عمّا أحبذ القيام به خارج أوقات الدرس، لكن كيف السبيل لأن أشرح لهذا الحضري الإنجليزي ما كانت عليه حياتي في الريف الإيرلندي؟ قادني إلى قاعة الصفّ وقدّمني للمعلمة، وهي امرأة فارعة شقراء، ذات قسمات

لطيفة. قالت لي إنّها تلقي درساً في اللغة الإنجليزية، ومدّت لي كتاباً كنت قد درسته في إيرلندا الشمالية، فعلمت على الفور أن دروس مادتي المفضَّلة سيطبعها الملل.

وبتوالي الدروس في ذلك اليوم تضاعف شعوري بالإحباط. المنهاج الدراسي الإنجليزي مختلف عمّا كان يدرّس بإيرلندا الشمالية. تجاهلني التلاميذ خلال الاستراحة. لا شكّ أنّني بدوت لهم غريبة بذلك الزيّ المغاير. تمنيت وأنا أحضن كتبي أن تبادر إحدى التلميذات بالتحدّث إليّ، لكن عبثاً.

عدت في المساء إلى البيت وحيدة، بينما عاد التلاميذ في جماعات صغيرة يتحدثون. بدا ذلك بديهياً بالنسبة إليهم: فأنا لا أنتمي إلى عالمهم.

أخبرتني أمّي بابتهاج عند عودتي بأنّها عثرت على شغل. وبعد أسبوعين، سافر أبي إلى إيرلندا الشمالية كما كان متوقّعاً. وخلال غيابه، علمتُ أنّ علي أن أجتاز امتحاناً بالمدرسة عمّا قريب. كان الأساتذة يقدّمون لي واجبات مدرسية إضافية حتى أتدارك تعثري بالنظر إلى المنهاج الإنجليزي، وهو ما كلّفني السهر إلى ساعة متأخّرة من الليل كلّ يوم.

لم يكن أبي يهتم البتة بدراستي، لكن أمّي كانت حريصة على نجاحي. أما الأساتذة، فكانوا يثقون فيّ، وهو أمرٌ لم أعتد عليه. أمضيت أسبوعين متردّدة بين الحماس للقاء جودي والخوف من الامتحان الوشيك.

وعاد أبي ومعه جودي. بدت في غاية الفرح لمّا أبصرتني. لم يعد بإمكانها أن تعدو خلف الأرانب بين الأشجار كما كانت تفعل، لكنها سرعان ما تكيّفت مع حياتها الجديدة، واعتادت على نزهات

المدينة والحبل الذي يطوِّق عنقها. دأبتُ على إخراجها ثلاث مرات في اليوم.

افتقدتُ مدرستي السابقة في كولداراغ، وبدا أن جودي تكيّفت على نحو أفضل منّي.

وحلّ يوم الامتحان الذي طالما خشيته. وُزِّعت الأوراق بِصَمْت على التلاميذ الذين بدا عليهم التهيّب من هذا الاختبار. لم أجد أي صعوبة في الموضوعين الأولين، لكن الأمر كان مختلفاً بالنسبة إلى اختبار الحساب. رحتُ أنظر بتضرّع إلى أستاذي الذي وقف بجانبي يقرأ إجاباتي من دون أن ينبس.

وحين دقّ الجرس، جُمعت كل الأوراق، فانتابني إحباط شديد. كنت أعلم أنّني لن ألتحق بالثانوية ما لم أنجح في هذا الامتحان.

بينما كنت أنتظر نتيجة الامتحان في الأسابيع الموالية، لم أكن ألتقي بأبي إلّا نادراً، لأنه كان يقضي معظم وقته في العمل. هذا ما كانت تزعمه أمّي على الأقل. كنت أعود إلى البيت فور خروجي من المدرسة لأساعدها في أشغال البيت قبل أن أفرغ لإنجاز واجباتي المدرسية.

ثمّ تغيرت مواقيت عمل أبي. صار يشتغل ليلاً، وقد تزامن ذلك مع شروع أمّي في عملها الجديد. وبما أنّ مقرّ عملها كان بعيداً، كانت مضطرّة لركوب الحافلة، في حين لم تكن مدرستي تبعُد إلّا ببضع دقائق، وبذلك كانت تغادر البيت قبلي. تناولتُ فطوري صباح أول يوم من هذا النظام الجديد بسرعة، وسخّنت الماء لكي أغتسل.

لم يكن يفصل غرفتي عن غرفة والدي غير ردهة صغيرة. لذلك

حاولتُ أن أصعد الأدراج من دون ضجة حتى لا أوقظه لا سيما أنه لم يأوِ إلى فراشه إلّا عند الفجر.

صببتُ قليلاً من الماء الساخن في وعاء قديم، ونزعتُ ملابسي وشرعت أستحم. نظرتُ إلى نفسي في المرآة، فلاحظت لأوّل مرّة أن جسمي بدأ يتحول: لم يعُد صدري مسطحاً كما كان. مرّرت يدي على نهديّ الناشئين من دون أن أعرف ما إذا كان هذا التحول يروقني، ولاح لي بغتة طيف آخر في المرآة.

كان أبي مقرفصاً عند المدخل وهو لا يرتدي غير كلسون وقميص تحتاني ملطخ بالعرق. لعله فتح الباب بلطف وراح يتأملني وهو يبتسم. اقشعرّ جسدي من الخوف، ومددتُ ذراعي لألتقط المنشفة وأستتر.

أمرني قائلاً: «كلا يا أنطوانيت، أريد أن أتملاك، استديري!».

فانصعتُ لأمره.

ثم قال لي: «اغتسلي الآن».

فمضيتُ أغتسل وقد تورّد وجهي حياء. قام ودنا منّي وجعل يديرني أمام المرآة، ثمّ همس:

«انظري إلى المرآة يا أنطوانيت».

سمعتُ صوت أنفاسه يتعالى. وراحت إحدى يديه تداعب نهديّ المبرعمين بينما مضت الأخرى تلامس جسمي نازلة إلى الأسفل، ثمّ توقفت فجأة.

«عودي إلى البيت بعد المدرسة فوراً، وحضّري لي فنجان شاي وائتيني به». ورحت أنظر إلى الأرض من دون أن أنبس، فأضاف: «أسمعت يا أنطوانيت؟».

فهمست: «نعم يا بابا».

انصرف بغتة وهو يغمز لي. ارتديتُ ملابسي وأنا لا أزال أرتعش. مشَّطت شعري ثمّ نزلت لآخذ جودي لنزهة الصباح قبل التحاقي بالمدرسة.

بدوت ذلك الصباح أكثر انزواء من المعتاد. ظلّ بالي منشغلاً بما ينتظرني عند العودة. ولمّا رنّ الجرس عند الساعة الرابعة بعد الزوال، جمعتُ لوازمي بفتور. وضعتُ حقيبتي على كتفي ومضيت أتأمل التلاميذ وهم يبتعدون في جماعات. من المؤكد أن أمهاتهم تنتظرنهم في البيوت. لم يكن من الشائع في ذلك العهد رؤية أطفال يعودون إلى منازل فارغة وهم يعلّقون مفاتيحها حول أعناقهم.

استقبلتني جودي كما كانت تفعل كلّ مساء وهي متحمسة للنزهة. وشعرتُ بوجود أبي قبل أن أراه. سأل من أعلى السلم: «أهذه أنت يا أنطوانيت؟».

فأجبت «نعم».

«حضّري الشاي إذن وائتيني به، واتركي الكلبة في الفناء».

بينما كنت أحضّر الشاي، تصوَّرت شبقه، فتضاعف هلعي. تلكّأت قليلاً، لكنني ذهبتُ في الأخير. وضعت فنجاناً وبسكوتتين على الصينية، ثمّ حملتها وصعدت. كانت الغرفة مظلمة والستائر مسحوبة، وأبي مستلقٍ على السرير الذي ينام فيه مع أمي. فغمتني من جديد رائحة جسده. كانت الشهوة بادية في عينيه. ووضعتُ الصينية على السرير.

قال لي وهو يتناول فنجانه: «اذهبي إلى غرفتك وأزيلي تنّورتك ثمّ عودي».

عدت وأنا لا أرتدي غير القميص التحتاني والتبّان والحذاء والجوارب.

«والآن تجرّدي من هذه» وأشار إلى القميص والتبّان ثمّ أشعل سيجارة ولاحت على وجهه تلك الابتسامة التي صرتُ أعرفها حق المعرفة. أبصرتُ قرب السرير وعاء فازلين عادة ما يكون موضوعاً على المنضدة التي تضع عليها أمي أدوات تجميلها. غمسَ أصابع إحدى يديه في الوعاء وهو يسحب نفساً من السيجارة التي أمسكت بها يده الأخرى. شلّني الخوف، إذ كنت أعلم أنّ أمّي لن تعود إلّا بعد ساعتين، وأيقنت بأنّ ما ينتظرني أدهى ممّا قاسيته في إيرلندا الشمالية. ذلك أن شبقه زادَ مع تحول جسدي من الطفولة إلى المراهقة.

سحبني إلى السرير وأجلسني على ركبتيه، ثمّ رفع أصابعه من وعاء الفازلين وأدخلها فيّ بعنف. اعتدل وسوّاني كما كان يفعل سابقاً في السيارة بحيث تدلّت ساقاي على جانب السرير. أغلقت عينيّ حتّى لا أرى شيئاً، لكن لم يكن بإمكاني ألّا أسمع.

وهمس: «هذا يروقك يا أنطوانيت، أليس كذلك؟».

إن أعرضتُ عن الإجابة، سيزيد من عنف إيلاجه، فيتصلّب سائر جسمي من الألم.

سحب آخر نفس من سيجارته وهو يهمس: «قولي لأبيك بأنّ هذا يروقك يا أنطوانيت» ثمّ أضاف: «قولي، أجل، يروقني هذا يا بابا».

وغمغمت بما كان يريد أن يسمع، ثمّ شعرت بتلك المادة اللزجة تسيل على فخذي لمّا قذف، وكانت سيجارته لا تزال بين أصابعه.

أزاحني فجأة من السرير وهو يقول: «اذهبي لتغتسلي، ثمّ انزلي إلى الطابق السفلي ونظفيه ريثما تعود أمك».

لبست تنّورة قديمة وقميصاً صوفياً ثمّ نزلت إلى مرحاض الفناء ومضيت أدعك وأدعك بشرتي بورق النظافة المبلَّل حتى أزيل تلك اللزوجة ورائحة جسده. أفرغتُ إثر ذلك رماد المدفأة ثمّ هيأتُ ورق الجرائد والحطب لإشعال النار. خرجتُ لإحضار الفحم، ثمّ غسلت يدي، وسخنت الماء لأهيئ الشاي لأمّي.

14

شعرتُ بصداعٍ شديد يعبر رأسي من أعلى الجمجمة إلى الرقبة، وسمعتُ على نحوٍ غير واضح صوت أمّي تناديني من أسفل الدرج.

كان الوقت قد حان لكي أنزل لجلب الماء من أجل أن أغتسل. فتحتُ فمي لكي أجيبها، لكن كل ما استطعتُ النطق به حشرجة مبهمة. وظلّت عيناي مغمضتين كما لو خشيتا أن يؤذيهما نور الشمس. رفعتُ يدي إلى جبيني فوجدته ملتهباً. أحسست أيضاً بتورّم أصابعي وتصلّبهما.

حاولت أن أعتدل جالسة، لكن كلّ شيء راح يدور من حولي، ورأيت أمامي بقعاً سوداء، ثمّ شعرتُ بالعرق يتصبّب على فودَيّ. أحسستُ ببرد شديد، وجعل جسمي كلّه يرتعش. ركبني الهلع، وطفق قلبي يدقّ بقوة لحدّ أنني شعرت بخفقانه في أوعيتي.

غالبت مع ذلك لأغادر السرير، وقصدتُ المرآة. واجهتني صورة طفلة غريبة، شاحبة اللون، منتفخة الوجه، تحيط بعينيها هالات سوداء، وشعرها مبلل وملتصق بجبينها. رفعت يدي لكي أمسح بها على وجهي، فبدت لي أصابعي منتفخة وفي غاية الشحوب. نزلت السلّم مرتعدة وقد خارت قدماي، فما كدتُ أصل

إلى المطبخ حتّى أهويت على أحد المقاعد. نظرت إلى أمّي نظرة فاترة فأجهشتُ بالبكاء.

وسمعتها تقول: «ماذا بك يا أنطوانيت؟» ثمّ قالت بنبرة تشي بالقلق: «انظري إليّ يا أنطوانيت» ووضعت يدها على جبيني: «يا إلهي، إنك محمومة!».

طلبت منّي أن ألزم مكاني ولا أتحرّك، وهو ما لم أكن أستطيعه على كل حال، ثمّ توجهتْ إلى الردهة حيث يوجد الهاتف، وسمعتها تركب رقماً وتتكلّم بنبرة مستعجلة.

عادت إلي بعد دقائق حاملة غطاء لفّت به كتفي وقالت إن الطبيب آتٍ. لا أذكر كم مضى من الوقت قبل وصوله، لأنّ الحمى أصابتني بالإغماء. كنت أرتعد من البرد وأختنق. سمعت طرقات على الباب، ولما جاءني صوت الطبيب، شعرتُ بشيء من الطمأنينة. لا بد أنه يستطيع مساعدتي.

وضع محراراً في فمي وجسّ نبضي، وغشت بصري كدرة. كانت الأعراض تشير إلى إصابتي بالتهاب كلوي، وألحّ على نقلي إلى المشفى فوراً لأنّ حرارة جسمي تجاوزت 39,5.

سمعت هدير سيارة الإسعاف، وشعرتُ بأمّي تمسك بيدي خلال الطريق، لكنّني بالكاد أذكر أنّني حملت على نقّالة إلى مصلحة طب الأطفال حيث انتظرت، وأنا مستلقية، أن أُفحص من جديد. لم أكن أرغب إلّا في شيء واحد، وهو أن أنام.

لا أذكر على نحوٍ واضح ما وقع في الأيام الموالية. كنت أحسّ بإعياء متواصل ووخز في ردفي (علمت لاحقاً بأنها حقن بنسلين)، وحركة دائبة حولي، وبخرقة مبللة تمرّر بانتظام على جسمي

المحموم. كانوا يوقظونني أحياناً ليضعوا أنبوباً في فمي، ينبعث منه سائل بارد في جوفي الملتهب، أو ليمرّروا وعاء معدنياً تحت ردفي، وكنت أسمع الأصوات تطلب منّي ألا أجلس، وأن أبقى مستلقية إلى أن أستعيد قواي.

لم أشعر بمرور الأيّام الأولى التي أمضيتها بالمشفى: كنت أقضي معظم وقتي نائمة ما عدا الأوقات أوقات العلاج وأوقات الزيارات، حيث كنتُ أجهد نفسي لأفتح عيني.

كان الأطفال المرضى من حولي يتطلّعون إلى باب مصلحة طبّ الأطفال بلهفة وهم ينتظرون دخول الزوار من الكبار بشوشين ومحمّلين باللعب والكتب والفواكه.

كنت أنا أيضاً أترصّد قدوم أمي ورأسي على الوسادة. كنت أشمّ عطرها لمّا تصل مسرعة وتجلس بجوار سريري. تمسك بيدي وتداعب شعري وتقبّلني، ولم تكن تتردّد في التعبير عن حبها لي أمام الآخرين. وأدركتُ من ابتسامة أبي قلقه عليّ هو الآخر. كان يبشّ في وجه الممرضات، فتبادِلْنَه الابتسامة.

قالت لي أمّي إنها قلقت عليّ كثيراً، وأنّ حالتي أرعبتها، لكنني الآن بين أيادٍ أمينة، وأن عليّ أن أتصرف كفتاة ناضجة حتى أعجّل بشفائي. فسّرت لي أنّني سأمكث في المشفى، بله في الفراش، بضعة أسابيع، بسبب إصابتي بتعفن كلوي حادّ، وأنّ عليّ أن أتّبع حمية خاصة، قوامها الجلوكوز وشراب اللوز. قالت لي أيضاً إنّ البيت هادئ من دوني، وأنّ جودي اشتاقت إليّ، وأنّها واثقة من أنّني سأشفى قريباً. وبينما كانت تتحدّث إليّ وأنا مستلقية في السرير، كنت أستغرق في النظر إلى عينيها إلى أن تنجح حدّة نظرات أبي في شدّ انتباهي.

كانت ابتسامته ودودة، لكنّني كنت أرى من خلال عينيه الأب الآخر، ذاك الذي لا يعرفه أحدٌ سواي.

وبمرور الأيّام، بدأ حالي يتحسّن. استعدتُ قواي، وصرتُ قادرة على الانتباه إلى مَن يحيطون بي. كان عليّ ألا أبرح الفراش، لكن صار بوسعي الجلوس بالاعتماد على كومة من الوسائد: ثلاث وسائد، بحيث كانوا يضيفون لي واحدة كلّ أسبوع. ارتاحت عيناي واستعدتُ متعة القراءة. كنت أنتظر بتلهّف أمين المكتبة الذي يتجوّل في المشفى بعربة الكتب. لمّا مرّ لأوّل مرة أخبرته بولعي بالقصص البوليسية، فاستغرب أن يكون لطفلة في سني مثل هذا الميول وتجهّم، لكنّنا اتفقنا في الأخير على أن يمدّني ببعض روايات أغاثا كريستي: مغامرات «طومي وتوبانس» و«الآنسة ماربل» ثم «هيركيول بوارو». ومن حُسن حظي لأغاثا كريستي رصيد لا ينفد من الروايات.

كانت رتابة الحياة في مصلحة طبّ الأطفال تبعث على الطمأنينة، إذ كانت تشرع بطقس توزيع الأوعية المعدّة لقضاء الحاجة على كلّ الأطفال الذين يلزمون الفراش. كنّا نعلم ونحن نجلس مصطفين على تلك القعادات المعدنية بأنّ محتوياتها ستفحص بعناية فائقة قبل أن يتخلّصوا منها. ثم يحضرون لنا قليلاً من الماء لنغتسل، بحيث كنّا نسحب حولنا ستاراً يحفظ حميميّتنا الطفولية.

إثر ذلك يحلّ وقت الفطور. كان البيض والخبز الكامل الذي يقدم لجيراني من الأطفال يثير شهيتي، لكن لم يكن من نصيبي سوى فنجان جلوكوز رمادي لزج.

وبمجرّد ما كانوا يستعيدون صينية الأكل، كنت أغوص في روايتي، محاولة فكّ ألغازها البوليسية قبل أن يُفصح مفتش الشرطة عن هوية المجرم.

كنت أستغرق في القراءة ولا أكاد أنتبه للجلبة الدؤوب من حولي: حفيف وزرات الممرضات، وقع أحذيتهن على الأرض، ثرثرة الأطفال المتماثلين للشفاء وصرير الستائر تسحب حول الأطفال الأشدّ مرضاً. كلّ هذه الأصوات كانت تمتزج بالحفيف الذي كنت أحدثُه وأنا أقلّب الأوراق مستغرقة في القراءة.

ولمّا يحين موعد الغذاء، كانت روائح الطعام تدغدغ أنفي. كلّ الأطباق كانت تثير شهيتي لأنني محرومة من البروتينات ولا أطعم غير شرابي الدبق. فأروح أنظر باشتهاء إلى صحون الآخرين.

«اشربي يا أنطوانيت، سيفيدك هذا كثيراً!».

كنت مشتاقة للأكل.

«بفضل هذا سيتحسّن حالك وستتمكنين من العودة إلى البيت».

اشتقت للكعك والمثلجات والحلوى ولصحن مليء بالخبز المحمّص المشبع بالزبدة. مجرّد التفكير في هذا كان يُسيل لعابي! لكن كان عليّ أن أتحلّى بالشجاعة، وأجبر نفسي على ابتلاع فنجان السائل اللزج بالملعقة.

كانت الممرضات ترتّبن أسِرّتنا بعد الغذاء، وتسوّين الأغطية بعناية فائقة بحيث كنا نتسمّر في أمكنتنا. إثر ذلك نترقب زيارة الحارسة العامة وقد حشرنا أذرُعنا تحت الغطاء، ومشَّطنا رؤوسنا.

كانت تقتحم باب المصلحة بجلال، يتبعها حشد من الأطباء والممرّضة الرئيسة وإحدى ممرضات المصلحة. امرأة مهيبة، تتلفّع بوشاح طويل، وتضع قبعة بيضاء، ينتصب رأسها مستقيماً داخل طوق منشّى. كانت تقف عند كل سرير بفخامة، وتسأل صاحبه عن حاله.

«على أحسن ما يرام، شكراً لك يا أختي». عندئذٍ تنتقل إلى

السرير المجاور وهكذا دواليك إلى أن تفرغ من جولتها، فتغادر الجناح بالمهابة نفسها. آنئذٍ يتنفس الجميع الصعداء، موظفون ومرضى. تستعيد أجسامنا حركتها العفوية، وتستعدّ لقيلولة قصيرة يليها وقت الزيارة.

بالنسبة لي كان الليل يحلّ مبكّراً جداً، فيوقف التحقيقات البوليسية التي كنت أجريها بالنيابة، لكنّني كنت أنام الليل كاملاً في الغالب بلا مصاعب، ونادراً ما كان يوقظني وصول مريض جديد. وقد رأيت ذلك الرضيع في إحدى هذه المناسبات.

أيقظني صرير سحب الستار حول سرير يفصلني عنه سريران، فأبصرتُ هيئة صغيرة برأس مشوّه، تهيّأ لي أنّ رقبته الدقيقة ستنكسر من فرط ضخامة تلك الرأس. كان مصباح السقف ينشر ضوءاً برتقالياً خافتاً على السرير الذي تعكف عليه امرأة تمسك بأصابع الرضيع، ثمّ سُحِب الستار، فغلبني النوم على الفور.

ظلّ الستار مسحوباً لمدّة يومين كاملين. كان الأطباء والممرضون يتوالون على ذلك السرير من دون أن نتمكّن من رؤية ما يقع فيه. وفي الليلة الثالثة رأيت، كما لو كان ذلك في الحلم، المرأة نفسها، وأدركت من هيئتها أنّها تبكي. أبصرت الممرّضة الرئيسة تحمل بين ذراعيها جسماً مقمّطاً، وتشقّ طريقها بين الأطباء، ثمّ انطفأ الضوء، فأغمضتُ عيني.

في اليوم الموالي، أزيح الستار، وأعيد ترتيب السرير، ولم يعُد للرضيع من أثر.

فهمت بفطرة الأطفال أنّه مات، وأدركتُ أيضاً أنّ عليّ ألّا أسأل عنه.

كنت أراقب الأطفال وهم يحدّقون في باب الجناح عصر كلّ

يوم، متلهّفين لرؤية آبائهم يصلون. وعند حلول تلك اللحظة المرتقبة، تنطلق أساريرهم، ويمدّون أذرعهم نحو أقربائهم وهم يهتفون من الفرح. أمّا أنا فكان يعتريني قلق حادّ. لم أكن أستطيع، وأنا مستلقية في فراشي، الإفلات من نظرة أبي ومن الخوف الذي يبعثه في نفسي.

بعد ستة أسابيع من دخولي المشفى، زارني بمفرده. كانت رتابة حياة المشفى قد أنستني قليلاً ذكرياتي المؤلمة، لكنني ما إن رأيته بجانب سريري حتّى انبعثت كل تلك الذكريات في مخيّلتي، وشددت أصابعي على الفراش بقوّة وتشنّج.

تناول يدي وأحنى عليّ ليقبّلني. تساءلتُ عن سبب غياب أمّي، ومضى يشرح لي، من دون أن أسأل، بأنّها مزكومة، وأنّها لم تشأ أن تنقل العدوى للأطفال. كان شعره ممشطاً بعناية، وكان يبتسم للممرضات، لكن الأب الشرير كان واضحاً في نظرته وفي كلّ كلمة من كلماته.

قال لي وهو يمسك بيدي: «اشتقتُ إليك يا أنطوانيت، هل اشتقتِ أنت أيضاً لأبيك؟».

واستيقظَت الدمية الكامنة بداخلي، فهمسَت «نعم»، بينما شعرتُ بالقوى التي بالكاد استعدتها تفارق جسمي.

«ممتاز، لقد هيّأتُ لك هدية لما تعودين إلى البيت. ستروقك، أليس كذلك يا أنطوانيت؟».

لم أسأل عن هديته، كنت أعرف قصده. ضغَطتْ يدُه على يدي أكثر، وكان ينتظر جوابي، فرفعتُ رأسي وقلت له ما كان يودّ سماعه:

«نعم يا بابا».

ابتسم وقد بدت عليه علامات الرضا. «كوني فتاة حكيمة يا أنطوانيت، سأعود لزيارتك غداً». وهو ما كان.

لم تتوقّف الممرّضات عن ترديد أنّني محظوظة بهذا الأب، فهو يحبّ ابنته الصغيرة، وأنّ عودتي إلى البيت وشيكة.

بعد زيارته الثالثة، انتظرتُ إلى أن نام الأطفال فوضعتُ حزام لباسي حول عنقي، وحزمتُ الطرف الآخر بقضبان سريري، وارتميت على الأرض.

هبّوا لإنقاذي بالطبع. كان تقدير ممرّضة الليل أنّني مكتئبة بسبب شوقي لأهلي، وخالت أنّ الإلحاح على قرب عودتي سيطمئنني. مكثَت بجواري إلى أن نمت، وفي الصباح اكتشفتُ أنّ الحزام اختفى.

جاء والداي معاً لزيارتي ذلك اليوم. جلسَت أمي بجانبي وأمسكَت بيدي بينما بقي أبي واقفاً وقد شبك يديه.

قالت: «أنا واثقة من أنّ ما وقع ليلة أمس كان حماقة. لقد اتّصلت بي الممرّضة، وأنا متيقّنة من أنّك لا ترغبين في إثارة هواجسي بهذا النحو، أليس كذلك؟».

رأيتُ ابتسامة عريضة على وجهها، وأدركتُ أنّ الحادث قد حُفظ، و«لن نعود لإثارته»، واستأنفت تمثيلية العائلة السعيدة التي كانت تلعب فيها دور البطولة.

ثمّ استرسلت تقول وهي تلتفت إلى والدي باسمة: «لقد تحدّثنا أنا وبابا وقلنا إنك لمّا تغادرين المشفى، ستكونين ما زلت متعبة، لهذا قرّرنا أن نبعثك عند الخالة كاترين». كنت بالكاد أعرف هذه المرأة، إلا أنّها كانت تروقني في كلّ مرّة نزورها. «الإقامة لبضعة أسابيع في الريف ستفيدك، ولن نتحدّث ثانية عن هذه الحماقة يا

عزيزتي، وبطبيعة الحال، لن نقول شيئاً للخالة كاترين. لا ينبغي أن نشغل بالها، مفهوم؟».

كنت أشعر بنظرات أبي حتى وأنا أحدّق في أمّي التي حاولت الضرب على الوتر الحساس. وبما أنني كنت دائمة السعي لإرضائها، أجبتُ: «شكراً، هذا أمر لطيف».

لمّا أنهى والداي المهمّة، شعرا بالارتياح، وحين رنّ الجرس معلناً عن نهاية الزيارة، أغدقا عليّ القبل قبل أن ينصرفا. مسحتُ ذقني حيث قبّلني أبي ثم تناولت كتابي واستغرقت في القراءة.

لم نعُد للحديث عن هذه الواقعة قطّ كما وعدت أمي. فقد كان لها منطقها الخاص في التعامل مع المشاكل: «عدم الحديث عنها معناه أنّها لم تقع». حتّى العاملون في المشفى صمتوا عن الواقعة ولم يعودوا لها كما لو أنّ إنكار أمي أصابهم بالعدوى.

ولم يعُد أبي لزيارتي بمفرده بعد ذلك إلّا مرّة واحدة.

«تذكري يا أنطوانيت ما قلتُ لك. لا تحدّثي أحداً عن أسرارنا، مفهوم؟».

فأجبت وأنا أنحشر تحت الغطاء، محاولة تلافي نظراته التي تشي بغيظ مكتوم جاهز للانفجار: «نعم يا بابا».

كنت أتطلّع إلى باب الجناح كلّ يوم آملة أن أرى أمي قادمة، وفي كلّ يوم كنت أصاب بالخيبة. ولما أتت أخيراً لزيارتي، بدا عليها الارتباك وهي تلتمس الأعذار. قالت إن العمل يرهقها، وأن المسافة التي تقطعها بالأوتوبيس طويلة للغاية، وقالت أيضاً إنّ الخالة كاترين متشوّقة لاستقبالي، وأنّها غير مضطرّة للعمل مثلها، لأن عائلتها ميسورة. أضافت أنّها تتمنى لو تستطيع التوقّف عن العمل لكي ترعاني، لكن ذلك مستحيل، وأنّ عليّ أن أتفهّم الأمر.

كانت رغبتي الوحيدة، وأنا في الحادية عشرة من عمري، هي أن أعود إلى البيت وأجد أمّي، على أنّ رغبتي في إرضائها كانت أقوى.

أجبتُ: «يسعدني أن أذهب عند الخالة كاترين». فقبّلتني شاكرة وارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة.

وحلّ اليوم الأخير من إقامتي بالمشفى. ارتديتُ ملابسي في الصباح الباكر، ولممتُ في حقيبتي كلّ الكتب والملابس التي تجمّعت لديّ خلال الأشهر الثلاثة التي قضيتها بالمشفى، ثمّ جلستُ على سريري أنتظر وصول أمّي.

15

كانت الخالة كاترين تقطن منزلاً واسعاً يقع على شاطئ مقاطعة «كينت». منحوني غرفة جميلة جدرانها مكسوّة بورق يتناسق لونه مع لون اللحاف الذي يغطّي السرير. قيل لي إن هذه الغرفة كانت غرفة ابنتها هازيل التي انتقلت إلى غرفة أكبر عند بلوغها سنّ المراهقة.

لم تكن تربطنا بالخالة كاترين علاقة قرابة، بل هي في الواقع صديقة حميمة لأمي. كانت العادة في سنوات الخمسينيات أن ينادي الأطفالُ الكبارَ «خالتي» و«عمّي». كانت امرأة جميلة بشعر كستنائي متوسط الطول جرياً على موضة ذلك العهد، تنتمي إلى جيل لم يكن معتاداً على الاستعانة بأفانين الحلاقين. أغرمتُ بالرائحة التي تتركها عند مرورها، مزيج من العطر ورائحة الطبخ اللذيذة. وكانت أظافرها، بخلاف أظافر ماما، قصيرة تكسوها طبقة رقيقة من الطلاء، وكانت تنتعل صنادل مسطحة، لأنّ الكعوب العالية كانت مخصّصة للمناسبات الكبرى، كما هو الحال لما كانت تصحبني إلى قاعات الشاي، وهي قاعات كانت تذكرني بطفولتي المبكرة.

كانت خرجتنا الأولى إلى متجر كبير حيث طلبت منّي أن أختار أقمشة.

«لقد كبرت يا أنطوانيت خلال إقامتك بالمشفى، ونحلتِ، ولم تعُد ملابسك على مقاسك».

كان ذلك أسلوباً مهذباً لدعوتي للتخلّص من ثيابي القديمة التي كانت أمي حريصة عليها، والتي لم تكن تروقني إطلاقاً. ثمّ أضافت: «فلنتعاون معاً لاختيار ثوب جميل».

أمسكَتْ بيدي وقادتني إلى المصعد حيث كان منادٍ، وهو محارب سابق ألبسوه بذلة المتجر، وكلّفوه بأن يعلن للزبناء عمّا سيجدونه من سلع في كلّ طابق. وهي مهنة لم تكن قد انقرضت بعد في إنجلترا آنذاك.

نزلنا إلى طابق الخرداوات، وبعد أن عبرنا رواق الأزرار وكرات الصوف ولوازم الخياطة، بلغنا رواق الأثواب حيث توجد لفّات أقمشة ضخمة من مختلف الألوان. أدهشتني ألوان لم يسبق لي أن رأيتها، وشدّ نظري ثوب رمادي بالغ النعومة، وثوب موسلين مطرّز. أردت أن أتفحّصه عن قرب، لكن الخالة كاترين أمسكت يدي بلطف وسحبتني إلى ثوب قطني مناسب لما كنّا نبحث عنه.

هتفت وهي تبسط ثوباً مخططاً بالأبيض والوردي: «انظري، هذا الثوب يناسبك تماماً». وقبل أن أجد الوقت للجواب، أشارت إلى ثوب آخر أزرق فاتح: «وهذا، أأعجبك؟».

أومأت برأسي مؤمّنة وأنا في غاية التأثّر حتّى إنّني عجزت عن النّطق.

فقالت بمرح: «هيّا، سنقتني هذين الثوبين. والآن يلزمنا ثالث للمناسبات الكبرى».

لاحظت أنّ عينيّ مشدودتان إلى قماش صوفي بمربعات ملونة، شبيه بثوب فستاني الاسكتلندي المفضَّل الذي صار يصغرني.

قالت: «سنقتني هذا أيضاً». ثمّ غادرنا المتجر وتوجَّهنا إلى قاعة شاي. انتابتني سعادة غامرة: لم أحصل على فستان واحد، بل على ثلاثة! سرتُ بجانبها مترنّحة وقد ارتسمت بسمة عريضة على وجهي.

لم يكن ذلك اليوم يوماً عادياً، لذلك سمحت لي الخالة كاترين بتناول قطعة من الكعك رغم نظام الحمية الذي أتّبعه. شعرتُ بمتعة كبيرة وأنا أذوق من جديد تلك النكهة الحلوة، وتمنيت لو أبقى مع هذه المرأة إلى الأبد.

تهيّأ لي أنّي عبرت إلى «الجانب الآخر من المرآة»[1] مثلما وقع لأليس. لم أعلم بوجود مثل هذه الحياة إلّا من خلال محادثاتي مع بعض الأطفال، لكنني عشتها هذه المرة حقيقة، فما عدتُ، على غرار أليس، أرغب في العودة إلى الوراء. نسيت في هذا اليوم شوقي لجودي، وحرصتُ على أن أستمتع بكل لحظة من اللحظات. ولمّا انتبهت الخالة كاترين إلى انتشائي، حدّثتني عن مختلف الجولات التي تنوي أخذي إليها.

قالت موضّحة: «لا يسعنا أن نفعل شيئاً الآن وأنت لا تزالين متعبة، لكن في غضون الأسابيع القادمة، سآخذك للسيرك. أيروقك؟».

---

(1) رواية للكاتب الإنجليزي لويس كارول نشرت سنة 1871، عنوانها الأصلي هو *Through the Looking-Glass, and What Alice Found There*، وهي امتداد لـ«مغامرات أليس في بلاد العجائب». تنام أليس على أريكة في الصالون، وتحلم بأنّها عبرت إلى الجانب الآخر من المرآة لتكتشف عالماً غريباً مخالفاً للعالم الواقعي (المترجم).

أذهلني عرضها. لطالما حلمتُ بالذهاب إلى السيرك، لكن الفرصة لم تواتني قط.

صحت: «بالطبع يروقني!» لم أحلم بأجمل من ذلك اليوم.

مع مرور الأيام، لاحظت أن الخالة كاترين كانت تسعد غاية السعادة بإمتاع أسرتها، وتخيّلت أنّني فرد من أفراد تلك الأسرة. في البداية كان ابنها «روي» الذي يكبرني بسنة واحدة، وابنتها هازيل التي تكبرني بخمس سنوات، يتجاهلاني تماماً. لم يُعرني «روي» أيّ اهتمام لأنني لم أكن قد استعدتُ قوتي كاملة لكي ألعب معه. أما هازيل، فكان فارق السن بيني وبينها كبيراً. لهذا دهشت وسعدت لما اقترحَت عليّ بعد أسبوعين من وصولي، أن تُريني حصانها. كانت مولعة بالخيل، اعتادت على ركوبها منذ طفولتها المبكّرة. كانت تملك في البداية فرساً قزماً، ولمّا كبرت أهداها والداها حصاناً بمناسبة عيد ميلادها الخامس عشر، وهي مزهوّة به.

قالت لي إنّه حصان خصيّ، كُميت اللون، يرتفع عن الأرض بمتر واثنين وأربعين سنتمتراً. أدركت من خلال كلامهما أنّها تحبّه حبّي لجودي، لكنّها مقتنعة بأنّ الحصان أنفع من الكلب. يستطيع الإنسان أن يتكلّم مع الكلب، لكنّه لا يستطيع امتطاءه شأن الحصان.

أعطتنا الخالة كاترين حزمة جزر للحصان، وطلبت من هازيل ألا تأخذني بعيداً عن البيت. تبعتها حتّى بلغنا الحقول. اقترب منّا حصان كميت، أكبر من أفراس كولداراغ، فشرحَت لي هازيل أنّ عليّ أن أمدّ يدي وأبسط كفّي لكي أطعمه الجزر. وقد ابتهجتُ كثيراً وأنا أشعر بأنفاسه الساخنة في كفي، وزادت ثقتي لمّا سمح لي بمداعبته.

سرَجته هازيل، وعرضت عليّ ركوبه، فأجبت بلا تردّد بأنّ ذلك يسعدني. مهما يكن فقد حُظِر عليّ كثرة المشي لا ركوب الخيل.

وجدتُ صعوبة في الاعتماد على ركاب السرج، لكنّني تمكّنت في الأخير من امتطاء صهوته بينما أمسكته هازيل برباطة جأش. وبدت لي الأرض فجأة بعيدة، فقرّرتُ أن أنظر إلى الأمام وأنا أمسك بالزمام. شرع الحصان في السير فزادت ثقتي بنفسي، وهمزته بكعبي في خاصرته همزة خفيفة كما رأيت بعض الفرسان يفعلون، فانطلق، وبينما كنت أحاول أن أتكيّف مع إيقاعه المتسارع، شرع يعدو. بدأت عيناي تدمعان من شدّة الريح، وأخذ بصري يلتبس، وسرعان ما استحال حماسي إلى هلع بعدما شعرت بأنّني فقدت السيطرة على الحصان. وسمعت هازيل تناديه وهو يدور حول الحقل خبباً، وتطلّب منّي الأمر أن أشدّ الزمام، لكنني كنت أصارع من أجل التشبث بظهره وتلافي السقوط.

ثمّ عاد فجأة، بابتهاج ظاهر، إلى الوراء، فإذا بي أنخلع من مكاني وأنقذف إلى الأمام. بقيت مستلقية على الأرض وقد انقطعت أنفاسي وأصابني الدوار، رجلاي منفرجتان وعيناي تحملقان من دون أن أبصر شيئاً.

أخرجني صوت هازيل المرتعب من غشيتي، ودفعني تقديري البالغ لها إلى إخفاء آلامي واستعادة رشدي. انتظرت ببسالة أن يفارقني الدوار ثم نهضت بلطف. استرجعت هازيل هدوءها وتنفّست الصعداء لا سيما حين أيقنت أنها لن تضطرّ لأن تشرح لوالديها كيف كسرت ذراعي أو ساقي.

ولشدّ ما كانت دهشتي كبيرة لما بادرتني قائلة: «عليك أن تركبيه من جديد، إنْ لم تفعلي الآن، فلن تركبيه أبداً، سيلازمك الخوف!».

نظرتُ إلى الحصان. كان يمضغ بوداعة ما بقي من جزر من

دون أن تظهر عليه الحسرة على السقطة التي تسبّب لي فيها. كان يبدو كالعملاق. قالت لي هازيل إنّها ستمسك اللجام حتّى تطمئنني، لكنّني لم أصدّقها تماماً، ومع ذلك ركبتُه. ذلك أن التبجيل الذي نكنّه لبعض الأشخاص يمكن أن يدفعنا إلى إبداء بسالة غير متوقعة. وقد أتت تلك البسالة أُكلها، إذ تواطأنا بصمت على السكوت عن تلك الواقعة، وعدم إخبار الخالة كاترين بها، وهو ما كان إعلاناً عن ميلاد صداقتنا.

أمضيتُ صيفاً هادئاً في ذلك المنزل الكبير بـ«كينت». لم أكن أستطيع الخروج مثل روي وهازيل، لأنني كنت في نقاهة. أقضي نهاراتي في القراءة بالحديقة أو في مساعدة الخالة كاترين في المطبخ. تعوّدت على أن أراها كلّ صباح تخرج آلة الخياطة وتضعها على المائدة الخشبية الكبيرة، وتشرع في خياطة ملابس لكل أفراد الأسرة، تُخرجها كما يخرج الساحر الأشياء من قبعته. وقد كانت فساتيني أوّل ما أخرجت. كنت أقف قربها وأروح أراقبها وهي تخيط أجزاء الثوب، واضعة دبابيس بين شفتيها، وشريط القياس في يدها إلى أن تفرغ من الخياطة، ولا يفضُل غير رتق الحاشية، وهو ما تقوم به يدوياً في المساء.

كان إفطارنا خفيفاً في المطبخ، لكن العشاء يُقدّم في غرفة الأكل.

لمّا يحين وقت تحضير طعام العشاء، كانت الخالة كاترين تخلّص المائدة من آلة الخياطة، فأساعدها في تقشير البطاطس، وتقطيع الخضار لتهييء الحساء العائلي اللذيذ الذي كانت تحضّره كلّ مساء باستثناء يوم الاثنين، إذْ كنّا نكتفي في هذا اليوم بتقطيع بقايا شواء الأحد ونأكلها مصحوبة بالبطاطس المهروسة والخيار المخلّل.

كان العم سيسيل، زوج الخالة كاترين، رجلاً فارع الطول، نحيفاً ودائم البسمة، ذا عينين متألقتين، يشتغل في إدارة وكالة بنكية. لمّا كان يعود إلى البيت يترك بذلته المخططة ليرتدي لباساً مريحاً عبارة عن سروال قطيفة وقميص وسترة جلدية، ثمّ يجلس مسترخياً مع الخالة كاترين يرتشفان كأس نبيذ. وقد كان هذا طقساً من طقوسهما اليومية.

بعد الفراغ من الكأس الثاني، يجلس الجميع إلى المائدة، وتسهر الخالة كاترين على تقديم الطعام. كثيراً ما كان يسأل زوجته وأولاده عن يومهم. أمّا أنا فكان يسألني عن صحّتي ويقول إنّ حالي إلى تحسّن.

كثيراً ما كنا نلعب الورق جماعة بعد أن نزيل أواني الأكل وننظّف المائدة، ثمّ نستحم وننام. سُمح لي بالقراءة لمدّة نصف ساعة قبل النوم، ثمّ تأتي الخالة كاترين لتسوّي غطائي وتتمنى لي ليلة سعيدة. فأنام قريرة العين وقد حصلتُ على قبلة الليل.

وحلّ يوم ذهابنا إلى السيرك. لبستُ فستاني الجديد ذا اللونين الأبيض والوردي، وسترة صوفية بيضاء، وصعدتُ إلى المقعد الخلفي من السيارة بجانب روي الذي ارتدى سروالاً رمادياً وسترة زرقاء داكنة. بدا لامبالياً، أمّا أنا فلم أخفِ حماسي.

اصطفّ عشرات الأطفال أمام خيمة السيرك المُضاءة ممسكين بأيدي آبائهم. وما كدنا ندخل الخيمة حتى فغمت أنوفنا رائحة نشارة الخشب. جلست على أحد المدارج وقد غمرتني سعادة عارمة. شرع العرض ببهلوانات صبغوا وجوههم تتبعهم كلاب بيضاء وسوداء تفيض حيوية، في أعناقها أطواق بيضاء. وفي نهاية عرضها، جلس كلّ منها على مقعد صغير مطالبة بما تستحق من تصفيقات. رأيت من

حولي أطفالاً تورّدت خدودهم من الإثارة، يحدّقون بعيون واسعة في البهلوانات الذين عادوا إلى الحلبة. ثمّ ضجّ الجمع لمّا ظهرت النمور. كنت أحاول أن أرفع رأسي ما استطعتُ لكي لا يفوتني شيء. شاركت الأطفال حماسهم، وحبستُ أنفاسي معهم حين قفزت تلك الحيوانات المهيبة من خلال حلقة مشتعلة. وصفقت بحرارة لما انحنى المروّض أمام الجمهور المبهور. ثمّ جاء دور أصحاب الحركات البهلوانية، فخيّم الصمت داخل الخيمة، تتخلله بين الفينة والأخرى صرخات تعجب من الحركات الخطيرة التي يؤدونها في الهواء.

ثمّ دخلت الفيلة إلى الحلبة مصطفّة، يمسك خرطوم كل منها بذنب مَن يسبقه، إلى أنْ لاح آخرها. ولمّا جلست تلك الحيوانات الضخمة على الكراسي عند نهاية وصلتها، خشيت من أن تتكسّر تحت وزنها الهائل. ثمّ ظهر المهرجون للمرّة الأخيرة ليعلنوا عن نهاية العرض. شقّت عليّ مغادرة مقعدي وقد غمرتني سعادة كبيرة، وشعرت كما لو أنّني داخل فقاعة سحرية لا يمكن أن يتمتّع بها المرء إلّا في طفولته. حين أقدمت على توقيع عريضة تطالب بمنع استغلال الحيوانات في السيرك بعد سنوات من ذلك، كانت ذكرى هذه الأمسية العجيبة لا تزال حيّة في ذاكرتي يخالطها حنين مشوب بالندم.

بعد أسبوعين من ذلك، أعلنت لي الخالة كاترين خبراً حسبت أنه سيسرني، وهو أن والديّ سيأتيان في عطلة نهاية الأسبوع ليأخذاني إلى المشفى لإجراء بعض الفحوصات. فإذا ثبتَ أنّ كل شيء على ما يرام، عدتُ إلى المدرسة.

خالجني شعور ملتبس. كنت مشتاقة من ناحية لأمّي وجودي،

لكنني من ناحية أخرى كنت قد اعتدتُ على هذه الحياة الجديدة في أسرة سعيدة صرتُ فرداً من أفرادها. ابتسمت إرضاءً للخالة كاترين، وقلت لها إنّني سأشتاقها، وأنّني متلهّفة طبعاً للقاء والديّ.

وحلَّت عطلة نهاية الأسبوع، وسمعتُ هدير سيارتهما، فالتحقتُ بالخالة كاترين لكي نستقبلهما عند باب البيت. تبادلنا العناق والقبل، ودُهِشا لحالتي الصحية الجيدة. سوّت أمّي في تلك الليلة غطائي وقبّلتني، وهي قبلة ظللتُ أحسّ بحرارتها على خدّي لفترة طويلة. ونمت وأنا أتساءل عما يخبّئه لي الأسبوع الموالي.

16

أتت الفحوصات مطمئنة، وقالوا إنّ حالتي الصحية تسمح باستئناف الدراسة باستثناء حصص التربية البدنية التي كنت لا أزال أضعف من أن أتحمّلها، وهو أمرٌ سررتُ له، لأن الشهرة في مدرستي لم تكتسب بما يبديه المرء من براعة في الحساب، بل بما يظهره من تفوّق في ميدان الهوكي أو الجمباز، وقدراتي فيهما متواضعة. هكذا وجدتُ ذرائع مكينة لكي أفلت من هذه الحصص التي كنت أبدو فيها مثيرة للضحك.

أخذت أمّي إجازة من أسبوعين بمناسبة عودتي إلى البيت، ولشدّ ما كانت سعادتي لمّا كنت أعود من المدرسة فتستقبلني بالشاي والكعك الساخن. أمّا الجمعة فتهيء لي كعك القهوة المفضل لدي، لكن ما كان يدخل البهجة على قلبي أكثر هو خلوّي إليها واستئثاري بها، وحديثي معها بعيداً عن نظرات أبي المُتلصّصة.

بعدما كنت أفرغ من الطعام، ألعب مع جودي قليلاً ثمّ أجلس في المطبخ لأنجز واجباتي التي صارت أطول مع تقدّمي في الدراسة، ولاستدراك ما فاتني خلال غيبتي في الفصل السابق. أمّا أمّي فتنشغل بإعداد العشاء، وكم تمنّيت لو تطول لحظات الهناء تلك إلى الأبد.

في هذه الفترة قرّ قراري على مقاومة نزوات أبي حين تعود أمّي إلى العمل. كان من اللازم أن أواجهه بأنّني أدرك حقيقة ما يفعل بي. بطبيعة الحال لم أرضَ أبداً بما كنت أتعرّض له، وأنني إنّما كنت أطاوعه خوفاً. الآن بعد أن أمضيت ستة أسابيع في كنف أسرة سعيدة، بتّ أقدّر خطورة أفعاله. كنت أعرف بالفطرة أنّ «سرّنا» لا ينبغي أن يطّلع عليه أحد، وأنه أمرٌ مخزٍ، لكنّني كنت أصغر من أن أدرك أنّ أبي هو من ينبغي أن يشعر بالخزي لا أنا. كنت أظنّ أنّني إن أطلعتُ من يحيطون بي على ذلك، سيكفّون عن النظر إلي باعتباري فتاة عادية، وسيلقون عليّ باللائمة.

عند نهاية عطلة أمّي، ظهر من جديد الأب البشوش. عاد إلى البيت تعلو وجهه ابتسامة عريضة، تفوح منه رائحة ويسكي خفيفة. حاولت الحفاظ على هدوئي لمّا داعب ذقني ووضع يده على وجنتي.

«لدي هدية لك يا أنطوانيت»، وراح يفكّ أزرار معطفه العلوية كاشفاً عن كرة شعر رمادية بدت كما لو أنها عالقة بقميصه الصوفي، ثمّ وضعها بين ذراعي. التصق بي ذلك الجسم الدافئ، وراح يخرخر، فأصابني الذهول: إنّه هُرير.

«لمّا لمحته في المتجر، قلتُ في نفسي سأشتريه لابنتي الصغيرة». وجال في خاطري أنّ الأب اللطيف ما زال موجوداً بعد أن حسبتُ أنه اختفى. وابتسمتُ له بلطف. سمّيت الهرير أوسكار، وهيّأتْ له أمّي مأوى من صندوق كرتون ومزقة من غطاء قديم. أمّا جودي فراحت تدور حوله بفضول. وفي صباح اليوم الموالي، وجدتُ أوسكار متكوّماً فوق خاصرة جودي وهي غير عابئة به.

عاد أبي خلال هذا الأسبوع إلى العمل ليلاً، وبذلك صرتُ

أجده بانتظاري في البيت عند العودة من المدرسة. صمّمتُ على تنفيذ ما عزمت عليه وواجهته بالرفض، ابتسم وغمز لي بعينه غمزته المعهودة.

«لكن ذلك يروقك يا أنطوانيت، هذا ما اعترفتِ لي به، ألا تذكرين؟ لا أظنّك كذبت على أبيك، أليس كذلك؟».

وبدأ الفخ يطبق عليّ، فإنْ اعترفتُ بالكذب عليه، ضربني. وبقيت متسمّرة قبالته لا أعرف جواباً.

ثمّ تكدّر بمزاجه فجأة فقال آمراً: «اذهبي وهيّئي الشاي لأبيك العجوز»، فاختفيت. وبينما كان يشرب شايه، نظر إليّ نظرة غريبة لم تكن تنذر بخير.

«هل تعلمين يا أنطوانيت أنّني أفعل ذلك مع أمّك. نفعله دائماً». وحدّقتُ فيه مرعوبة غير قادرة على تحويل بصري عن عينيه الخبيثتين. «أما زلتِ لا تعرفين كيف يُصنع الأطفال؟».

لم أكُن أعرف، لكنني فهمت بسرعة. بدا كما لو أنه يستمتع بتقزّزي. وتذكّرت كل النساء الحوامل اللواتي عرفتهن، واللواتي كنّ فرحات بحملهن، فغشيني شعور بالغثيان لفكرة مشاركتهن في فعلٍ شنيع كهذا. وقلت في نفسي: أقامت الخالة التي أحببتها بهذا الفعل مرّتين على الأقل؟! وأمّي، أفعلت ذلك هي أيضاً؟ كيف أقدَمَتا على فعل ذلك؟! ازدحمت الأفكار في رأسي، وتملّكني خوف لم أشعر بمثله قط. لقد تغيّر في ذلك اليوم تصوري لعالم البالغين كلّه، وتلاشت ثقتي بهم، وأحسستُ بأنّي وحيدة وتائهة، تنهشني الهواجس والشكوك.

حاول إقناعي بأنّني لن أحمل منه، كما لو أنّ هذا هو هاجسي الوحيد، لكنني أصررتُ على الرفض، فمضى يسخر مني:

«دعيني أقول لك شيئاً يا أنطوانيت، أمك تحب هذا»، وحين سئم، هزّ كتفيه وانصرف.

أربِحتُ الجولة الأولى؟ لم يكن الأمر بالصعوبة التي كنت أتصوّر.

كلا، كلّ ما حقّقت لا يتجاوز فوزاً متواضعاً، ليس حتى انتصاراً في معركة. كان ذلك إيذاناً بالحرب. بعد خروجي من المدرسة في اليوم الموالي، قصدتُ مكتب أمّي. كنت أرغب في أن أفاجئها، وأهرب ممّا كان يسبّبه لي من عذاب، عذاب كلّفني ليلة لم يغمض لي فيها جفن، قضيتها أتقلّب في فراشي. حاصرتني الهواجس، وكلّما حاولت طردها، زادت إلحاحاً.

هتفت أمّي لما رأتني، وأومأت لي بالجلوس لكي أنتظرها قليلاً: «يا لها من مفاجأة سارّة يا حبيبتي!» أنهت عملها، ثمّ ابتسمت لي ابتسامة عريضة وقدّمتني لزميلاتها متقمّصة دور الأمّ الفخورة بابنتها، ثمّ طوّقت كتفي بذراعها وغادرنا المكتب.

وجدنا أبي بانتظارنا عند باب البناية. لمّا لاحظ تأخّري توقّع أنّني ذهبتُ إلى مقرّ عمل أمي، فسارع إلى اللحاق بنا. قال لأمّي إنّه رأى فيلماً سيعجبها، وقرّر مرافقتها إلى السينما. ظننت أنّ الدعوة تشملني أنا أيضاً، ففرحت.

سألني وهو يعرف الجواب: «هل أنجزتِ واجباتك يا أنطوانيت؟

- كلا

- عودي إلى المنزل إذن. أمّا أنا وأمّك، فسنلحق بك فيما بعد. لو أنك عدت من المدرسة إلى البيت فوراً لكنّا اصطحبناك معنا».

قال ذلك وهو يبتسم، وفهمت أنّ تلك الابتسامة تشي بالانتصار.

أضافت أمّي: «لا بأس يا عزيزتي. سنصطحبك في مناسبة قادمة. حضري شيئاً تأكلينه، وأنجزي كل واجباتك».

وما هي إلّا ثلاثة أيّام حتّى عثرت على أوسكار مستلقياً في سلة جودي بلا حراك. عرفت أنّه ميت حتّى قبل أن أحمله بين ذراعي. كان عنقه ملوياً وجسمه متصلباً، ونظرت إلى أبي يائسة.

قال موضّحاً: «لعله كسر عنقه وهو يلعب مع جودي». لكنّني لم أصدق شيئاً من ذلك.

بينما كنت أفكر في هذه الواقعة بعد مضيّ سنوات، قلت في نفسي قد لا يكون هو من قتل أوسكار، فأنا لم أره يؤذي حيواناً قط. لعلّها المرة الوحيدة التي اتهمته فيها خطأً. ومهما يكن فإن تلك الواقعة صدمتني، ولم يتوانَ هو في استغلال ضعفي. أمسك بيدي وقادني إلى غرفته.

أجهشتُ بالبكاء، فمدّ لي زجاجة صغيرة، وطلب منّي بنبرة تشي بلطف مفتعل أن أشرب جرعة. ألهب السائل حلقي، وأحسستُ بما يشبه الاختناق، ثمّ شعرتُ بحرارة ممتعة تسري في أوصالي. هكذا اكتشفتُ وأنا في سن الثانية عشرة كيف يستطيع الكحول تخفيف المعاناة، فاتّخذته رفيقاً. ولم أتنبّه إلى أن تلك الرُّفقة قد تتحوّل إلى جحيم إلّا بعد سنوات من ذلك.

استيقظت وأنا واثقة من أن شيئاً جميلاً سيحدث. ومضى عقلي الوسنان يبحث عمّا هو، ثمّ اجتاحتني بغتة رعشة من الإثارة: ستصل جدّتي الإنجليزية ذلك اليوم. كانت ستقضي معنا بضعة أسابيع.

سأجدها كلّ يوم في البيت عند عودتي من المدرسة، وبذلك لن يجرؤ على الاقتراب منّي. كنت أعلم أنّ الأب الودود سيعاود الظهور خلال فترة إقامتها، وأنّ أمّي ستعود إلى لعبة الأسرة السعيدة.

شعرت بمتعة كبيرة وأنا أفكّر فيما سأنعم به من حرية طيلة الأسابيع اللاحقة، ثمّ ارتديتُ ملابسي على مضض لأذهب إلى المدرسة. وددتُ لو أبقى في البيت لكي أستقبلها، لكنّ أبي هو مَن تكلّف بذلك. وإذا كانت هذه الزيارة مرادفة للحرية بالنسبة إليّ، فإنها كانت بعكس ذلك تماماً بالنسبة إليه. وقد كانت لهذه الزيارة مزية أخرى: ستتغيّر أوقات عمله من الليل إلى النهار، وهو ما يعني أنني لن ألقاه كثيراً.

مرّت الساعات في المدرسة بطيئة ذلك اليوم على غير العادة، ووجدتُ صعوبة كبيرة في التركيز. وما إن رنّ الجرس، حتى انطلقت إلى البيت متلهّفة للقاء جدتي.

ناديتُ عليها وأنا أفتح الباب، فهبّت للقائي وقد فتحت ذراعيها لتضمّني، وعلت وجهها ابتسامة لطيفة.

كانت الصورة التي اختزنتها ذاكرتي عنها هي أنّها امرأة طويلة القامة، مستقيمة القوام، تلبس الكعب الطويل، لكنّني تفاجأتُ وأنا أقبّلها بأنّها قصيرة. والحقيقة أنني كنت في ذلك السن أكاد أفوقها طولاً

وبينما كنّا نتناول الشاي في المطبخ، رحتُ أتأمل وجهها من خلال سحابة الدخان التي تلفّها على الدوام. ذلك بأنّ السيجارة لم تكن تفارق شفتيها. وقد كنت أنظر إليها وأنا صغيرة بافتتان وأقول في نفسي لا بدّ أن تنهار يوماً، لكنها لم تنهر أبداً.

كانت آخر مرّة زارتنا فيها قبل أشهر، ولاحظت على بشرتها

الشفافة تغضنات صغيرة جديدة، كمّا أنّ النيكوتين صبغ بالأصفر خصلة من شعرها الأحمر. أمطرتني بأسئلة عن صحّتي وعن المدرسة وما أنوي فعله في المستقبل.

طمأنتها على صحّتي، وقلت لها إنّني شفيت تماماً، رغم أنّ الرياضة ما زالت محظورة عليّ. أسررتُ لها أيضاً بأنّني غير مرتاحة في مدرستي، لكنّني أحصل على علامات جيدة. وبحتُ لها برغبتي في الالتحاق بالجامعة لأصير أستاذة للغة الإنجليزية.

تحدّثنا لساعة ونحن نتناول الشاي. وبينما كنت أنظر إليها وهي تحمل الفنجان إلى فمها، تذكرت أنّها كانت تكرّر لأمّي باستمرار أنّ الشاي لا يُشرب إلّا في فنجان من الخزف الناعم. وكم كانت أمّي تغضب لما تُخرج فنجانها من حقيبتها!

كانت أناقة هذا الفنجان تأسرني. لمّا عرّضتْه لأول مرة للضوء لألاحظ دقّته، شُدهت لظهور أصابعها من خلاله، وتساءلتُ كيف أنّه لم ينكسر من فرط ما سكب فيه من شاي غليان طيلة سنوات.

خلال إقامة جدّتي معنا، أخذ والداي يتصرّفان كما لو أنّهما استأجرا حاضنة أطفال. تضاعفت خرجاتهما إلى السينما. لم أخبرها بأنّهما كثيراً ما يخرجان ويتركاني بمفردي في البيت. كانا يمطراني قبل خروجهما بوابل من التعليمات: أنجزي واجباتك وكوني عاقلة، واذهبي إلى فراشك لمّا تطلب منك جدتك ذلك، ثمّ تطبع أمي قبلة لطيفة على خدي، وتقول لي بنبرة مرحة: «نلتقي صباحاً يا عزيزتي». لمّا أخلو بجدتي، نتبادل النظرات، وأتساءل عن رأيها في قلّة اهتمام والديّ بي بينما تتساءل هي عن تأثير ذلك عليّ.

كنا نزجّي الوقت في تلك الليالي في لعب الورق، ذلك بأن ألعاب الأطفال لم تعُد تروقني، لا سيما أنّني بدأت أتقن لعبة

«الويست»[1] و«الجين رومي»[1] وفي ليالي أخرى كنّا نلعب المونوبولي أو بعض ألعاب الطاولة الأخرى. كان الوقت يمر بسرعة وأنا مستغرقة في اللعب بصمت، مصمّمة على الانتصار. ولم تكن جدتي تقلّ عنّي تصميماً على الفوز وهي تنظر من خلال سحابة الدخان التي تلازمها.

وسرعان ما كان يحين وقت النوم، فنشرب آخر فنجان شاي، ثمّ أصعد إلى غرفتي. كانت تسمح لي بنصف ساعة من القراءة قبل أن تأتي لتقبّلني وتتمنى لي ليلة سعيدة. كنت شغوفة بعطر البودرة والليلك المنبعثين منها، واللذين كانت تحجبهما لسنوات عديدة رائحة التبغ.

لم أشهد استنكارها الصريح لتصرّفات والديّ إلا مرّة واحدة. كانا يستعدّان للخروج كدأبهما كل المساء، ولمّحا للفيلم المعروض في السينما: فيلم نورمان ويسدوم الذي حدّثتني عنه فتيات صفي، وكنت أتوق لمشاهدته أنا أيضاً. لعلّ رغبتي في مرافقتهما كانت بادية على وجهي، لكن لم يلحظها أحد سوى جدتي، فهبّت لنصرتي.

قالت لأمي: «إنّه فيلم يناسب الكبار والصغار. وأنا أستطيع البقاء في البيت بمفردي. لماذا لا ترافقكما أنطوانيت، لا سيما أنّ غداً يوم عطلة؟».

---

(1) لعبة الويست لعبة ورق إنجليزية قديمة هي أصل لعبة البريدج المعروفة. ويلعب الويست، على شاكلة البريدج، بـ 52 ورقة مقسَّمة إلى أربع مجموعات، لكلّ منها نقش واحد: الديناري والأسود والهارتو والشيريا. بينما يعتبر الواحد هو أكبر ورقة، والاثنين هي الأصغر (المترجم).

(1) لعبة ورق قريبة من الويست، يلعبها لاعبان، وهي تتألف من اثنتين وخمسين ورقة (المترجم).

تسمّرت أمّي في مكانها لبرهة قبل أن تستجمع أفكارها وتجيب بلطف: «ليس هذه المرّة، لديها واجبات مدرسية»، ثمّ التفتت إليّ وقطعت على نفسها وعداً لم أعُد أصدقه: «في المرة القادمة يا عزيزتي». قالتها بنبرة مواسية وهي تمسح على رأسي، ثمّ غادرت.

سمعتُ جدتي تغمغم: «هذا ليس عدلاً، كان الرب في عونك يا أنطوانيت!» ومضت لإعداد الشاي.

كان عليها إبداء تلك الملاحظة ليقضي والداي الليلة اللاحقة في البيت. لحقَت بي أمّي في غرفتي، غطّتني وتمنّت لي ليلة سعيدة. جلستْ على حافّة سريري وقد تقمّصتْ دور الأم الحنون وقالت:

«أخبرتني جدتك بأنّك أصبتِ بالخيبة لأننا لم نصطحبك معنا إلى السينما ليلة البارحة، لكنّك تعلمين أنّنا لا نستطيع أن نأخذك معنا حيثما ذهبنا. ثمّ إنني ظننتُ أن صحبة جدتك تسعدك. فهي إنّما قدمت من أجلك».

غمغمت:

- لكنها قدمت لزيارتنا جميعاً.

- كلا يا حبيبتي، لطالما فضّلت أخي لأنّ زوجته تشبهها تماماً! اسمعي يا عزيزتي، لولاك لما قدِمَت، ولما لقيتها. وبذلك ستكونين أنانية إنْ أنت تركتها وحيدة، أليس كذلك؟

أجبت: « بلى». وماذا عساني أجيب؟!

ابتسمت لي راضية ثمّ قالت: «طيّب، لا أريد أن أسمع ثانية مثل هذه الترّهات، اتّفقنا يا عزيزتي؟» كانت واثقة بأنّها ستتلقى الجواب الذي يرضيها.

همست: «كلا»، لكنّها كانت قد انصرفت بعدما قبّلتني قبلة بالكاد لامست شفتاها خدّي. نمت وأنا أؤنّب نفسي على أنانيتي.

لمّا خرج والداي إلى السينما في المرّة اللاحقة، قُلت لجدّتي بأنّ فيلم نورمان ويسدوم هو الفيلم الوحيد الذي كنت أتوق لمشاهدته، وأنّ أمّي سترافقني للتفرّج عليه خلال العطلة. وأكّدت لها أنني مبتهجة برفقتها لأنّني أحبّها، وهو عين الحقيقة. عدا أنّني كنت مستاءة في قرارة نفسي من إقصائي. كان ذلك دليلاً على زهد والديّ في حبّي. ولا أحسب جدّتي كانت ساذجة، فهي إنما كانت تتظاهر بأنّها لم تلحظ شيئاً، وكنا نمضي أمسيات ممتعة في لعب الورق. لكنها لم تكن حاضرة البديهة كعادتها، لأنني كنت أنتصر عليها دائماً.

حضّرت لي ذلك المساء شوكولاتة ساخنة، وأعطتني قطعتَي بسكويت عوض واحدة، وفي اليوم الموالي وجدتها بانتظاري عند خروجي من المدرسة، وأخبرتني بأنّها قرّرت أن تصحبني إلى قاعة شاي بعد موافقة أمّي، على أن أنجز واجباتي في وقت لاحق.

أمسكتُ بيدها وأنا في غاية الابتهاج. كانت قد ارتدت أجمل معاطفها، ووضعت على رأسها قبعة بالغة الأناقة. وقد سعدت بأن يرى الأطفال أنّ لي جدّة رائعة ترعاني.

وفي اليوم الموالي، أثنى زملائي في المدرسة على أناقة أمّي. وقد أبهجني اندهاشهم لمّا علموا أنّ تلك المرأة الجميلة التي رأوني معها هي جدّتي لا أمي.

مرّت فترة إقامتها بيننا بسرعة البرق. ولمّا لاحظت اكتئابي صباح سفرها، وعدَتْني بالعودة. والواقع أنّها كانت تنوي العودة قبل عطلة الصيف، لكن تلك المدّة كانت بالنسبة إليّ دهراً! كانت عطلة عيد الفصح تقترب، وخشيت أن أقع من جديد بين براثن أبي. سيعود إلى العمل الليلي، فلن يصير بوسعي الإفلات منه.

17

كان التلاميذ في آخر يوم من الموسم الدراسي متحمّسين للحديث عن العطلة، ومضوا يستعرضون مشاريعهم خلال تلك الأيام التي سيتحررون فيها من المدرسة. وقد سرّني أنّهم لم يُشركوني في أحاديثهم، وإلّا ماذا كنت أقول؟

حشرت جدّتي يوم سفرها في راحتي بضعة أوراق نقدية، وطلبت منّي أن أشتري ما أشتهي. ولكي تتأكّد من أنني سأصرف تلك النقود، طلبت منّي أن أراسلها لأخبرها بمقتنياتي. قرّ قراري على شراء درّاجة، وكنت أعرف أين أجدها. فقد رأيتُ في متجر البقالة إعلاناً عن بيع دراجة بـ 2,50 جنيهاً. وتخيّلت نفسي أركب الدرّاجة متوجّهة إلى المدرسة في بداية الموسم الدراسي اللاحق.

بعد التأكد من أنّ الدراجة ما زالت معروضة للبيع، قصدتُ أوّل أيام العطلة العنوان المذكور في الإعلان، وأبرمتُ الصفقة في غضون دقائق، ثمّ انطلقتُ ظافرة على دراجتي. كانت العجلة الأمامية تترنّح وأنا أضغط بقدمي على الدواستين، لكنّني سرعان ما اعتدتُ عليها وعلى دواستها ذات السرعات الثلاث. غمرني شعور عارم بالحرية،

فقرّرت زيارة مدينة غيلدفورد المجاورة، واستكشاف أزقتها المرصّفة التي رأيتها لمّا كنت أرافق أمّي إلى الباص.

فضل لي بعض المال، فاقتنيتُ بعض الكتب المستعملة وعرّجت على مخبزة أمّي المفضلة. أسالت رائحة الخبز الساخن لعابي على الفور، فاشتريت الخبز الطازج الذي يروقها، وعدتُ به إلى البيت لنأكله مع الشاي.

كان برنامج العطلة في ذهني مرسوماً: النزهة مع جودي، وزيارة المكتبات لقضاء ساعات في تصفح الكتب ثمّ استكشاف الريف على دراجتي. وإذا ما تمكّنت من التخلّص من أشغال البيت خلال نوم أبي، استطعتُ الاختفاء قبل استيقاظه.

كنت أطلع أمّي كلّ مساء خلال العشاء على ما أنوي القيام به في اليوم الموالي، وهو ما كان يزعج أبي، لكن بما أنّني كنت أعدُها بجلب خبزها المفضَّل من غيلدفورد، لم تكُن تعترض. هذا ما كان يخيّل إليّ على الأقل.

في نهاية الأسبوع الأوّل، جازفتُ وعدت من غيلفورد في وقت متأخّر قليلاً بعد العصر. ووصلت إلى البيت وأنا مصمّمة على إخراج جودي لنزهتها المعتادة قبل تحضير الشاي لأمّي، لكنّني أصبتُ بالإحباط. ما كدتُ أدفع الباب حتى سمعت أبي يصرخ وقد استشاط غضباً:

- تعالي يا أنطوانيت.

تقدّمت منه مرعوبة.

صرخ والشرر يقدح من عينيه: «أين كنت؟ لقد مضت ساعة على استيقاظي وأنا أنتظر الشاي. عليك أن تقومي بنصيبك من أشغال هذا

البيت، هل سمعت يا أنطوانيت؟ يا لك من متوانية! اذهبي لتحضير الشاي بسرعة».

نزلتُ السلم في طرفة عين، ووضعتُ الغلاية على النار بيدٍ مرتعشة. كانت الساعة قد جاوزت الرابعة بعد الزوال، وأمّي ستعود في غضون ساعة، ممّا يعني أن الوقت كان متأخراً لكي يلمسني ذلك اليوم، لكنني كنت أعلم أنه إنما سيؤجّل ذلك إلى فرصة لاحقة.

وما كاد الماء يغلي حتّى حضرتُ له فنجاناً على عجل، ووضعتُ قطعة بسكويت في الصحن، ثمّ حملت له الصينية. وبينما هممتُ بالانصراف، أوقفني فجأة.

«إلى أين أنت ذاهبة؟ لم أتمم بعد».

شعرتُ بساقيّ لا يقويان على حملي. وقلتُ في نفسي لن يُقدم على فعلته وأمّي على وشك العودة.

«ناوليني سجائري، وسارعي بتحضير الشاي لأمك، ولا تحسبي أنك ستقضين الأمسية كلها خاملة».

أشعرتني نظرته بالهلع. فهو بالكاد يسيطر على غيظه.

ركب ذلك المساء درّاجتي للذهاب إلى عمله، متذرّعاً بأنّها ستمكّنه من تدارك تأخره. انطلق وهو يبتسم لنا ابتسامة عريضة ويغمز بعينه. ولم تعلّق أمّي بشيء.

عثرتُ على درّاجتي صباح اليوم الموالي في الفناء وقد مُزّقت عجلتها الأماميّة. وقد صادف ذلك ظهور علامات بلوغي.

رغم الألم المبرّح أسفل بطني، لزمتُ البيت ولم أذهب إلى المشفى بسبب غياب وسائل النقل. أمّا أبي، فلم يتوانَ عن إظهار سخطه على حرمانه من مُتعته. كان عليَّ أن أقوم بتنظيف البيت بكامله، ثم أصعد الأدراج مراراً لكي أحمل له فناجين الشاي. لا

أكاد أنزل الأدراج حتّى يناديني من جديد. الظاهر أنّه لم يكن متعباً، أو أنّ رغبته في تعذيبي كانت أقوى من رغبته في النوم. بهذا النحو قضيت الأسبوع الثاني من العطلة.

وفي الأسبوع الأخير عادت جدّتي لزيارتنا، فتغيّرت حياتي من جديد. جاءت لغاية محدّدة.

قالت لوالدي إنّني لست سعيدة في مدرستي، وأنّني لا أستطيع أن أقضي فيها ستّ سنوات أخرى، وإلّا فإنّني سأغادر الدراسة حتماً قبل بلوغ المرحلة الجامعية. قالت أيضاً إنّها شعرت بأنّ أبي لا يشعر بالارتياح في إنجلترا، وبذلك فهي ترغب في مساعدتنا للعودة إلى إيرلندا. المدارس الخاصة أرخص هناك، وهي مستعدّة لدفع تكاليف الدراسة من أجل أن أعود إلى مدرستي السابقة، بل ستدفع حتى ثمن الزيّ المدرسي. فقد لاحظت أنّني لا أملك أصدقاء هنا، وأن في إيرلندا على الأقل، توجد عائلة أبي الكبيرة.

كان أبي يرغب في العودة. فقد اشتاق إلى عائلته. فهو يحظى هناك بالإعجاب، وينظرون له كشخص ناجح، بينما تعتبره عائلة أمّي إنساناً جاهلاً

قبلت أمّي العرض وهي تأمل، كعادتها، أن تكون حياتها هناك أفضل. بِيْع المنزل على عجل، وأخرجت صناديق الشاي من جديد، ومع بداية الصيف انطلقت الأسرة في آخر سفرة لها مجتمعة.

أنا أيضاً كنت آمل أن يكون هذا السفر بداية حياة جديدة. فقد اشتقتُ لإيرلندا، وزيارات جدّتي كانت أقلّ من أن تعوّضني عن بؤس الحياة التي كنت أعيشها في إنجلترا. هكذا عدنا وكلّ منّا يعلّق آماله الخاصة على هذه العودة إلى كولراين.

خصّنا أهلنا الإيرلنديون باستقبال حار. وجدنا جدّتي تنتظرنا في الشارع وهي تبكي من الفرح. وبينما راحت أمّي، التي لم تكن ميّالة لإظهار مشاعرها أمام الملأ، تعانق جدتي عناقاً لا يخلو من تكلّف، انتحيتُ أنا جانباً بخجل. كنت أعلم بأنّ أمي ستسمّي بيتهم «كوخاً»، وستجتهد في المقارنة بين نمط حياتهم ونمط حياتها، لكن حرارتهم ولطفهم كانا في نظري أهمّ من فقرهم.

حين أتذكر الآن ذلك الصالون، يتراءى لي عبارة عن غرفة بالغة الضيق. كانت تدفّأ أكثر من اللازم. أما المائدة المغلّفة بأوراق الجرائد فتفوح فقراً. كما أنني فوجئت لما ذهبت إلى المراحيض بوجود لفّة من ورق الحمام، كنت أعلم أنّها إنّما وضعت هناك من أجلي أنا وأمّي، بينما يستعمل الآخرون أوراق الجرائد المقطّعة على شكل مربعات، والمعلّقة بمسمار على الجدار.

كانت عائلتي الإيرلندية تنظر إليّ بلا شكّ بوصفي نموذجاً مصغّراً من أمّي. فأنا أتحدّث مثلها وأجلس مثلها، ومتطبّعة منذ نعومة أظافري بطباع الطبقة الوسطى الإنجليزية. وعندما كبرتُ قليلاً، لعلّهم راحوا يبحثون عن ملامِح شَبَهٍ بيني وبين أبي، لكنهم لم يعثروا على شيء. كانوا يعتبرونني ابنة امرأة يقبلونها بينهم إكراماً لأبي، لكنّهم لا يعدونها واحدة منهم. وقد كانوا ينظرون إليّ النظرة نفسها، أيّ بوصفي ضيفة. أحبّوني احتراماً لأبي، لا لشخصي. ولعلّ هذا هو ما جعلهم لا يتروّوْن في القرار الذي اتّخذوه بعد سنتين من ذلك.

إنّها إيرلندا الشمالية في أواخر الخمسينيات. إقليم أولستير الذي كانت تُصبغ أرصفة مدنه الصغيرة الرمادية بالأبيض والأزرق والأحمر[1]، وتعلّق الأعلام بفخر في نوافذ بناياته.

---

(1) ألوان علم المملكة المتحدة (المترجم).

كان جميع رجال كولراين يرتدون السترات والقبعات السوداء بمناسبة مسيرة يوم البرتقال[1] وكان سكانها يقفون عند سماع النشيد الوطني رغم مَقتهم للإنجليز، ورغم أنّهم من البروتستانت المتشدّدين. وقد كانت إيرلندا الشمالية آنذاك غارقة في الأفكار المسبقة، وأهلها لا يعرفون تاريخهم حقّ المعرفة. ذلك أنّ بغضهم للإنجليز يعود إلى القرن التاسع عشر خلال أزمة البطاطس[1]، لكن أساتذة التاريخ لقّنوهم في المدارس أنّ معظم أجدادهم كانوا من الكاثوليك، وهم مدينون للحساء في بقائهم على قيد الحياة. فلولا ذلك الحساء الهزيل الذي قُدّم لهم نظير اعتناق البروتستانتية، لكان العديد منهم في حكم العدم، لكن مقتهم للكاثوليك كان أشدّ من مقتهم للإنجليز، لأنّ الكاثوليك الذين جرّدهم القانون البريطاني من حقوقهم، والذين كانوا يُعتبرون مواطنين من الدرجة الثانية، لهم تاريخ جدير بالفخر. في حين أنّ عائلات مثل عائلتنا، التي يتّصل نسبُها بزعماء العشائر الذين حكموا إيرلندا، وحموها من الغزاة، لم تكن لها مفاخر، لأنّها تنكّرت لأجدادها. وقد علمت خلال سنوات شبابي أنّ الدين ليست له علاقة وطيدة بالإيمان المسيحي.

لكن إيرلندا كانت كذلك من البلدان التي يعيش فيها الناس في جماعات صغيرة متآزرة. لمّا كان والدي طفلاً، كان الناس يقتسمون

---

(1) تجري مسيرة «تنظيم البرتقال البروتستانتي» كلّ صيف بإيرلندا الشمالية تخليداً لذكرى انتصار غيوم الثالث (1650-1702) على جاك الثاني خلال معركة بوين التي وقعت سنة 1690 (المترجم).

(1) تسببت هذه الأزمة في أواسط الأربعينيات من القرن التاسع عشر في مجاعة رهيبة بإيرلندا، أسفرت بدورها عن هجرة كبيرة إلى القارة الأميركية (المترجم).

في أوقات الشدّة الطعام مع المعدمين. وقد أدركتُ لاحقاً أنّ هذا البلد الذي عاش سنوات من الحرمان هو أيضاً بلدٌ يمكن لناسه أن يكونوا متضامنين، كما يمكن أن تحلّ فيه القسوة الشديدة فجأة محلّ اللطف والرقّة، لكن هذه الأمور لم تكن بادية بالنسبة إلى طفلة في الثانية عشرة من عمرها. كل ما أذكره هو أنّني شعرتُ بالسعادة في هذا البلد.

أدركت أنّ عائلتي لم تعُد تنظر إليّ نظرتها قبل ثلاث سنوات من ذلك، لكن حبّي لهم ظلّ ثابتاً. أُخبرت أنّني سأبقى أنا وجودي في بيت جدّي وجدّتي ريثما يعثُر والداي على مسكن، وهو ما سرّني كثيراً. أمّا أبي وأمّي، فسيستقرّان في بيت عمتي في بورتستيوارت، لأن بيت الجدين لم يكن يتّسع لنا جميعاً. هكذا غادر والداي فور تسجيلي في مدرستي السابقة، وكان عليّ أن أجد لي موقعاً في دروب البؤساء بحي كولراين الفقير.

كان الأطفال ودودين، وكان اختلافي يجعلهم أميل إلى الفضول منه إلى العدوانية. يرجع ذلك ربّما إلى أنهم كانوا يحلمون بمغادرة حيّهم ذات يوم بحثاً عن لقمة العيش بإنجلترا. فإنجلترا هي أرض كلّ الوعود في نظرهم، لذلك كانوا يُمطرونني بالأسئلة. هل الرواتب مرتفعة حقاً؟ والشغل، هل هو بالوفرة التي يزعمون؟ سيركبون فور مغادرتهم المدرسة أوّل باخرة إلى ليفربول، وقد يتجاوزها المغامرون منهم إلى لندن.

مرّت الأسابيع في كولراين بين حفاوة الأطفال وترحيب أفراد الأسرة من دون أن أنتبه لها. لم يكن جدّي وجدّتي يعترضان على أن أمضي النهار بكامله في اللعب بالخارج، كما لم يكونا يعترضان على أخذ جودي إلى الحديقة العامة ولعب الكريكت. وقد أظهرتُ موهبة

خاصة في رمي الكرة، حتّى أن أعضاء فريقي أعجبوا بطريقتي في اللعب مع أنّني أنثى.

أمضيتُ صيفاً سعيداً. لم أواجه فيه التوبيخ قطّ عند عودتي إلى البيت وقد لطخت ملابسي. ونسيتْ جودي فصيلتها، وتحوّلت إلى كلبة شوارع تلهو وتجري مع الكلاب المتشرّدة التي يحفل بها الحي.

وقد اشتقتُ للمدرسة، وكنت أتساءل ما إذا زميلاتي كنّ سيتعرّفن علي، وما إذا كنت سألتقي بالفتيات نفسهم.

اندمجتُ في المدرسة بسهولة. من المؤكد أنّني لم أكن الفتاة الأكثر شعبية في الفصل، لكنني نجحتُ في نيل تقدير الجميع.

قبيل حلول عيد ميلادي الثالث عشر، وبعد أسبوع على انطلاق الدراسة، جاء والداي في إثري. فقد استأجرا منزلاً من القطع المفكَّكة في بورتستيوارت، يستقران فيه ريثما يعثران على منزل يشتريانه.

18

رغم تحفّظ الأساتذة في تعاملهم معي - وهو أمر لم أعرف له سبباً، ربّما نظراً إلى اختلافي عن زملائي - نجحتُ في كسب احترامهم بفضل ما كنت أحصل عليه من علامات مرتفعة في كلّ المواد. كنت مصمّمة على متابعة دراستي في الجامعة بعد إتمام المرحلة الثانوية، لأنّ التعليم كان هو سبيلي الوحيد لنيل حريّتي. ولم يكن الأساتذة يعرفون شيئاً عن حوافزي الخفية، لكنهم كانوا يدركون طموحي.

قدّر الأطباء أنّني ما زلت ضعيفة لأستأنف الرياضة بعد العملية الجراحية، فكنتُ أقضي حصص التربية البدنية في مكتبة المؤسسة الغنية بمختلف أصناف الكتب. كنت حريصة على الحصول على علامات جيّدة، لأنّ ذلك هو الجانب الوحيد في حياتي الذي كنت أشعر بأنّني قادرة على التحكّم فيه.

كثيراً ما كانت السيدة جونستون، ناظرة المدرسة، تتردّد على الفصول. وكانت تدخّلاتها بنّاءة، تسعى لفتح أذهان التلاميذ بمختلف السبل. كانت تنصحنا بقراءة كتب بعينها، وتدفعنا إلى الاهتمام بالتاريخ والسياسة، لكنها كانت تشجّعنا أيضاً على

الإنصات للموسيقى، وتساعدنا على بناء مواقفنا، وتحثّنا على التعبير عنها.

أخبرتنا في بداية الموسم الدراسي بأنّ المؤسّسة ستنظم مسابقة. أُشهِرت على سبورة الإعلانات بفناء المدرسة قائمتان من المواضيع: الأولى موجّهة إلى التلاميذ الذين تقلّ أعمارهم عن أربع عشرة سنة، والثانية موجّهة لمن يكبرونهم. وقد منحونا الموسم الدراسي بكامله لكي نهيئ عرضاً في موضوع من اختبارنا نقدّمه شفهيّاً أمام التلاميذ ولجنة من الأساتذة. وسيكون من نصيب الفائز قسيمة يحصل بها على كتب، وهو ما زادني تحفيزاً.

اطّلعت خلال الاستراحة على المواضيع، لكن كلّ تلك المدونة في القائمة الأولى بدت لي سخيفة وصبيانية. فأنا لم أعد أقرأ كتب الأطفال منذ فترة طويلة. بالمقابل لفت انتباهي موضوع في القائمة الثانية، هو: التمييز العنصري في جنوب أفريقيا. فقد سبق لي أن اطَّلعت على موادّ بموسوعات حول أفريقيا، كما أنني مولعة بهذه القارّة.

ذهبت إلى إحدى رقيبات المدرسة لكي أستأذنها في معالجة هذا الموضوع، فشرحتْ لي بأناة أنني إن اخترتُ موضوعاً من القائمة الثانية، فسأجد نفسي أتنافس مع فتيات قد يكبرنني بخمس سنوات أو أكثر. غير أنّ صبرها نفد لمّا تماديت في الإلحاح، وأخبرتني بأنّها لن تسمح بأيّ تجاوز، فأجبتُها، وكلّي تصميم، بأنّني على اطِّلاع بهذا الموضوع.

نادت إذن على السيدة جونستون وأخبرتها بطلبي وهي تداري ضحكة خفية هازئة. فاجأها جواب الناظرة بأنني إنْ كنتُ مستعدّة للعمل والبحث خارج حصص الدرس، فهي لا تمانع.

سعدتُ بهذا النصر، وسررتُ بأن جرت الرياح، هذه المرة على الأقل، بما أشتهي. لكنّي خلقتُ لنفسي في ذلك اليوم، وهو أمر لم أتنبّه له إلّا لاحقاً، عدوّة ستنكّد عليّ طيلة تلك السنة الدراسية.

ما كدت أشرع في البحث حتى زاد ولعي بالموضوع. قرأتُ كيف جُلبَت اليد العاملة فور اكتشاف مناجم الذهب والألماس. وقررتُ أن أجعل منها نقطة انطلاق بحثي. كتبتُ أن الإنسان الأبيض لمّا اكتشف مناجم الذهب، تنبّه في الآن نفسه إلى أنّه مضطر لتقليب أطنان من التراب لكي ينتج أوقية من المعدن الثمين. فاستغلال المناجم يتطلّب يداً عاملة وفيرة ورخيصة، والسود يلبّون هذا المطلب، لكن كيف السبيل لتحفيزهم إلى العمل تحت الأرض كالدواب لساعات طوال وهم لا يعرفون للذهب قيمة؟ فقد كان اقتصادهم قائماً على المقايضة منذ قديم الزمان، ولا أهمية للمال عندهم. بناء على ذلك أصدرت الحكومة قانوناً يفرض ضرائب جديدة على سكان القرى. وبما أنّ البلاد، ومن ثمّة الذهب، لم يعُد في ملكية أصحاب الأرض، صار السود عاجزين عن أداء هذه الضرائب، ولم يعُد أمامهم سوى حلّ واحد: أن يشتغل رجالهم الذين يطيقون العمل في المناجم. وبهذا حيْل بين النساء وأزواجهنّ، والأطفال وآبائهم. كُدّس الرجال في الشاحنات، ثمّ حملتهم القطارات بعيداً عن بيوتهم بمئات الكيلومترات ليواجهوا مستقبلاً غامضاً.

كيف كان شعورهم؟ لم يعُد بإمكانهم الاستمتاع بأبنائهم وهم يكبرون، ولم يعودوا يستدفئون بابتسامات زوجاتهم، وينصتون إلى شيوخهم يقصّون عليهم أساطيرهم المنقولة جيلاً عن جيل، والتي تجعل من ثقافتهم تاريخاً حياً.

حُرموا من الاستمتاع بسماء أفريقيا مساء لمّا تميل الشمس إلى

الغروب مُضفية على الأفق لوناً بين الوردي الفاتح والبرتقالي أو الأحمر القاني.

لقد فقدوا ما كانت توفره لهم القرية من أمان وأخوة، ففقدت حياتهم معناها. صاروا يقضون نهارهم في العمل الخطير الشاق، وليلهم في عنابر بلا روح. لم تعُد جلبة القرية هي التي توقظهم عند الفجر، بل صراخ سادتهم.

وسرعان ما تلاشى الفخر الذي شعروا به يوم دخلوا طور الرجولة، وأدركوا أنهم صاروا «خدم» الإنسان الأبيض للأبد.

كنت كلّما أوغلتُ في القراءة عن هذا الموضوع، زادَت نقمتي على الميز العنصري الذي أقرّه البيض خدمة لمصالحهم. شرعوا بالاستيلاء على الأرض، ثمّ سيطروا على أصحابها وحرموهم جميع حرياتهم، من حرية الحركة إلى العيش وفق ثقافتهم وتقاليدهم. كانت هذه الأفكار والآراء هي سدى البحث الذي أنجزته وأنا ما أزال في الثالثة عشرة من عمري.

لماذا أغرمتُ بأرض كانت معرفتي بها محدودة للغاية؟ اتّضح بعد سنوات أنّني تماهيتُ مع الضحايا الذين استعبدهم الأوروبيون. لم تكن عجرفة تلك الطينة من الناس الذين يعتبرون أنفسهم أرقى الأعراق غريبة عنّي. وهم لا يختلفون عن الراشدين الذين يعدّون أنفسهم أسمى من الأطفال، ويتذرّعون بذلك للسيطرة عليهم، وسلبهم حريتهم، وإخضاعهم لنزواتهم.

كان سود أفريقيا الجنوبية يعتمدون في مأكلهم ومسكنهم مثلي على أناس يشتطّون في التنكيل بهم بدعوى أنّهم أقوى منهم. كثيراً ما يستعين الإنسان بالقسوة لحمل بني جنسه على الشعور بالعجز، لأنّ عجزهم يعزّز لديه الإحساس بالقوة والتفوّق.

كنت أتخيّل كيف أُجبِر أولئك الناس على طلب تراخيص لزيارة ذويهم في بلد هو بلدهم. لقد اضطهدهم السادة البيض وأذلوهم، ولا شكّ أنّ كراهيتهم لأولئك السادة لا تعادلها إلّا كراهيتي لأبي. كنت أتخيّل ما شعروا به من يأس وخزي، فأتماهى معهم، لكن مع فارق بيني وبينهم: أعيش أنا على أمل بلوغي سن الرشد، لأترك البيت، وألتحق ربّما بالجامعة، بينما عاشوا هم بلا أمل.

حلَّت نهاية الفصل الدراسي، ومعها يوم مناقشة بحوثنا. دخلتُ قاعة الاجتماع حيث جلس أعضاء اللجنة في جانبها الأيسر بزيّهم الأسود، وجلس تلاميذ جميع الأقسام في الجانب الأيمن قبالتي. كنت أرتدي تنورتي الخضراء الأنيقة وجوارب النيلون.

ارتقيتُ المنصة وأنا أمسك بالورقة التي دوّنت عليها عرضي. لم أكن أشعر بالراحة في تنورتي وحذائي الذي يبلغ الركبتين. كنت آخر من سيعرض لأنّني الأصغر سنّاً.

فتحتُ أوراقي بتوتّر، وقرأتُ الأسطر الأولى بصوت متهدّج، لكن فرط حماسي للموضوع هدّأ من روعي. ولمست بأنّني بدأتُ أكسب اهتمام الحضور بعد أن استقبلوني بلامبالاة في البداية. ورمقت بطرف عيني أعضاء اللجنة يشرئبّون برؤوسهم وهم يُنصتون. وحين قرأت آخر جملة من بحثي، ضجّت القاعة بالتصفيق، فوثقت بالظفر حتى قبل أن تتفوّه السيدة جونستون بالنتيجة.

مكثت على المنصة بضع ثوانٍ وقد ارتسمت على محيّاي ابتسامة عريضة. ولم تستطع نظرات الرقيبة الحاقدة أن تفسد عليّ فرحتي وفخري.

هنّأتني الناظرة بحرارة وهي تقدّم لي الجائزة، وبينما كنت أنزل

من المنصة، تضاعفت التصفيقات. لم يسبق لي أن عشت لحظة سارّة كتلك.

عُدت إلى البيت وأنا ما أزال متهلّلة، فوجدتُ جودي بانتظاري. كانت أوّل من حكيتُ له وقائع ما عشتُه ذلك اليوم.

لم أجد أبي في البيت رغم أنّه لم يكن يعمل ذلك اليوم. كنت أعلم أنّه لحق بأمّي في محلّ عملها كعادته في أيام عطلته. أنجزتُ إذن أعمالي المعتادة: لبست تنّورة قديمة وقميصاً صوفياً سميكاً وخرجتُ مع جودي، ثمّ أفرغتُ المدفأة من الرماد قبل أن أوقد النار. بعد ذلك غسلتُ الأواني التي استُعملت في اليوم السابق ووضعت الماء على النار ليسخن لتحضير الشاي لوالديّ.

بعد الفراغ من هذه الأشغال، أدخلت جودي، فاستلقَت عند قدمي بينما رحت أنجز واجباتي المدرسية في المطبخ. كنت في غاية الانفعال حتّى أنني وجدت صعوبة في التركيز. كنت متلهّفة لإخبار أمي، وتخيّلتها تطير فرحاً وتحضنني بين ذراعيها كما لم تفعل منذ فترة طويلة.

حين سمعتُ هدير السيارة، سارعت إلى صبّ الماء في الإبريق، وما كاد والداي يتخطّيان عتبة البيت حتى شرعتُ أحكي لهما عن نجاحي الباهر.

«فزت بالجائزة يا ماما، احتلّ بحثي الرتبة الأولى في المدرسة بأسرها!».

اكتفت أمّي بأن أجابت وهي تجلس لتشرب الشاي: «هذا أمر جيّد يا عزيزتي».

سأل أبي: «عن أيّ جائزة تتحدّثين؟».

قلت بصوت أقرب إلى التمتمة: «العرض الذي قدمته عن الميز العنصري في أفريقيا الجنوبية».

تلاشى حماسي أمام نظراته القاسية. ثمّ سأل: «وما هذه الجائزة؟».

أجبت وأنا أعرف جوابه مسبقاً: «قسيمة كتب».

فقال: «حسناً، سلّميها لأمك لكي تستبدلها بكتب مدرسية. لقد كبرت الآن، من الطبيعي أن تساهمي بحظك في المصاريف».

وبينما رحت أحدّق فيه وأنا أجهد نفسي لإخفاء بغضي له، لأنّه لم يكن يمثل بالنسبة إليّ الأب، بل الشرّير المتسلّط، رأيتُ أمي تبارك تسلّطه بصمتها. نظرتُ إلى سحنته المتغطرسة فشعرت فجأة بموجة كراهية شلّت حركتي. ووجدت نفسي أتضرّع للرّب، الذي لم أعد أؤمن به، من أجل أن يموت.

وتمثّلت في ذهني صورة عابرة لا أثر لأبي فيها، ننعم فيها أنا وأمّي بحياة سعيدة. فقد كنت لا أزال أعتقد أنّه هو مَن يتحكّم في حركاتها وسكناتها، وأحسب أنّ حياتها ستكون أفضل من دونه، لكن لمّا التفتُّ إليها، لمحتها تبسم له ابتسامة ودود لم أحظَ بمثلها قط.

هكذا فهمت أخيراً أنها لم تكن مُكرهة على البقاء معه، بل اختارت ذلك طواعية. وأدركتُ فجأة أنّها مستعدّة للتضحية بكلّ شيء من أجل إرضاء زوجها وإسعاده.

مضت سنوات وأنا أُدين أبي وألتمس لها الأعذار، لكنّني أدركتُ ذلك المساء أنّها مخلوق ضعيف. فهي لم تضيّع سعادتها الأسرية في سبيل حبّه فحسب، بل فقدت ذاتها أيضاً. واستخلصتُ عندئذٍ أنّني لست ضعيفة مثلها، وخير دليل على ذلك الجائزة التي

ظفرت بها ذلك اليوم، وكذا تجاسري على معاكسة الرقيبة. وقطعت وعداً على نفسي بألّا أترك أحداً يتحكّم في مشاعري. سأحتفظ بحبي للأطفال الذين سأرزقهم ولحيواناتي، ولن أضعف أمام شيء أو أحد أبداً. وهو وعد كان له أثر على حياتي لسنوات عديدة.

19

انصرمت عشرة أيّام من دون أن أشعر بمرورها، لأنّ رتابة الحياة بالملجأ جعلت الأيام متشابهة كما لو كانت يوماً واحداً.

كان النوم يجفوني باكراً، والكرسي غير المريح يذكّرني بأنني في ملجأ. قبل أن أفتح عيني، كنت أحاول التنصّت على أنفاس أمّي متسائلة ما إذا كانت لا تزال على قيد الحياة. أُجهد نفسي وأنا بين الرجاء والجزع لكي أنظر إليها، وكانت عينيّ تلتقي دائماً بنظرتها، لأنها تكون صاحية تنتظر بصبر استيقاظي.

كنت أسندها فنقطع تلك المسافة القصيرة بين سريرها والحمام بخطى بطيئة وقد طوّقت كتفها بذراعي، ومرّرت الآخر تحت ذراعها. وكانت تعود إلى مقعدها ببطء وعنتٍ كبيرين. فإذا ما جلست، انكفأتْ إلى الخلف متنهّدة وهي في غاية التعب، واليوم بالكاد في بدايته.

يستيقظ الملجأ من حولي، فأسمع همس الأصوات ووقع الأحذية المطاطية وصرير باب يفتح وأنغام مذياع شُغِّل من توّه.

أجلس على طرف سرير أمّي وأروح أترقّب معها ومع رفيقاتها في الغرفة صوت العربة الصغيرة. ذلك أنّ حركة هذه العربات التي

تدفعها ممرضات باسمات أو متطوعات ودودات، كانت تضبط إيقاع مواقيت اليوم. ولما كنّا نسمع اهتزاز أوّل عربة، كانت العيون تتعلق بفتحة الباب متطلّعة إلى عربة الأدوية المسكّنة.

كانت العربة الثانية هي عربة الشاي. أرتشف فنجان شاي ساخن وأنا أنتظر العربة الثالثة التي تحمل للمرضى إفطارهم، وتفسح لي لحظة استراحة. فلا تكاد تصل حتى أغادر الغرفة. أبدأ بالاستحمام، لأنّ دفق المياه يساعدني على التخلّص من التوتّر، ثم أقصد الصالون حيث أقرأ صحف الصباح وأشرب كوب قهوة مستمتعة بلحظة عزلة أكون بحاجة إليها. لم يكن بهذه الغرفة أيّ إعلان عن منع التدخين. فالتبغ لم يكن ممنوعاً على نزلاء الملجأ، والموظفون لم يكونوا يبدون أيّ انزعاج لما يرون مريضاً ينزع قناع الأكسجين بيد مرتعشة ليضع سيجارة بين شفتين شاحبتين ويلتقط نفساً عميقاً من النيكوتين.

أشعر بالمتعة وأنا أنفث أوّل نَفَس من سيجارتي. لعلّه كان أنسب مكان أقرّر فيه الإقلاع عن التدخين، لكنّ حاجتي إلى النيكوتين كانت أقوى.

يُخرجني اهتزاز صحون الإفطار على العربة من عزلتي معلناً عن نهاية الفسحة. كانت الصحون تعود مليئة ببقايا الطعام كلّ صباح. من الصعب أن يُجبِر المرء نفسه على الأكل حين تزول شهيّته.

ثمّ تحلّ لحظة زيارة الأطباء التي يترقّبها الجميع بفارغ الصبر. وكنت ألاحظ عند عودتي إلى الغرفة أنّ أسارير العجائز الأربع، اللواتي أشرفن على الموت، تتطلّق بحضور رجل شاب وسيم. فمنذ دخولهنّ إلى الملجأ، انقطع أملهنّ في العودة إلى بيوتهنّ. كان الأطباء والمرضى يدركون تمام الإدراك أنّه لا وجود لدواء شافٍ،

ولم تبقَ غير الأدوية المسكِّنة، وأن كلّ ما يتوخّاه العلاج في الملجأ هو تيسير الانتقال إلى العالم الآخر برفق ورحمة.

كنت أهنّئ نفسي على ما أحقّقه من انتصارات صغيرة بين الفينة والأخرى، مثلما هو الشأن لمّا رأيت بريق عينَيْ أمي حين أقنعتها بالاستفادة من خدمات حلاق الملجأ، أو لمّا طلبت من عاملة التجميل المتطوّعة أن تعتني بأظافرها وتدلّكها بزيوت النباتات العطرية. كانت تلك اللحظات تُنسيها مؤقّتاً آلامها ونهايتها المحتومة.

كان أبي يزورها بعد ظهر كلّ يوم. لم يكن الأب الودود ولا الأب القاسي، بل عجوز يحمل باقة ورد اشتراها على عجل من إحدى محطات الوقود. عجوز ينظر إلى المرأة الوحيدة التي أحبّ بمزيج من الحنان واليأس، تلك المرأة التي ضحّت بالغالي والنفيس من أجل أن تبقى معه. كانت خطواته تتثاقل يوماً بعد يوم، ووجهه يزداد كآبة وهو يرى زوجته تموت أمام عينيه شيئاً فشيئاً.

كانت شفقتي عليه تمتزج بالذكريات التي تحاصرني كلّ ليلة، فيتصادم ماضيّ وحاضري.

عند حلول اليوم الحادي عشر، صارت أمّي أضعف من أن تقوم إلى الحمام، وفي اليوم الثاني عشر، لم تعُد تقوى على الأكل بنفسها.

ومثلما تضرعت لسنوات في صمتٍ أن ينتبه راشد في عينيّ إلى مدى حاجتي للحب، هأنذا أبتهل في صمت عسى أن تطلب منّي أمّي المعذرة. كنت أعلم أن هذا هو الشيء الوحيد الذي سيساعدها على قطع الخيط الرفيع الذي يصلها بالحياة.

كان خطو أبي البطيء يتسارع لمّا يقترب من سريرها، وتظهر على محيّاه ابتسامة متكلّفة يخصّها بها وحدها. كانت الصلة الظاهرة

بينهما تملك طاقتها الخاصة، لكنّها كانت تقوّض طاقتي. كنت ألوذ بالصالون حيث لا جليس غير الكتاب، ولا مسكّن غير القهوة والسجائر.

يلحق بي بعد زيارة أمّي ويقول بصوت يكاد يكون متوسّلاً ما ظننتُ يوماً أنه يستطيع أن يخرج من فمه: «لن تعود إلى البيت، أليس كذلك يا أنطوانيت؟».

كنت ألمس من دموعه روحه المعذّبة التي تغلّب فيها الحزن على الشرّ الكامن.

لم أكن أرغب في هذه المواجهة، فأجيبه بصعوبة: «كلا».

شعرتُ وأنا أرى الألم البادي في نظرته بالشفقة عليه. وعادت بي الذاكرة عشرات السنين إلى الوراء، فتراءت لي صورة الأب الودود الذي استقبلنا على الرصيف في بلفاست. وتذكَّرت بأسى كم أحببته. لاحت لي أيضاً نظرة أمّي الشابة مفعمة بالأمل، وكيف خبا حماسها بمرور السنوات. وبينما كنت أتساءل كيف لمخلوقين جمعهما كلّ هذا الحبّ أن يهملا طفلة هي ثمرة علاقتهما، كادَت تجرفني موجة من الكآبة.

استأنف يقول: «أعلم أنني قمت بأشياء شنيعة، لكن هل يمكن أن نصير صديقين؟».

قلت في نفسي: فات الأوان. مضى زمن كنت فيه بحاجة إلى الحب، بل كنت متلهّفة له. أما الآن فأنا أشعر بأنّني عاجزة عن منحك هذا الحبّ.

وسالت دمعة على خدّه، ولامسَت يده المتغضِّنة يدي، وتمكّنت من تمالك نفسي للحظة وأجبته ببساطة: «أنا ابنتك».

20

حلّ عيد الفصح، ومعه حلّ صيف مبكّر ألقت نهاراته على الريف وَهجاً ذهبيّاً، وهبّت معه على بيتنا نفحة تفاؤل غير معهودة. مضت أسابيع بدا فيها أبي كما لو أنّه سيطر على غضبه مُظهراً وجهاً ودوداً يعرفه أفراد عائلته وأصدقاؤه. وقد أدخل مزاجه الرائق السعادة على قلب أمّي، فراحت تعاملني بمزيد من الحنان. لا بدّ أنّ لي دخلاً في ذلك المزاج، بما أنّني كنت دائماً السبب في سورات غضبه، رغم أنّني لم أعرف من أمّي قط فيمَ كان سلوكي يغيظه.

غيّرنا مسكننا قبيل العطلة. فقد عثر والداي أخيراً على منزل صغير في ضاحية كولراين. وعثرت أمّي على شغل راقها. أما أبي فاشترى سيارة أحلامه: جاغوار مستعملة كان يبالغ في تلميعها كلّما همّ بزيارة عائلته. كلّما حلّ بالشارع الذي يقطنه جدّي وجدّتي راح الناس ينظرون إليه بغبطة، فيتورّد وجهه من النشوة كدَأبِه حين يشعر بأنه مثار إعجاب الآخرين.

أمّا أمّي فكانت تدندن ببعض أنغام غلين ميلر التي كانت مشهورة أيّام شبابها. وبما أنّ التفاؤل شعور مُعدٍ، فقد رحتُ أبحث

عن شغل أقضي فيه أسابيع العطلة الثلاثة، فعثرت عليه في مخبزة قريبة. فقد كنت محتاجة إلى شيء من المال يحقّق لي بعض الاستقلال.

تلقّيت بزهو راتبي الأوّل بعد أسبوع، صرفته في شراء موسوعة مستعملة وسروال جينز. ذلك أنّ الجينز كان حينئذٍ موضة المراهقين، وكنت أتوق إلى طرح زيّي المدرسي إلى لباس يجسد «ذوق الشباب». ثمّ اشتريت بعد ذلك حذاء وقميصاً أبيض.

وعند نهاية العطلة، اقترحت عليّ المخبزة أن أستمرّ في العمل أيام السبت، وهو ما مكّنني من ادّخار بعض المال لشراء درّاجة. وقد صمّمت هذه المرّة على ألّا أسمح لأبي باستعمالها، لكن لم يكن للقلق داعٍ، بما أنه يملك الآن سيارة أحلامه. لم يكن والديّ يعترضان فيما يبدو على أن أشتغل، وقد كانت تنتابني مخاوف من أن يطالباني بقسط من راتبي، لكنّ ذلك لم يحدث، بل إنّ أمي كانت تثني على ثيابي الجديدة.

لم يعرف البيت مثل هذا الانشراح منذ زمن بعيد. وصار لي أصدقاء في المدرسة، وهو ما نظر إليه والداي بعين الرضا، إذ كان من المهمّ بالنسبة لهما أن تبدو حياتي كسائر المراهقين. وقد كانت كذلك ظاهرياً، لكنها كانت أبعد ما تكون عن الحياة السويّة في الباطن. كنت قد تعوّدت على شرب الويسكي، لأنه يهدّئني ويرفع من معنويّاتي، لكنّه كان يستنفد قواي أيضاً. بدأت نوبات الاكتئاب تتوالى عليّ، وكانت أمّي تتلطّف في تفسيرها. كانت تقول «إنّه مزاج المراهقة»، و«أنني مكدّرة المزاج». وقد كانت تلك النوبات تنغّص عليّ حياتي، بحيث صارت تأهل لياليّ كوابيس مرعبة. كنت أرى في المنام أنني مطاردة، فأسقط على الأرض عاجزة عن الدفاع

عن نفسي. أستيقظ وأنا أتصبّب عرقاً، فيجفوني النوم خوفاً من أن يعاودني الكابوس.

رسّخت مطالب أبي المتكرّرة شيئاً مألوفاً في حياتي. كلّما فرغ من فعلته يقدِّم لي كحولاً، فأقبل عليه لأخلِّص ذهني ممّا تعرّضت له. كان يسلّيه أن أطلب القليل منه في البداية، لكنني كنت أستزيد، فيرفض في الغالب. صرتُ أتناول الويسكي بضعة مرّات في الأسبوع حتّى اعتدت عليه. كنت ما أزال أصغر من أن أشتريه بنفسي، لكنّ ذلك لم يعد مشكلاً بعد ثلاث سنوات.

صار يوم الأحد مخصصاً لـ«النزهات العائلية». يراقبنا الجيران ونحن ننطلق بالسيارة بصحبة جودي. إنّها صورة العائلة السعيدة. كنّا نذهب في الغالب إلى شاطئ بورتستيوارت. وذات يوم سألتُ أمّي ما إذا كان بإمكاني البقاء في البيت، فاستشاطت غضباً، فلم أعُد إلى ذلك السؤال منذئذٍ.

صاحت: «أبوك يشقى طيلة الأسبوع، ويريد أن يُدخل البهجة على قلبينا في يوم عطلته الوحيد، وأنت تريدين البقاء في البيت؟! يا لك من جاحدة. أنا لا أفهمك يا أنطوانيت!».

كانت هذه العبارة بلا شك من أصدق ما تفوّهت به.

كنّا نختار في بورتستيوارت مكاناً نجلس فيه لتناول الشاي والساندويشات، ثمّ ننطلق في نزهة على الأقدام. تروح جودي تطارد النوارس كما لو أنها لا تزال جروة صغيرة، وأجري أنا في إثرها، بينما يتبعنا والداي وهما يسيران ببطء.

كانت أمّي تطرح عليّ السؤال نفسه بعد كلّ نزهة من هذه النزهات: «أشَكَرْتِ والدك يا عزيزتي؟» فكنت أغمغم بكلمة شكر لذلك الرجل الباسم الذي كنت أكرهه وأخشاه.

لم يكن التلفاز في ذلك العهد قد دخل البيوت بعد، وبذلك كانت السينما هي وسيلة التسلية الشائعة، وكنت أعشق مشاهدة الأفلام. كلّما عزم والداي على الذهاب إلى السينما، كنت أتمنى لو يعرضا عليّ مرافقتهما، لكنهما لم يفعلا ذلك إلّا نادراً.

لم يكن يسمح لي بالخروج من البيت حتّى بعد أن أكملت الرابعة عشرة من عمري، إلا إذا تعلّق الأمر برعاية أطفال أحد أفراد العائلة. وكنت أتذرّع أحياناً بإنجاز بحث في المكتبة لكي أذهب إلى السينما في فترة ما بعد الظهر، محاولة الاستمتاع بكلّ لحظة من تلك اللحظات المسروقة.

بعد عطلة عيد الفصح بأيّام، فاجأتني أمي بدعوة غير متوقّعة.

بادرتني عند عودتها من العمل برفقة أبي: «بابا يريد أن يأخذنا معاً إلى السينما هذا المساء يا أنطوانيت. غيّري ملابسك بسرعة».

قبل ذلك بساعة غادر السرير وتركني في غرفة نومهما مرعوبة. قصدتُ الحمام فور خروجه لأغتسل. فركتُ أسناني ولساني مرّات عديدة حتى أتخلّص من رائحة الويسكي، ثمّ رتّبت السرير وحضّرت الشاي، وارتديت زيّي المدرسي ورحت أنتظر عودتهما.

كان أبي قد ربح في القمار ذلك اليوم، وهو ما روّق مزاجه. لم ينتبه إلى كمية الويسكي التي سقاني إياها، لكنّني سأدرك بعد شهور من ذلك أنّ ذلك لم يكن الشيء الوحيد الذي لم يحتَط له.

نزعتُ ملابسي بسرعة ورميت بها على السرير وقد ساورني شعور بالتعب والاشمئزاز، ثمّ ارتديت فستان المناسبات المهمّة. وبما أنّ دولاب ملابسي كان شبه فارغ، غالباً ما كنت ألبس في البيت الزي المدرسي، باستثناء أيّام العطل.

كانت السينما تعرض فيلماً من أفلام رعاة البقر، وهو النوع الأثير لدى أبي. وقد وجدتُ صعوبة كبيرة في التركيز على الحدث بسبب صداع رهيب زادت من حدّته الطلقاتُ النارية التي يضجّ بها الفيلم. وددتُ لو أغلق أذنيّ لمّا كانت الموسيقى تتعالى في اللحظات المشوّقة. كنت أشعر بكلّ صوت يتعالى كمدية تنفذُ إلى جمجمتي. ومن حسن حظّي أنيرت القاعة أخيراً، ولم أعد أرغب إلّا في شيء واحد: أن آوي إلى فراشي.

لم أجد الخلاص بالعودة إلى البيت. كان عليّ أن أبدي مزيداً من التحمّل، ذلك أنّ والديّ طلبا منّي أن أحضر لهما الشاي. ما كادت الغلاية تبدأ في الصفير حتى سمعت فجأة صراخاً جعلني أتسمّر في مكاني. كان الصوت آتياً من غرفتي. سمعتُ أبي يزمجر: «تعالي فوراً يا أنطوانيت!» جمّدني صوته الرهيب من الخوف. صعدت إلى غرفتي وأنا لا أزال أشعر بالغثيان ولا أعرف شيئاً عن سبب غيظه.

وجدته بانتظاري أمام سريري وهو يشير إلى أداة الجريمة: بذلتي المدرسية. صاح في وجهي وقد رفع يده ليضربني: «أتحسبيننا أغنياء حتّى تطرحي ملابسك بهذا النحو؟».

انحنيتُ لكي أتجنب الضربة، وجريتُ نحو السلم. كنت آمل أن تحميني أمّي منه ولو لمرّة واحدة، لأنّ سورة الغضب هذه لا مبرّر لها. جحظت عيناه، وأدركتُ أنه لم يعد يسيطر على نفسه، وأنّني سأُضرَب بقسوة. لحق بي جارياً، فزلق في آخر درج من السلم، فزاد غضباً. أمسك بشعري وجعل يلوّح بي في الهواء، فأحسستُ بجسدي يتلوّى من الألم ثمّ قذف بي على الأرض. لم أستطِع كبت صراخي. انقطعت أنفاسي ورأيت ما يشبه الزبد على حافتي شفتيه. ظلّ يصرخ

وقد احتقنت عيناه بالدم، وبدت نظراته تائهة، ثمّ طوق رقبتي بيديه، وشدّهما كما لو همّ بخنقي.

ضغط بركبته على بطني ليشلّ حركتي، وشدّ بإحدى يديه على عنقي بينما انهالت الأخرى بالضرب على بطني وصدري وهو يردّد: «سألقّنك درساً لن تنسيه أبداً».

تراءت لي النجوم متراقصة أمام عيني، ثمّ سمعت صوت أمي تقول بمزيج من الخوف والغضب: «دعها عنك يا بيدي!».

تلاشت غشيته ففكّ قبضته عن رقبتي. استعدتُ وعيي مصدومة وأنا أوشك على الاختناق، وأبصرت أمي شاحبة تنظر إليه شزراً وقد صوَّبت نحوه سكين مطبخ، وراحت تطلب منه أن يكفّ عنّي. تسمّر لثوانٍ لمّا لمح الشفرة، فاغتنمتها فرصة لكي أزحف بعيداً عنه.

وحَداني الأمل في أن أمي ستنفذ ما سمعتها تهدّده به مراراً خلال شجاراتهما المتكرّرة من أنّها ستتركه ونغادر سوياً، أو فليغادر هو البيت، لكنّني مُنيت بالخيبة كالعادة. عوض أن تنطق بما كنت أرجو، نطقت بشيء لم يقوَ دماغي المشوّش على استيعابه: «اخرجي يا أنطوانيت!».

بقيتُ جاثمة على الأرض. لعلّي توهّمت أنّني إنْ تجمدتُ في مكاني سأتوارى عن أعينهما. لكنّها لمّا لاحظت جمودي، أمسكت بذراعي بكلّ ما أوتيت من قوّة، وفتحت الباب ثمّ قذفت بي إلى الخارج.

صاحت بي وهي تصفق الباب: «لا تعودي إلى البيت هذه الليلة». بقيتُ مصعوقة لبرهة وجسمي يتلوّى من الألم، ثمّ تملَّكني خوف شديد. إلى أين سأذهب؟ من الأكيد أنّني لن أقصد أحد أفراد

العائلة، لأنني إن فعلت، سأعرِّض نفسي لعقاب أقسى عند العودة. فهو الابن والأخ وابن الأخ المنزّه عن مثل هذه الحماقات، وبذلك لن يصدّقني أحد. سيعتبرونني مدّعية ومثيرة للمشاكل، ومن ثمّة سيعيدونني إليه. ولم يبقَ أمامي سوى الاختفاء تحت جنح الظلام.

قرّرت أن أقصد بيت إيزابيل، وهي إحدى مدرِّساتي، وكانت تقتسم شقّة مع صديقة لها. شرحتُ لهما أنّ خصاماً نشأ بيني وبين والدي لأنّني لم أرتب غرفتي، وأنني خائفة من العودة إلى البيت. أبديتا كثيراً من التعاطف معي. رغم أنّهما التحقتا بالعمل في المنطقة حديثاً، فقد كانتا تعرفان جبروت الآباء الإيرلنديين. حاولتا طمأنتي بالقول إن أبي وأمّي سيهدآن، وسيقلقان عليّ، وهو ما ضاعف من نحيبي. هاتفتا والدتي لتخبراها بأنّني موجودة في بيتهما. قالتا لي إنّها ليست غاضبة منّي، وأنّها اطمأنّت حين علمت أنّني في مكان آمن، وبما أن الوقت متأخر ليلاً، فهي تسمح لي بقضاء الليلة عندهما. قالت لهما أيضاً إنّ أبي انصرف إلى العمل وهو مستاء من سلوكي ومغادرتي البيت، وظنّ أنني قصدتُ بيت جدّي وجدّتي. إنني أجتاز مرحلة صعبة من عمري، ولا أعامله باحترام. وعليّ أن أعود في صباح الغد، عندئذٍ ستتحدّث إلي، وبطبيعة الحال، سأذهب إلى المدرسة كالعادة. اعتذرتْ لهما عن الإزعاج، وأسرّت لهما بأنّني أُسبِّب لها كثيراً من المتاعب في هذه الأيام.

أتراهما فوجئتا باكتشاف أنّ تلميذة حسنة السلوك في المدرسة مثلي تخلق لوالديها كلّ هذا الإزعاج؟ على كلّ حال، لم يعلّقا على الحادث. هيّأتا لي سريراً على الأريكة، فغططتُ في نوم عميق على الفور من شدّة التعب. وفي صباح اليوم الموالي، سلّمتاني نقوداً لأسدّد تذكرة الأوتوبيس إلى البيت، وقدّمتا لي من النصائح ما يلزم

أن يقدّمه راشد لفتاة بالكاد بلغت سنّ المراهقة في موقف كهذا، فتركت الشقّة وأنا أكاد أموت خوفاً، وقصدتُ موقف الحافلة.

لما طرقت باب البيت، كان أبي قد عاد من العمل ونام. أدخلتني أمّي بلا ضجّة وهي متجهّمة، وقدّمت لي الفطور. قالت إنني تسببتُ لها في قضاء ليلة سيئة، ثمّ طلبت منّي أن أبذل ما في وسعي لكي أتجنب إثارة حفيظة أبي.

ثمّ أضافت: «ما عدتُ أحتمل. تصرفاتك التي تغيظه صارت تُرهقني».

لمست في عتابها أنّها خائفة، لأنّ أبي مضى بعيداً في معاقبتي الليلة السابقة. فلولا تدخُّلها لكانت وقعت فضيحة أخطر من تلك التي ستحدث لاحقاً.

رغم أنه اعتاد على ضربي لسنوات، لم يرفع يده عليها قط، لكن لعلّها أدركت أن ذلك غير مستبعد. وكانت تلك هي المرّة الوحيدة التي تحدّثت فيها عمّا وقع في الليلة السابقة. وعند عودتي من المدرسة بعد الظهر، وجدته بانتظاري.

قلت مهدّدة بصوت مخنوق، وأنا أحاول صدّه: «سأفشي السر، سأفشيه إن ضربتني ثانية».

انفجر ضاحكاً، ضحكة شامتة لا أثر فيه للفزع، ثمّ أجاب بهدوء: «لن يصدقك أحد يا أنطوانيت. إنْ أفشيت السر يا صغيرتي، ستندمين. سيدينك الجميع. لا أظنك أطلعتِ أحداً عليه، أليس كذلك؟ لقد صمتِّ لسنوات».

لم أنبس، فاسترسل بنبرة ظافرة:

«أنت مذنبة مثلي تماماً. ستعاديك عائلتك، وأمّك ستتخلّى عنك إن أنت جلبتِ العار لهذا البيت. أنت من ستضطرين لترك

البيت. ستُسلّمين إلى إحدى العائلات لكي تتبنّاك، ولن تري أمّك قط. ستقيمين مع غرباء، ولا شكّ في أنهم سيكتشفون أيّ نوع من الفتيات السافلات أنت. أهذا ما تريدين؟».

وتراءت لي صورة هؤلاء الغرباء يرشقونني بنظرات حاقدة، وتمثّلتُ ما سينتابني من حزن من دون أمي.

همست وقد ارتعبت من هذه الصورة: «كلا». فقد سمعت حكايات رهيبة عن الكيفية التي يعامل بها الأطفال الذين نبذهم آباؤهم في العائلات التي تتبناهم. فابتسم ابتسامة الواثق بالنصر.

«تصرّفي بحكمة إذن إنْ أردتِ ألّا ينالك ما نالك بالأمس. اغربي عن وجهي الآن. اصعدي إلى غرفتك والزميها حتّى أغادر البيت. لقد تعبتُ من رؤيتك هذا اليوم».

فانصرفت.

أضاف ساخراً وهو يقف عند أسفل الدرج: «لا تنسي ترتيب غرفتك، أسمعتِ يا أنطوانيت؟». جلست على حافة سريري إلى أن علمتُ من إيقاع أنفاسه أنّه غطّ في النوم.

21

منذ أن ضُربتُ وطُردت من البيت، صار يُخيّل إليّ أن قوتي الداخلية خارت. صرتُ أشعر بالخمود، ورحت أحاول تفادي والدي ما وسعني ذلك. كنت أنشغل بعملي يوم السبت، وبزيارات جدّي وجدّتي التي لم يكن بوسع والديّ أن يمنعاني منها. لكنّهما كانا غالباً ما يرفضان أن أزور أصدقائي في بورتروش، ويراقبان من كثب نزهاتي على الدراجة. كان يخيّم على البيت جو غريب بسبب مزاج أبي المتقلّب الذي كان كثيراً ما يتحول إلى سورات غضب، بل إنّه كان يسوء أكثر فأكثر. كانت نظراته تشي بشيء غير طبيعي يزرع الرعب في نفسي.

ذات صباح، وكان قد مضى على بداية العطلة الصيفية أسبوع تقريباً، بينما كانت أمّي تتأهب للخروج إلى العمل، علمتُ أنه عاد من عمله باكراً، وأنه آوى إلى فراشه. وسمعته وأنا في غرفتي يذهب إلى المرحاض من دون أن يغلق الباب خلفه، ثم عاد إلى مضجعه. بعد انصراف أمّي، نزلتُ السلم إلى المطبخ من دون حسّ، ووضعت الماء على الموقد لكي أغتسل وأهيئ فطوري. حضّرت أيضاً خبزاً مشوياً وأنا حريصة على ألّا يشعر بوجودي. عندئذٍ سمعت صوته في السلم.

«تعالي يا أنطوانيت».
صعدتُ السلم وبلغت باب غرفته.
«حضري لي شاياً وائتيني به».
ما كدتُ أستدير حتّى أضاف: «لم أُنهِ بعد كلامي يا صغيرتي».
شعرت بغصّة تنعقد في حلقي والتفتّ نحوه من دون أن أنبس. لاحت لي على وجهه نظرة ساخرة وابتسامة فاترة.
«ائتيني أيضاً بخبز مشوي».
عدتُ إلى المطبخ وحضّرت له الشاي والخبز المشوي بطريقة آلية، ثمّ حملت الصينية وصعدت إلى غرفته. وضعتها على منضدة السرير بعد أن أزحتُ علبة سجائره والمرمدة المليئة بأعقاب السجائر وأنا أبتهل إلى الربّ ألّا يطلب مني شيئاً آخر. لكنّني كنت واثقة من أنّ هذا الشيء الآخر هو مراده.
لمحتُ بطرف عيني مُتقزّزة صدره الشاحب الذي تتخلله بقع نمش، ويعلوه شعر رمادي بارز من خلال قميصه الداخلي القذر، وزكمت أنفي رائحة جسمه العطنة الممزوجة برائحة التبغ التي تملأ الغرفة. ثم قرأتُ الشبق في عينيه.
«انزعي ملابسك يا أنطوانيت. أريد أن أقدِّم لك هدية. انزعي ملابسك كلّها، وبتمهل».
التفتّ إليه. لم يطلب منّي هذا من قبل، وشعرتُ بنظرته تدنّسني.
كرّر بين جرعتي شاي صاخبتين: «قلت لك انزعي ملابسك يا أنطوانيت».
وفجأة خرج من السرير لا يستره غير قميصه الداخلي، ولمّا

لاحظ تلكّئي في تنفيذ أمره، ابتسم وهو يقترب منّي، وصفعني صفعة خفيفة على خاصرتي، ثمّ همس: «هيا، أسرعي».

كنت واقفة أمامه كحيوان علق في شرك. بدت ملابسي متكوّمة على الأرض وانتابتني رغبة جارفة في الهرب، لكن لا حول لي ولا قوّة. وبينما كان ينظر إليّ مضى يفتش في جيب سترته وأخرج كيساً صغيراً لا يختلف عن تلك الأكياس التي رأيتها سابقاً. مزّقه وأخرج منه شيئاً أشبه ببكرة صغيرة من المطاط، ثم وضع الواقي.

حرَّر يدي فجأة، وأمسك بكتفي وألقى بي بعنف على السرير ثم رفع ساقيّ في الهواء، وباعدهما، وشعرتُ كما لو أن جسدي يتمزق بكامله، وأحشائي تتقطع وبعضلات فخذيّ تتصلّبان. زممتُ شفتيّ حتى لا أمكِّنه من مراده وهو أن يسمعني أنتحب.

تعاظمت الغصّة في حلقي، فجريتُ إلى المرحاض وتقيأت سيلاً من الصفراء ألهبت جوفي. ولمّا أيقنت أنّ بطني فرغ، ولم يعُد به شيء، ملأتُ حوض ماء بارد لأغتسل، لأنّني لم أكن قادرة على انتظار الماء ليسخن.

ورأيت في المرآة وجهاً شاحباً وبقعاً حمراء على الذقن والعنق وعينين مغرورقتين بالدمع تنظران إليّ نظرة يائسة. اغتسلتُ مراراً، لكنّني لم أستطع التخلّص من رائحته بحيث خيّل إليّ أنّها نفذت عبر مسامّي إلى داخل جسدي.

وبينما كنت نازلة إلى الطابق السفلي، سمعتُ شخيره، فقلت في نفسي لأغتنم ساعات نومه للهرب من هذا البيت!

فتحتُ الباب وخرجت إلى الحديقة ثمّ جلستُ على العشب رفقة جودي. طوّقت عنقها بذراعي، وألصقتُ وجهي برأسها وتركتُ دموعي تنهمر.

تساءلتُ بيأس: «متى ستنتهي هذه المحنة؟».

ركبتُ درّاجتي وأنا غير قادرة على البقاء على مسافة قريبة من أبي، وانطلقتُ محطّمة القلب. قطعتُ مسافة طويلة إلى أن عوّضت الحقول الشوارع المزدحمة بالمنازل. توقّفت مرتين: ركنت دراجتي على جانب الطريق، ورحتُ أتقيأ صفراء تصعد إلى حلقي حتّى تدمع عيناي، وأنخرط في النحيب حتى بعد أن يكفّ عني القيء.

قضيت جزءاً من ذلك النهار في أحد الحقول ساهمة لا أقوى على التفكير في شيء، ثم عدتُ إلى البيت لقضاء ما ينتظرني من أشغال قبل عودة والدتي من العمل.

22

لا شكّ في أنّني كنت مريضة. ينتابني الغثيان كلّ صباح فور قيامي من النوم، فأهرع إلى المرحاض. وفي الليل أرتعد من البرد رغم أنّ شعري يتبلل، وجبيني يتصبّب عرقاً. تملّكني خوف شديد، وأحسستُ كما لو أنّ خطراً وشيكاً يتهدّدني، ذلك أنّ جسمي كان يزداد ثقلاً ووهناً يوماً بعد يوم. صار نهداي يؤلمانني وبطني منتفخاً، والطعام لا يكاد يستقر في معدتي. وضاق سروالي الجديد عن خاصريّ على نحو غير طبيعي.

كانت أمي كثيرة الغضب منّي، وأبي يراقب كلّ حركاتي. وفي المساء، لما كان يذهب إلى العمل، يخيّم صمت رهيب علينا أنا وأمّي إلى أن اقتنعتْ أخيراً بأنّني مريضة.

قالت لي ذات مساء: «ينبغي أن تزوري الطبيب غداً يا أنطوانيت».

رفعتُ رأسي عن الكتاب راجية أن أجد في نظرتها شيئاً من الحنان، فلم أجد غير التجهّم. غير أن عينيها كانتا تخفيان عاطفة لم أستطِع أن أعثر لها على اسم.

كان بإمكان المرء في نهاية الخمسينيات لمّا يتّصل بإحدى

العيادات أن يحصل على الموعد فوراً. هكذا وجدتُ نفسي في اليوم الموالي في قاعة الانتظار وأنا في منتهى التوتّر. استقبلتني الممرضة بابتسامة لطيفة، لكنّها ما لبثت أن تحوَّلت إلى نظرة ازدراء عندما هممتُ بالانصراف بعد نصف ساعة.

لم يكن طبيب الخدمة ذلك الصباح الرجل المسن الذي اعتاد أن يستقبلني، بل شاب وسيم أشقر، ذو عينين زرقاوين جميلتين. دعاني للجلوس، وأخبرني أنّه طبيب معوّض، وجلس بدوره خلف مكتب كبير أسود ثمّ اطّلع بسرعة على ملفّي الطبي.

سألني: «ما سبب زيارتك يا أنطوانيت؟» وقد لاحت على وجهه ابتسامة لطيفة أخذت تتلاشى كلمّا تقدّمتُ في بسط أعراض مرضي. سألني عن آخر حيض، فحاولت تذكّر آخر مرّة طلبتُ فيها فوطاً من أمّي. كان ذلك قبل ثلاثة أشهر. والحقيقة أنّني لم أنتبه لمرور كلّ تلك المدّة، وحتّى لو انتبهت، ما كنت لأعير الأمر اهتماماً.

ثمّ سأل: «هل تظنين أنك قد تكونين حاملاً؟».

فأجبتُ بلا أدنى تردد: «كلا».

تعلّمت مع مرور السنين أن أتنبّأ بردود أفعال الكبار، ولمستُ خلف قناع الطبيب شيئاً من العداء. لم يعُد ينظر إليّ كمراهقة مريضة، بل كمشكلة محتملة.

طلب منّي أن أقف خلف الستارة وأنزع ملابسي وأكشف عن نصفي السفلي، ثمّ نادى على الممرّضة.

وبينما كان يفحصني، مضيتُ أحدّق في السقف وقد رفعتُ ساقي وباعدت بينهما. ثمّ طلب منّي أن أرتدي ملابسي. أزال قفازة المطاط ورمى بها في القمامة، ولاحظت تبادل نظرات صامتة بينه وبين الممرّضة ثمّ أذن لها بالانصراف.

دعاني ثانية إلى الجلوس، لكنّ ملامح وجهه صارت قاسية.
سألني بفتور: «هل تعرفين أمور الحياة؟».
كنت أعرف ما سيتفوّه به، لكنّني لم أستطع أن أتقبّله. فأجبتُ بنبرة حزينة: «نعم».
«أنت حامل من ثلاثة أشهر». ونزلت عليّ هذه الكلمات كالصاعقة.
انتفضتُ محاولة الإنكار: «شيء غير معقول، فأنا لم يمسسني أحد».
فردّ بنبرة تشي بالانزعاج ممّا اعتبره كذبة مكشوفة: «لا بدّ أنك عاشرت أحداً».
حدّقت فيه باحثة عن سند في نظرته، لكنّني أيقنت من أنّه حسم موقفه مني، ولا سبيل لتغييره.
وانتهيتُ بأن أجبتُ: «لم أضاجع غير أبي».
ظلّت هذه الكلمات معلّقة في الهواء. كانت تلك هي أوّل مرة أبوح فيها بسرّي. وخيّم على الحجرة صمت ثقيل.
وسألني بصوت لابسه شيء من التعاطف بغتة: «هل اغتصبك؟».
وأثارت هذه النبرة اللطيفة دموعي، فغمغمت: «نعم».
- «هل أمّك على علم بالأمر؟».
رحتُ أنتحب، لكنّني تمكنت من أن أغمغم: «كلا».
قال وهو يمدّ لي منديلاً: «بلغيها أنني أريد مقابلتها. لا بدّ من أن تتّصل بي».
قمتُ متهادية، وغادرتُ المستوصف. وما كدت أتجاوز الباب حتّى شلّني الخوف. كيف لي أن أعود إلى البيت؟ فأبي موجود فيه. وفي غمرة خوفي الشديد، تراءى لي وجهٌ: إنه وجه إيزابيل، الأستاذة

التي لجأتُ إليها لما طُردتُ من البيت. كانت قد تزوجت وتركت المدرسة في بداية الصيف، لكنّني علمت أنها عادت من سفر شهر العسل. لقد ساعدتني مرّة، فلعلّها تستطيع مساعدتي الآن أيضاً؟

امتطيتُ دراجتي، ومضيتُ أبحث عن مخدع هاتفي. راجعت دليل الهاتف بحثاً عن عنوانها، ولم أكلِّف نفسي مهاتفتها لإخبارها بزيارتي، وابتهلتُ فقط من أجل أن أعثر عليها في بيتها.

بلغتُ أحد تلك الأحياء السكنية التي خرجت من الأرض بعد الحرب العالمية، وقصدت بيتها، وهو منزل غريغوري الطراز. أسندتُ دراجتي إلى الجدار وأنا أردّد في نفسي: «ستساعدني، وستفتح لي بيتها ولن تطردني». وبينما كنت أعبر الممشى المجصّص، المحفوف بعشب بدأ بالكاد يصعد من الأرض، أخذت هذه الكلمات تتردّد في رأسي كتعويذة.

تفاجأت إيزابيل بزيارتي، لكنّها رحّبت بي، فشعرتُ بعيني تغرورقان بالدمع كعادتي لمّا يبدي لي أحدهم شيئاً من التعاطف. أدخلتني إلى الصالون، ودعتني للجلوس.

سألتني بلطف وهي تمدّ لي منديلاً: «ماذا جرى يا أنطوانيت؟».

كنت أثق بها، فحكيتُ لها ما دار بيني وبين الطبيب. شرحتُ لها سبب خوفي الشديد، وقلت لها إنني مريضة. سادَ صمت شبيه بالصمت الذي خيّم في حجرة الفحص بالمستوصف قبل دقائق من ذلك. واستحال قلق إيزابيل ذعراً.

قالت: «انتظريني هنا يا أنطوانيت. لقد عاد زوجي من العمل، سأقدِّم له وجبة الغذاء ثمّ أعود إليك. أمهليني دقيقة، موافقة؟».

انصرفَت، وظللتُ أنتظر عودتها في صمت يكاد يكون مطبقاً، تخلَّلته دقات الساعة الجدارية المعلّقة على المدفأة الحجرية.

إلا أن زوجها اقتحم الغرفة بمفرده. وفهمتُ من تقطيبه أنّ أملي في الاحتماء بهذا البيت قد تلاشى.

سألني على سبيل التمهيد: «أصحيح ما أسررتِ به لزوجتي؟» فقدتُ الثقة في نفسي، وأومأت برأسي إيماءة خفيفة وأنا أهمس: «نعم».

تابع من دون أن يأبه بحرجي: «اسمعي، لقد أربَكَتها حكايتك وهي حامل، وأنا لا أسمح بتشويشها في هذا الظرف. لستُ أدري لماذا فكّرتِ في المجيء إلى هنا. ينبغي أن تعودي إلى البيت وتخبري أمك بالأمر».

ثمّ توجه إلى الباب، وأومأ لي بأن أتبعه. قمتُ من مكاني من دون أن أنبس، وحين بلغت العتبة، نظرتُ إليه ثانية آملة في أن يتراجع عن قراره، لكن عبثاً.

قال قبل أن يغلق الباب: «لا تريدك زوجتي أن تعودي إلى هنا». سيصير هذا الصدود مألوفاً لدي خلال الأسابيع اللاحقة، لكنّني لم أفهم سببه قط.

وتردَّدت تحذيرات أبي في رأسي: «سيُدينك الجميع، وأمك لن تحبك إن أفشيت السر».

ركبتُ دراجتي وعدت إلى البيت. كان أبي مستلقياً في سريره، لكنّه لم يكن نائماً.

ما كدت أفتح الباب حتّى ناداني: «تعالي يا أنطوانيت».

صعدتُ الدرج وأنا في غاية الاضطراب.

سأل: «ماذا قال لك الطبيب؟» وقرأتُ في عينيه أنّه كان يعرف الجواب.

فأجبت بتجاسر: «أنا حامل».

داری انفعاله بينما أزاح الغطاء ودعاني للاقتراب منه.

«تعالي إلى هنا يا أنطوانيت، سأبذل ما في وسعي لتسوية هذه المشكلة». لكنّني هذه المرّة لم أبرح مكاني، وبقيت متسمّرة أمامه. زال خوفي، وشعرتُ بالغضب يغلي بداخلي، فأجبته:

«ماذا ستسوّي بعد أن وضعت هذا الشيء في أحشائي؟ أنا حامل من ثلاثة أشهر. كم مرّة فعلت بي هذا خلال هذه الأشهر الثلاثة؟».

ولاحظت أنّ الخوف الذي تملكني بدأ ينتقل إليه، فاستعدتُ شيئاً من الثقة بنفسي.

«هل أخبرتِ الدكتور بأنّني أنا من فعل بك هذا؟».

فأجبت كاذبة وقد عاودني الخوف: «كلا».

- «تذكري ما قلت لك يا صغيرتي. سيتّهمونك إنْ أفشيت السر. سيأخذونك ويسجنونك، ولن تستطيع أمّك منعهم. سيدينك الجميع».

لم يكن بحاجة إلى هذا التذكير، فقد أثبتَ لي ثلاثة أشخاص صحّة كلامه.

«سأخبر أمّك بأنك شرحت لي ما وقع: تعرّفت على شبّان إنجليز في بورتروش وضاجعوك. أسمعت يا أنطوانيت؟ ماذا ستقولين لأمك إذن؟».

خارت قواي، وأجبته بما كان يريد أن يسمع: «سأقول لها بأنّني ضاجعت إنجليزياً، وأنّه اختفى».

ثمّ أمرني أن ألزم غرفتي إلى أن يفرغ من الحديث إلى أمّي، فامتثلتُ بلا اعتراض.

وبعد انتظارٍ بدا لي دهراً، سمعتُ الباب يُفتح. وراح أبي وأمي يتهامسان، لكنني لم أستطع تمييز ما دار بينهما، ثمّ سمعت أبي

ينصرف. مكثتُ في غرفتي واضعة يدي على بطني المنتفخ، وتمنيت لو يتكفّل شخص راشد بمشكلتي.

بدأ الجوع والإرهاق ينالان منّي، لكن لم يكن بإمكاني مغادرة غرفتي إلا بإذن.

ونادتني أمّي أخيراً، فنزلتُ بخجل للقائها. كانت قد حضّرت شاياً، وأنا مدينة لها بذلك، إذ ساعدني حمل الفنجان بين يدي على تفريغ توتّري، كما أنّ جرعات الشاي هدأت قليلاً من روعي. أحسستُ وأنا أحدّق في الفنجان بنظرات أمّي القاسية، وانتظرتُ أن تبادرني بالكلام.

سألتني أخيراً بصوت فاتر: «مَن الأب؟».

كنتُ مستعدة للكذب رغم علمي بأنّ ذلك لن يفيد في شيء، لكنّ أمّي لم تمهلني.

«لا تخفي عنّي الحقيقة يا أنطوانيت، فلن أغضب».

تقاطعت نظراتنا، وحاولت أن تقرأ ما أفكّر فيه. فقلت بصوت مختنق: «بابا».

فأجابت: «أعرف».

مضَت تتفرّسني بعينيها الخضراوين الواسعتين، فعلمت أنّ إلحاحها سيجعلني أعترف بكلّ الحقيقة. سألتني عن بداية ذلك، فقلتُ لها منذ أن كنّا نسكن منزل القش، وحدّثتها عن «نزهات السيارة»، لكن محيّاها ظلّ شبه جامد.

واكتفت بأن علّقت: «كلّ هذه السنوات!».

لم تسألني لماذا لم أخبرها، ولِمَ تواطأتُ مع أبي على الكذب عليها. بعد ذلك بأشهر سأتذكّر هذا الأمر، وسيكون لي فيه رأي خاص.

سألت: «هل علم الطبيب بالأمر؟».

فأجبت: «نعم»، وأخبرتها بأنّه يريد لقاءها.

لم يخطر على بالي أنّ جوابي عن سؤالها الأخير سيوشك أن يكلّفني حياتي لاحقاً. وسألتني ما إذا كنتُ أخبرت شخصاً آخر، فأجبتها بالنفي وأنا أحاول محو ذكرى زيارتي لإيزابيل من ذهني.

قامت وقد بدا عليها الارتياح وقصدَت الهاتف. التفتت إليّ بعد محادثة قصيرة وقالت: «سيستقبلني الدكتور بعد فراغه من فحص المرضى. أما أنت فامكثي في البيت». ثم لبسَت معطفها وغادرت.

بقيت متسمّرة على مقعدي كالمغشيّ عليها، لا أقوم إلّا لإضافة الحطب للنار أو مداعبة جودي بين الفينة والأخرى. وظلّت الكلبة الصغيرة بجانبي طوال فترة انتظار أمّي التي طالت.

وسمعتُ فجأة صوت المفتاح. دخلت أمّي إلى البيت رفقة الطبيب، وراحا يتداولان بشأني حوالي ساعة من الزمن، ثمّ صدر الحكم: لزوم الصمت. سيلتحق أبي بالمشفى لبضعة أيام لعلاج «حالة الاكتئاب»، وسأجهض أنا بطريقة مشروعة، ثم أُحالُ بتوصية من الطبيب على دار الأطفال الذين يعانون من مراهقة صعبة. سأبقى هناك إلى أن أبلغ سنّ مغادرة المدرسة، عندئذٍ سيبحثون لي عن شغل. لقد غدا العيش مع أبي تحت سقف واحد مستحيلاً، لكن بانتظار أن يحين وقت الإجهاض، ستتّخذ الحياة مجراها كما لو أن شيئاً لم يقع. أمّي هي من أعلنت لي عن هذه القرارات التي باركها الطبيب بصمته. وأضافت إنّ الطبيب أخبرها بأن هذا هو الحلّ الوحيد. ومضيتُ أتابعها متعبة ومذهولة وهي تسرد إجراءات تضع حدّاً للحياة الوحيدة التي نشأت عليها.

ثمّ خاطبني الطبيب مباشرة: «ما قبلتُ مساعدتك إلّا لأجل

أمّك، فهي ضحية لا ذنب لها في هذه الحكاية. كذبت عليّ هذا الصباح، وأوهمتني أنّ ذلك لم يقع غير مرّة واحدة». ثمّ صمت لحظة ورشقني بنظرة ازدراء، واسترسل يقول: «شاركت في ذلك الفعل وشجَّعت عليه بصمتك لسنوات، فلا تزعمي الآن أنّك بريئة».

ثمّ تركنا أنا وأمّي رأساً لرأس. انتظرت عبارات تشجيع من جانبها، لكنّها لم تقل شيئاً. وبعد أن ضِقتُ ذرعاً بصمتها، صعدتُ إلى غرفتي لأنام من دون أن آكل شيئاً.

ومرّت الأيام الموالية كما لو غشاها ضباب. رُتِّب موعدان مع دارين اثنتين للمراهقين. لم أنطق بكلمة خلال المقابلة. فقد صرت أُعتبر مراهِقة صعبة، حبلت بطريقة غير مشروعة.

اجتزتُ إثر ذلك مقابلة قصيرة مع لجنة أطباء استجوبوني لتقرير مصيري ومصير الجنين. أجمعوا على قرار الإجهاض وبرّروه بـ«عدم استقراري العقلي»، وحدّدوا مكانه في مشفى مدينة مجاورة حفاظاً على السرية. سأعرف لاحقاً أنّ إيرلندا الشمالية كانت تعارض في نهاية الخمسينيات الإجهاض بدعوى أنّ عمل الأطباء والممرّضات هو إنقاذ حياة الناس لا سلبها منهم.

وفي انتظار خضوعي «للعملية»، كما كانت تسميها أمّي، تواطأ والداي ذلك الأسبوع على تجاهلي. وحين حلّ موعد تخليص جسدي من الدليل على إثم والدي، انصرفت أمّي للعمل كعادتها بينما حملت أنا بعض الأغراض وركبتُ الحافلة إلى المشفى.

استقبلتني ممرّضة بوجه متجهّم، وقادتني إلى غرفة بها سرير ومنضدة صغيرة. أدركتُ من دون أن أسأل سبب عزلي هنالك. فقد كنت في مصلحة الولادة، والقائمون على المشفى حرصوا على أن تتمّ العملية في سرّية تامة. جاءتني الممرضة في الساعة الثامنة من

صباح اليوم اللاحق، وقالت وهي تضع حوض ماء وموسى حلاقة قرب سريري: «ينبغي أن تستعدّي. جرّدي نصفك السفلي من الملابس».

كانت هذه الكلمات هي كلّ ما نطقت به. حلقَت ما بين فخذي من دون أدنى حذر، ثمّ تناولت الحوض والموسى وغادرت الغرفة. عادت في وقت لاحق وحقنت سائلاً في خاصرتي، فغشيتني غيبوبة على الفور. تُقتُ لأن أرى أمّي، ولأن أسمع بأن العملية ستتمّ على ما يرام. وددتُ لو أعرف ما سيفعلون بي، إذ لم يحدّثني أحد في الأمر. رغبت على الخصوص أن يمسك أحد بيدي. فقد ساورني خوف رهيب. ولحسن حظي غلبني النوم.

شعرتُ وأنا بين اليقظة والنوم بأيادٍ تلمس جسدي، وسمعت صوتاً يقول لي: «هيّا يا أنطوانيت، ينبغي أن تستلقي على العربة»، ثمّ قلّبوني ولفّوني بغطاء. تحرّكت العربة ثمّ توقفت فأبصرتُ نوراً قوياً من خلال جفني المغمضين. وضعوا شيئاً على أنفي، ثمّ طلب مني صوتٌ أن أعدّ عدّاً تنازلياً. وكلّ ما أذكر هو أنني ناديت أمي قبل أن أفقد الوعي.

أيقظني إحساس بالغثيان لم أشعر بمثله من قبل. ولاحظتُ أنهم وضعوا صحناً معدنياً على منضدة سريري، فالتقطته لأتقيّأ فيه. لم أستطع حبس دموعي، وقضيت برهة وأنا أتساءل عن المكان الذي أوجد فيه، ثمّ لملمت أفكاري ونظرت بين فخذي فرأيت ضمادة، فعلمت أنهم أسقطوا الجنين.

عاودني النوم ولم أستيقظ إلّا لمّا جاءتني الممرضة بشاي وساندويش وضعتهما على المنضدة، ولاحظت أنّهم استبدلوا الصحن المعدني، وتساءلت عن المدّة التي قضيتها نائمة.

قالت بنبرة متكلفة وهي تنصرف: «اشربي شايك يا أنطوانيت».
ثمّ التفتت إليّ ورشقتني بنظرة عدائية وهي تضيف: «آه، لعلّ أمر الجنين يهمّك، إنّه ولد».

غادرت، فإذا بالجنين يصير بالنسبة لي شخصاً واقعياً. بقيتُ مستلقية على السرير من دون أن أجد شهيّة للأكل ورحتُ أفكر في الجنين الذي مات قبل أن يغالبني نوم مضطرب حلمت خلاله أنّني أسقط.

أتتني ممرّضة عند فجر اليوم الموالي بشاي وخبز مشوي وبيضة مسلوقة. كنت أموت جوعاً، فالتهمت كلّ ذلك. عادت بعد إفطاري، فعلّقت وهي ترى الطبق فارغاً وقد بدت على وجهها علامة استنكار: «أرى أنّ ما وقع لم يؤثر على شهيّتك»، ثمّ أخبرتني بامتعاض بأنّني أستطيع مغادرة المشفى بعد زيارة الطبيب.

«- هل من أحد يرافقك؟

- كلا».

وواجهت جوابي بابتسامة هازئة.

كنت أشعر بأنّني متسخة، فسألتها إنْ كان بإمكاني أن أستحمّ وأغسل شعري.

«ستأتيك ممرضة بالماء لتغتسلي. استحمي لمّا تعودي إلى بيتك. ثم لا يبدو على شعرك أنّه متسخ. لعلّك مولعة بالبهرجة».
صمتت قليلاً ثمّ أضافت بنبرة بغيضة: «لو لم تكوني مولعة بالبهرجة لما كنت هنا اليوم». ثمّ انصرفت.

كنت أشعر بألم في بطني، لكنّها لم تفسح لي الفرصة لأطلب منها شيئاً. اغتسلتُ بحوض الماء الصغير الذي أتتني به ثم ارتديت ملابسي، ورحت أنتظر الطبيب الذي أجهضني.

لمّا جاء، وكانت ترافقه ممرضة، بالكاد نظر إليّ، ولم يسألني عن حالي، واكتفى بأن قال إنّني أستطيع مغادرة المشفى، فتناولتُ متاعي وغادرت قاصدة محطّة الأوتوبيس.

23

شيء ما أيقظني من النوم. كان الظلام دامساً في الخارج، وبدا كل شيء هادئاً في غرفتي. بقيتُ لبضع ثوانٍ أفكّر فيما قد يكون قطع نومي. لم يكن جسدي يرغب إلّا في العودة إلى النوم، أمّا فكري فظلّ يقاوم لكي أظلّ يقظة. عندئذٍ شعرتُ بشيء لزج بين ساقي. مددتُ يدي إلى منامتي فسحبتُها مبللة بسائل دافئ. اعتدلت على السرير وقد انخلع قلبي، ثمّ سرتُ مترنحة لأدير مفتاح النور.

نشر المصباح العاري المتدلّي من السقف ضوءاً أصفر على الملاءة الملطّخة بالدم، ونظرت إلى أسفل منامتي من دون أن أفهم ما وقع، فوجدته مبللاً أيضاً. كانت أصابعي تلتصق والدم يسيل بين فخدي، فمضيتُ أصرخ وأنادي أمّي.

جاءت على الفور، ولمّا رأت المشهد، أمرتني بأن أستلقي في الفراش. لحق بها أبي في منامته المكمّشة، وعيناه منتفختان. غمغم قائلاً: «ماذا جرى؟ ما هذه الجلبة؟».

أشارت إليّ أمي بإيماءة دالة على الاشمئزاز.

قال لها بصوت لمستُ فيه شيئاً من الخوف: «ينبغي أن تنادي على سيارة إسعاف».

أجابته: «سأتّصل بالطبيب. سيقول لنا كيف نتصرّف».

تشوّشت حواسي إثر ذلك، وجاءني صوت أمّي كما لو كان خلف ستار وهي تنزل السلم وتتحدّث في الهاتف، ثمّ سمعت بعد لحظات صوت الطبيب، ففتحت عيني، وبالكاد ميّزت طيفه.

سمعتهما يتحدّثان كما لو أنّني في حلم. قال لها: «حالها سيئ، ينبغي نقلها إلى المشفى. يتعّين عليك يا روث أن تقرري أيّهما، مشفى المدينة أم المشفى الذي خضعت فيه للعملية».

ثمّ خيّم الصمت، وأحسستُ كما لو غشيني ضباب وأنا بين اليقظة والنوم. وسمعت أمّي تطلب من أبي أن يبقى في غرفة نومهما، ثمّ صوت الطبيب يتحدّث إلى أمّي خلف باب غرفتي، وأدركت بلا وجل أنّني أموت.

مزّق صوت حاد فجأة الضباب الذي كان يلفّني. إنّه صوت صفارة الإسعاف، ولمحتُ من خلال نافذة غرفتي ضوء مصباحها الدوار الأزرق. حملتني أيدٍ برفق ووضعتني على نقالة أحسستُ بها تهتزّ عند نزول كلّ درج من أدراج السلم، ثمّ أودعتني بسيارة الإسعاف، فانطلقت بصخب على الفور.

رأيت أمّي والطبيب واقفين ينظران إلى باب سيارة الإسعاف وهو يُغلَق عليّ. وهي صورة نُقشت في ذاكرتي إلى الأبد.

يبعد المشفى الذي اختارته أمي بعشرين كيلومتراً تقريباً، والطريق التي تقود إليه ضيّقة وملتوية. ذلك أن الطرق السريعة لم تكن قد ظهرت بعد في منطقة كولراين.

كنت أتجمَّد من البرد مع أن جسدي كان يتصبّب عرقاً، والنزيف على أشدّه. بدأت تتراقص أمام عيني بقع سوداء، وشعرتُ بطنين في رأسي بحيث صرتُ بالكاد أسمع صوت صفّارة الإسعاف.

أخذَت يدٌ تداعب رأسي، وحين أمسكتْ بيدي فجأة، هزّ تشنّج قويّ جسدي، وشعرتُ بالصفراء تسيل من بين شفتي.

صاح صوت: «يا للهول، أسرع!» فضاعفت السيارة من سرعتها، وسمعت أحدهم يصدر تعليماته بحُنْق من خلال جهاز تولكي- وولكي.

سمعته يقول: «ابقي صاحية يا أنطوانيت، لا تنامي». ثمّ توقفت سيارة الإسعاف بغتة، وسُمع لعجلاتها صرير صاخب. أُخرِجت النقالة، وحملتني سواعد سريعة، فبهرني ضوء ساطع، وأحسستُ بإبرة تُغرز في ذراعي. كفّت عيني عن التركيز على الأشكال البيضاء التي كانت تحيط بي.

لما استيقظت، رأيت طيفاً أزرق بجانبي، وتعرّفت على عينيّ الممرّضة الكستنائيتين، لكنهما بدتا هذه المرّة كما لو تخلّصتا من نزوعهما العدائي. راحت تنظر بعين الشفقة إلى مريضة محتاجة لعنايتها. داعبت شعري بلطف، ومرّرت منديلاً مبلّلاً على وجهي بعد أن تقيّأت في إناء كانت تحمله.

كان ثمّة كيس شفاف مليء بالدم معلّق بطرف قضيب معدني، وموصول بذراعي.

سألتني مذهولة: «لماذا جاؤوا بك إلى هنا يا أنطوانيت؟ لماذا لم يحملوك إلى أقرب مشفى». وخيّل إليّ أنها تعرف الجواب.

أغمضتُ عيني من دون أن أجيب عن سؤالها، لكن عاودتني صورة أمّي تنظر إلى المسعفين وهم يحملونني إلى ما ظنّته مثواي الأخير. أدركتُ ذلك، لكنّني قاومت لكي لا أصدقه. أجهدتُ نفسي من أجل أن أزيح هذه الصورة وأودعها في علبة حرصتُ على أنّ تظل مُحكمة الإغلاق.

سمعتني أصيح في الملجأ: «كفى!» مُحاولةً إخراس همس الطفلة. «كفى! لا أرغب في فتح تلك العلبة».

فأجابني الصوت الملحاح: «بلى يا توني، ينبغي أن تتذكّري كلّ ما مضى». وشعرت بنفسي ممزّقة بين عالمين: العالم الذي عاشت فيه أنطوانيت والعالم الذي أعدتُ خلقه. إلّا أنني لم أعُد أملك خياراً: لا بدّ من وضع حدّ لهذه اللعبة التي قبلتُ المشاركة فيها، لعبة «ابنة الأسرة السعيدة».

انفتحت العلبة، فلاحَ لي من جديد وجه أمّي إلى جانب الطبيب خلف باب سيارة الإسعاف الذي انغلق عليّ.

لمّا استيقظت ثانية، وجدت الممرّضة ما زالت بجانبي. وسمعتني أسألها: «هل سأموت؟».

أحنت عليّ وأمسكت يدي وضغطت عليها بلطف. «كلا يا أنطوانيت، لقد خفنا عليك، لكنّك الآن بخير» ثمّ سوّت غطائي، فغططتُ في نوم عميق.

قضيت يومين آخرين في المشفى. يزورني الأطباء من وقت إلى آخر، ويقولون لي كلاماً لطيفاً، ثمّ ينصرفون. ترقّبتُ زيارة أمّي، لكن عبثاً.

لم آكل شيئاً ممّا قدموا لي من طعام. انقطعَت شهيّتي بسبب ما انتابني من حزن، وما شعرتُ به من نبذ. وعادت الممرضة في اليوم الثالث، جلسَت بجواري وراحت تداعب يدي بلطف.

«ستعودين إلى البيت يا أنطوانيت هذا اليوم» ثمّ صمتَت، فأحسستُ بأنّها تريد أن تُسرّ لي بشيء. «ما كان عليهم أن يخضعوك

لهذه العملية لأنّ حملك متقدّم». لمستُ لأوّل مرّة في صوتها أنّ غضبها غير موجَّه إليّ. «كنت ستموتين يا أنطوانيت. لقد بذل الأطباء جهداً كبيراً لإنقاذك، لكن ينبغي أن أخبرك بأمر». تردّدت، وأخذت تنتقي ألفاظها حتّى تخفف عليّ وقع ما ستتفوّه به. «اسمعي يا صغيرتي، مهما كان خطؤك، فأنت لا تستحقين كلّ هذا. لن تستطيعي الإنجاب في المستقبل يا أنطوانيت».

تطلّعتُ إليها في البداية باستغراب، ثم اتَّضحت معاني الكلمات فجأة في ذهني. لقد انهار حلمي بأن تكون لي ذات يوم أسرة أحبّها وتحبّني. وأدرتُ وجهي لكي لا تلاحظ ما شعرت به من خواء في تلك اللحظة.

عادت في وقت لاحق من الصباح، وقالت لي بصوت مرح بادي التكلّف: «تعالي يا أنطوانيت، ينبغي أن تستحمّي قبل العودة إلى البيت». وأدركتُ على نحو غامض أنّها ما زالت تخفي عنّي شيئاً، لكنّ التعب صرفني عن مجاراة فضولي، وتبعتها في صمت.

رُحت أدعك في حوض الحمام رأسي لعلّني أخلّصه من كلّ الذكريات التي كنت أشعر بأنّها تدنّسني. ثمّ ارتديتُ ملابسي بفتور. بدت فضفاضة على جسمي المهزول.

استعدتُ حقيبتي التي كانت تحوي سروالاً وقميصاً ولوازم نظافة وشيئاً من المال. لا بدّ أنّ أمّي هي مَن هيأتها، لكن قيل لي إن الطبيب هو مَن أتى بها.

لممتُ أغراضي وتركتُ المشفى لأركب الحافلة الأولى ثمّ الثانية إلى البيت. شعرتُ أنّ أسرتي تخلّت عنّي. كانت سيارة أبي مركونة أمام البيت بجوار سيارة أخرى لا أعرف صاحبها.

فتحت الباب بتوتّر فوجدت والدي بانتظاري بصحبة الطبيب

الذي بادرني: «اتصلت الأستاذة صديقتك بالمصالح الاجتماعية، فنادوا على البوليس. سيحضرون إلى هنا حالاً».

ثمّ خيّم الصمت. شعرت بنفسي واهنة ومريضة ورأسي يكاد ينفجر تحت الضغط المتصاعد. وسُمع هدير سيارة. قامت أمّي من مقعدها برباطة جأش وفتحت الباب.

وبينما كان رجال الشرطة يدخلون إلى البيت، بادرتهم: «حين تريدون الحديث إلى زوجي أو ابنتي في المستقبل، من الأفضل أن تأتوا في سيارة عادية لا تحمل علامة الشرطة. فأنا لا ذنب لي، وأرفض أن أوضع في موقف حرج أمام الجيران».

حدجها الشرطي الذي قدّم نفسه باعتباره الضابط المكلّف بهذه القضية بنظرة مبهمة، واكتفى بأن تلا على أبي حقوقه. ثمّ رجانا أن نتبعه أنا وأبي وكذلك الشرطية رفيقته. طلب من أمّي ما إذا كانت ترغب في حضور استجوابي بما أنّني لا أزال قاصراً، فرفضت. وأخبرها بأن مساعدة اجتماعية ستحلّ محلّها.

رافقنا الشرطيان إلى سيارتهما. كانت تلك هي نهاية الكابوس، لكنّني كنت واثقة بأنّ كابوساً آخر بدأ. غير أنّني ما تخيّلت بأنه سيكون أفظع من الأول.

24

مضى عليّ في الملجأ ثلاثة عشر يوماً، وصوت عربة الإفطار لم يعُد ينبئ بالفسحة التي أخلو فيها إلى نفسي، إذ صار عليّ أن أقوم بمهمة مضنية: إطعام أمي بالملعقة. كنت أبدأ بوضع فوطة حول عنقها، ثمّ أرفع الفنجان إلى شفتيها لتشرب شايها. كانت تبقى جالسة في سريرها وقد شبكت يديها وهي تحدّق بعينيها الشاحبتين في عيني. لقد اكتملت الدائرة بانقلاب الأدوار تماماً بين الأم والطفلة. بعد ذلك أطعمها قليلاً من البيض المسلوق والياوورت بالفاكهة. وكان عليّ أن أمسح ذقنها بعد كلّ ملعقة.

بعد الإفطار، يقوم الأطباء بجولتهم الأولى. كان لسان حالي يسألهم: «كم سيدوم هذا الوضع؟»، لكنّ وجوههم لم تكن تفصح عن شيء.

صارت زيارات أبي في تلك الفترة هي التي تضبط أوقات يومي. ما أكاد أسمع وقع خطواته في الممرّ حتى أقوم وأذهب إلى الصالون لأشرب قهوتي وأدخّن بعض السجائر. توجّهت ذات يوم كعادتي إلى هناك، لكنّه لم يكن بإمكاني للأسف أن أستمتع بلحظة الخلوة، لأنّ امرأة كانت جالسة هناك تدخّن سيجارتها وقد وضعت كتاباً على ركبتيها.

ابتسمت في وجهي بحياء وقدّمت نفسها: تُدعى جان. خلال حديثنا اكتشفتُ بأنّها تنام مثلي في الملجأ. زوجها يُحتضر بسبب سرطان عظام انتقل إلى المخ، بالكاد يتعرف عليها. كانت تعيش نهاية حياة زوجية سعيدة، وهي تحرص على أن تبرهن لزوجها المحتضَر على حبّها له. كانت محنتها بادية على وجهها.

أُعجبتُ بشجاعتها: كانت تتهيّأ لتوديع حياة عاشتها، بينما كنت أنا على وشك العودة إلى حياتي المعتادة.

وبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث، انسقنا إلى الأسئلة المحتومة التي يطرحها كلّ شخصين مقبلين على التعارف، رغم علمنا بأنّ علاقتنا لن تعمّر طويلاً. سألتني عن اسمي العائلي والمنطقة التي أنحدر منها، فأجبتُها من دون رويّة.

هتفتْ وقد غمرتها فرحة العثور على جامع بيننا: «يا لها من صدفة! أنا أيضاً من كولراين، وصورتك ليست غريبة عنّي. أليست لك ابنة عمّ تدعى مادي؟».

مضت سنوات على لقائي بعائلتي الإيرلندية، وأثار سؤالها في نفسي ذكريات عن كولراين. وبينما كنت أبحث عن صيغة ذكية لأجيبها، بدا عليها الضيق فجأة. أيقنتُ بأنّها عرفتني. ذلك أنّ العلاقات التي يمكن أن تنسج في أمكنة كهذه تشبه سفناً تعبر خلال الليل. تظهر لتقدّم لك يد المساعدة في لحظات الشدّة، ثمّ تختفي. لهذا السبب لم يزعجني بتاتاً هذا الموقف. أجبتها ببساطة: «إنّها ابنة عمّ أبي».

حوّلت جون نظرها فوق كتفي، فشعرتُ بحضور أبي من دون أن ألتفت. داهمني الموقف، فسارعتُ إلى تقديمهما لبعضهما.

حيّاها أبي وحدجها بنظرة متفحّصة ردّت عليها بنبرة مرحة بادية التكلّف: «تشرفنا! كنا أنا وابنتك نتحدث عن كولراين. أنا وزوجي ننحدر من كولراين أيضاً».

وخيّم صمت ثقيل بعد ملاحظتها البريئة، ثمّ ردّ أبي بجواب لبق: «سررتُ بلقائك. المعذرة، ينبغي أن أتحدّث إلى ابنتي».

شدّ مخالبه حول ذراعي، وسحبني إلى أبعد ركن عن جون في الغرفة، ثمّ حرّر ذراعي فجأة. نظرتُ في عينيه، العينان الكئيبتان اللتان فقدتا أثر الرجل العجوز الحزين السيئ الذي كانه قبل أيام، ظهرتا من جديد، وأطلّ عليّ وجه الأب القاسي الذي عرفته في طفولتي. ما عدتُ أرى الرجل الذي شارف على الثمانين، بل الرجل الغاضب الذي بعثوا به إلى السجن عشية إكماله الأربعين. كان الأمر أشبه بانهيار جَرَفَ معه «أناي» الراشدة، وأيقظ في أعقابه الكائن الصغير المرعوب الذي كنته في الماضي.

قال بنبرة مهدّدة: «لا داعي للحديث عن شؤوننا الخاصة يا صغيرتي. ليس ثمّة داعٍ لكي تقولي إنك عشت في كولراين. لا تذكري المدرسة التي كنت تتردّدين عليها هناك، أسمعت يا أنطوانيت؟».

حرّكت الطفلة الصغيرة التي كانت تعيش بداخلي رأسها وهمست: «نعم».

كانت «أناي» الراشدة تدرك مع ذلك بأنّ وقت كتمان الأسرار التافهة قد ولى. ذلك أنّ والدَيّ كانا دائمَي الخوف من أن يتعرّف الناس عليهما إن خرجا من عالمهما الصغير، وها هو خوفهما يجد ما يبرّره.

سعيت جاهدة للاستنجاد بتوني، امرأة الأعمال الناجحة، لكي أسيطر على ما حفلت به طفولتي من خوف وكراهية. ثمّ رشقت أبي بنظرة ازدراء وانصرفت.

لما عدت إلى غرفة أمّي، أبصرت باقة ورد طرية في المزهرية قرب سريرها. كانت تبسم كعادتها لمّا يزورها زوجها، وأومأتْ باتجاه المزهرية. «انظري ماذا جلب أبوك يا عزيزتي».

قلت في نفسي بمرارة: لنواصل لعبة الأسرة السعيدة! لكنني كنت لا أزال أشعر بضغط أصابعه على ذراعي حين قبلت تقمّص دور الفتاة المطيعة.

لم نعُد بحاجة إلى التنقل مراراً بين السرير والحمام، ذلك أنّ كيساً من البلاستيك وأنبوباً جعلا هذه الحركة متعذّرة. عوض ذلك، كنت أساعد أمّي في سريرها: أنظّفها وأضع الوسائد خلف رأسها، وهو ما كان يرهقها، فتغطّ في النوم. عندئذٍ كنت أستطيع أن أفتح الكتاب، وأحاول الهروب بواسطة القراءة في انتظار العربات التي تجلب الشاي ثمّ العشاء فالأدوية المسكّنة للألم. بعد الفراغ من كلّ هذا، يصير بإمكاني مغادرة غرفة أمّي.

وبينما كنت جالسة في الصالون ليلة اليوم الثالث عشر، أخذَت دموعي تنهمر، فمسحتها بغضب. لم أعُد أستطيع السيطرة على ذكرياتي. داهمني سيل عارم من الصور التي تعود إلى سنة 1959. ففي هذه السنة توقّف كابوس وانطلق آخر.

انشطر كياني إلى نصفين راحا يتنازعان تلك الليلة حول أيّهما يسيطر: الطفلة المرعوبة التي تعيش بداخلي أو المرأة الناجحة التي صرتها بعد كفاح. التبست الأمور في ذهني، وانتابني شعور مألوف بالانهيار مع أنّني كنت يقظة هذه المرّة. شعرتُ بضيق في صدري،

ووجدت صعوبة في التنفس. شعرت بيدٍ تلمس كتفي فجأة وصوت يسأل: «هل أنت بخير يا توني؟».

إنّها جون التي راحت تنظر إليّ بقلق. قلت في نفسي: كلا، لستُ بخير، أرغب في البكاء، أرغب في الدعم والمواساة. لقد أرهقتني هذه الذكريات.

أجبتها وأنا أمسح دموعي: «أنا بخير». ثمّ غلبني الفضول. «إنك تعرفين مَن أكون، أليس كذلك؟».

حرّكت رأسها وهي تنظر إليّ بعينين تنضحان لطفاً. شدّت على كتفي بحنان ثمّ عادت إلى حيث يرقد زوجها.

وانهالت عليّ الذكريات كموجة جارفة كادت تغرقني. ذلك أنّ القناع الذي أخفيتُ خلفه الطفلة الموجودة بداخلي تمزّق. لم أعُد المرأة الناجحة التي صِرتُها بعد كدّ. توارت بالتدريج، خلال الأسبوعين اللذين قضيتهما في الملجأ، تلك المرأة المفعمة بالثقة خلف أنطوانيت، الدمية الوديعة المطيعة لوالديها.

فقدتُ كثيراً من وزني، ولمّا نظرتُ إلى صورتي في المرآة، رأيت عيني أنطوانيت المطوّقتين بهالتين سوداوين، تحدّقان فيّ بنظرة مرعوبة قلقة تهدّد بإغراقي.

تهيّأ لي بعد أن عجزت عن التخلّص من ذكرياتي بأنّ ماضيّ يجرفني، وأنّ توازني العقلي في خطر، مثلما حدث لي مرتين قبل ذلك. وَحَدَتْني من جديد رغبة جامحة في اجتياز الخط الأحمر، لأنّ الأمان موجود في ذلك الجانب، أمان لا يتحمّل فيه المرء أيّ مسؤولية، ولا يكون له أي سلطان على حياته، لأنه يسلم مقاليدها لشخص آخر ويعيش كطفل. بعد ذلك بإمكانه أن يتكوّم وأن ينتظر أن يصير دماغه فضاء بكراً خالياً من كلّ الكوابيس.

كنت أنام في غرفة أمّي أحياناً، وأحياناً أخرى في سرير نقّال بمكتب الطبيب. وكانت الكوابيس توقظني كلّ ليلة. كنت أجدني عاجزة لا أقوى على السيطرة على نفسي. كانت هذه الأحلام تدقّ ناقوس الخطر: فـ «أناي» الراشدة تنتكص. كنت بحاجة إلى مساعدة فورية. لا أريد أن يحدث لي ذلك مرّة ثانية، ولن أتركه يحدث.

قصدتُ القس. أدخلني إلى مكتبه وهو يبتسم ابتسامة عريضة. لعلّه حسب أنّني سأمنحه فرصة لتبادل المعلومات مع الأطباء. توهّم أنّ ذلك اليوم هو يوم سعده.

بعد جهد جهيد قلت وأنا أجلس: «أنا بحاجة إلى الكلام». لاحظ فوراً أنّ المرأة التي أمامه ليست هي المرأة الرزينة المسيطرة على نفسها التي التقاها سابقاً. أدركتُ من نظرته القلقة أنّه كان يتوقع أن حديثي معه لن يكون حديث امرأة تُحتضر أمُّها. فأمّي عاشت حياة مديدة، وأنا كانت أمامي سنة كاملة لكي أتهيّأ لرحيلها المحتوم بسبب مرض السرطان. كان يعلم بأنّ هذا ليس هو سرّ رغبتي في الكلام.

هو مَن نادت عليه أمّي مراراً في جوف الليل لتعترف له بذنوبها من دون أن تجد الشجاعة لذلك. لكن كيف لها أن تعترف بشيء طالما رفضت الإقرار به؟ وتنبّهت إلى أنها ستموت من دون أن تراجع يقينياتها. ستثبت على وهم أنّها كانت ضحية، ولن تترك ذرّة شك تتسرب إلى نفسها بهذا الخصوص.

راح القسّ ينتظر أن أشرع في الحديث. أشعلتُ سيجارة بيدٍ مرتعشة، وحكيت له قصّتي بصوت مرتبك. قلت له إنني أحسّ بالمشاعر نفسها التي شعرتُ بها لمّا كنت طفلة، لكن يخالطها إحساس أشبه بالخزي. الخزي من أنّني تركتهما يتحكّمان في حياتي

كلّ تلك السنين. فإذا كانت أمّي وضعت قواعد لعبة «الأسرة السعيدة» منذ طفولتي المبكرة، فقد حافظتُ على تلك الأسطورة حتّى وأنا راشدة.

وسألته: لماذا فعلتُ ذلك؟ لماذا صنعت لنفسي ماضياً يحبّني فيه والداي؟ لماذا كذبت على نفسي ولم أجد قطّ الشجاعة لكي أتحرّر؟

سأل: «ماذا كان المانع في نظرك؟» ثمّ تركني أبحث عن جواب في صمت.

قلت: «وددتُ أن أكون كسائر الناس لمّا يتحدثون عن طفولتهم». ثمّ أضفت: «كنت أريدهم أن يروني أسافر إلى إيرلندا الشمالية لزيارة عائلتي، العائلة التي أنتمي إليها».

«وهل حصل ذلك؟ أما زلتِ تشعرين بالانتماء إلى تلك العائلة؟».

وتذكّرت الأشياء التي سمحتُ بها وسلّمتُ بها من دون أن أضعها يوماً موضع شكّ.

«كلا لقد أغلقوا بابهم في وجهي ذات يوم، ولم أرهم منذئذٍ. فجدّي وجدّتي وعمّاتي وأعمامي وأبناؤهم، كانوا دائماً عائلة أبي لا عائلتي».

صمتُّ قليلاً ومضيت أتذكّر تلك المشاعر التي انتابتني جراء ما واجهته من صدود، ثمّ بحتُ بما لم أبُح به قط لنفسي: «لما كانت أحوالي تسوء وأنا مراهقة، كنت أشتاق إليهم على نحوٍ رهيب، لكنّني لم أكن أرغب في التفكير فيهم. لم أكن أرغب في الاعتراف بمقدار ما كنت أعانيه من وحدة. لم أستسلم أبداً للمرارة، لكن لمّا قالت لي جدتي بأنهم لم يعودوا يرحّبون بي بينهم، أصابني الإحباط».

صمتّ من جديد ورحتُ أتذكر المشاعر التي انتابتني في تلك اللحظات العصيبة.

«كان الأمر أكبر من مجرّد شعور بالعزلة. تخيّلت نفسي وحيدة في هذا العالم. بعد ذلك بسنوات، لمّا كانت تُقام أعراس في العائلة - وقد أقيم بعضها - كانوا يدعون أبي ولا يدعونني. لم يكن ذلك عدلاً، لكنّ ذلك لم يسُؤني. كنت راضية بإقصائي. أصدرَت العائلة قرارها بالإجماع، وهو قرار لا مجال لنقضِه. لقد نبذوني من قلوبهم من دون أن ينبذوه. حتّى جنازة جدَّتي لم أدْعَ إليها مع أن هذه المرأة أحبّتني، وأنا أيضاً أحببتها. تنكروا لي جميعهم بسبب ما اقترفه هو. لم يكن الخطأ خطئي، وأمي لم تفاتحني قط في ذلك. فقد سلّمت به.

- وماذا عن عائلتك الإنجليزية؟ كنت قريبة منهم في وقت من الأوقات.

- السنوات التي قضاها أبي في السجن، والسنوات التي أمضيتها في مشفى الأمراض العقلية خلّفت أضراراً كبيرة. ما عدتُ قادرة على التواصل معهم. كنت أتضايق منهم لأنّهم لم يكونوا يفهمون سبب مغادرتي البيت، وسبب اشتغالي في تلك الأعمال البسيطة من أجل كسب قوتي. أظن أنّهم كانوا ينظرون إليّ نظرتهم لأبي: شخصٌ أدنى منهم مرتبة اجتماعية. ثمّ كانت لدي بالطبع أشياء كثيرة أخفيها، ومن ثمة كنت أبدو لهم كتومة. باختصار، لم أكن الشخص الذي يوثق به. أعتقد أنه كان بإمكاني أن أزورهم، لكنني اخترت ألّا أفعل».

لقد استطاعت الأسرار العائلية أن تُبعِدني حتى عن جدتي الإنجليزية التي كنت قريبة جداً منها لمّا كنا نقيم بإنجلترا. لم

يخبروها بسبب توقفي عن الدراسة والتخلّي عن حلمي بالالتحاق بالجامعة الذي كنت أحدِّثها عنه بحماس. ولم ألتقِ بها إلّا في مناسبات نادرة قبل وفاتها.

مضى القسّ ينظر إليّ نظرة مفعمة باللطف، وقال: «إذن لم يكن لك في فترة المراهقة شخص تستطيعين الاعتماد عليه: لا أحد من العائلة القريبة أو البعيدة، لا أعمام ولا عمّات. لم يكن ثمّة غير أبيك وأمك». ثمّ طرح عليّ سؤالاً لم أتوقّعه: «أكنت تحبينهما؟

- كنت أحبّ أمي. وحبّي لها لم يتغير أبداً. أمّا أبي، فلم أحبّه قط. لما كنت طفلة صغيرة، لم يكن يقيم معنا، كان بالنسبة إليّ مجرّد زائر يأتيني بالهدايا. كان بوسعه أن يبدو جذاباً إذا أراد، لكنّه كان دائماً يخيفني. ما زالت مشاعري نحوه إلى اليوم متضاربة. أرى فيه أحياناً ذلك العجوز الذي ما زال متعلّقاً بزوجته. أنا متأكدة من أنه اعتنى بها جيداً لما أصابها المرض، لكنّني لا ألبث أن أتذكّر ذلك الوحش الذي عرفته في طفولتي. وهو ما زال يرعبني إلى اليوم.

- الحب عادةٌ من الصعب التخلّص منها. اسألي النساء اللواتي تحمّلن علاقة مؤذية لفترة طويلة رغم اقتناعهنّ بفشلها. والنساء اللواتي تنجحن في العثور على ملاذ خارج بيوتهن، يعدن في الغالب إلى العيش مع أزواجهن رغم تعنيفهن. لماذا؟ لأنهن متعلّقات، ليس بالرجل الذي يعنّفهنّ، بل بذاك الذي اعتقدن أنهنّ تزوّجنه. ستواصلن البحث عن هذا الرجل إلى الأبد. إنّ علاقاتك الوجدانية تعود إلى مرحلة طفولتك المبكرة: شكّلتها العلاقة بين الأم والبنت. لو كان أبوك قاسياً مع أمك، لاستطعت ولا شكّ كرهه، إلا أنّ الأمر لم يكن كذلك. لقد جعلتك أمك تتوهّمين، مثلما كانت هي نفسها تتوهّم، بأنّها ضحية تصرّفاتك. ثمّة صراع بين مشاعرك

وعقلك. أنت تنوئين، من الناحية الوجدانية، بما كنت تشعرين به من ذنب في طفولتك، لكنّك تعرفين من الزاوية العقلية بأنّ والديك لا يستحقانك، وأنت لا تستحقينهما بالطبع، إذ لا يمكن أن يستحقّ طفل ما قاسيت. أنا رجل دين، أدعو للمغفرة، لكن عليك يا توني أن تنظري إلى الأمور كما هي، ينبغي أن تقبلي الدور الذي لعبه والداك، ولا سيما أمّك، لكي تتحرّري. هذا هو ما لم تنجحي أبداً في القيام به».

بدا الأمر كما لو أنّ كلماته هدمت كلّ الأسوار التي رفعتها حول الحقيقة، فحرّرت بذلك سيلاً جارفاً من الذكريات. قلتُ له إنّ أمي كانت تكرّر دائماً أن عليّ أن «أتفاهم مع أبي»، و«أنّها عانت ما فيه الكفاية»، وأنّها «لا تتوقّف عن تناول المسكنات» من أجل تهدئة أعصابها، وأنني «أتسبّب لها في المشاكل باستمرار».

«كنت أخشى الاتصال هاتفياً بالبيت، ومع ذلك كنت أتّصل كل أسبوع تقريباً رغم علمي بأنّها ستواجهني باللازمة نفسها: «انتظري يا عزيزتي، أبوك يودّ أن يتحدّث إليك»، وطوال كلّ هذه السنوات، جاريتُها في لعبتها خوفاً من فقدان حبّها إنْ أنا أجبرتها على النظر إلى الحقيقة كما هي».

أسررتُ له في الأخير بأنّني لم أكشف لأحد أبداً عن شعوري نحو أنطوانيت، تلك الطفلة التي كنتها في الماضي.

«لو سمحوا لها بأن تنمو على نحو طبيعي لكانت مختلفة تماماً عمّا هي عليه اليوم. لكانت التحقت بالجامعة، وكان لها أصدقاء. لكنّها لم تُمنح الفرصة. في كلّ مرّة كنت أواجه فيها الإخفاق، ألقي باللائمة على طفولتي. لمّا كنت لا أزال شابة، سيطرت عليّ من جديد، فعشت كلّ مشاعرها مرة ثانية. هذه هي الفترة التي أقمتُ

فيها علاقات غرامية فاسقة، وفيها أيضاً استعدت علاقتي برفيقة الطفولة: زجاجة الكحول. طيلة حياتي وأنا أصارع هذه العفاريت، وكثيراً ما كنت أتغلّب عليها، أمّا الآن فلها الغلبة».

امتلأت المرمدة عن آخرها. وبينما كنت أتقدّم نحو التسليم بالحقيقة، بدأت الأمور تتّضح في ذهني.

«لم تحبّني قط، وهي اليوم بحاجة إليّ لكي تموت في سلام من دون أن ينهار حلمها: الحلم بزوج يهيم بها، وحياة زوجية سعيدة أثمرت طفلة. أمّا أنا فمجرد ممثلة في الفصل الأخير من مسرحيتها. هذا هو الدور الذي أوكلت إليّ الآن.

- هل ستحطّمين هذا الحلم؟».

تراءت لي صورة أمّي المهزولة المحتاجة إليّ، تنهّدت وأنا أقول: «كلا، كيف لي أن أفعل؟».

25

طلبوا مني في مخفر الشرطة الانتظار في غرفة ضيّقة تؤثّثها طاولة بُنّيّة وكرسيين خشبيين، كُسيت أرضيتها بمشمّع بني مشقوق، ونافذتها الوحيدة عالية لا تسمح بالنظر إلى الخارج. كنت أعلم أنّ أبي يوجد في حجرة مجاورة. رغم نهاية الكابوس، لم أشعر بالارتياح، وتكالبت عليّ الهواجس. كنت أتساءل عمّا يخبئه لي المستقبل.

فُتح الباب، ودخلت الشرطية التي رأيتها قبيل ذلك بلحظات برفقة شابة بلباس مدني. سألتني ما إذا كنت أكلت، فأومأت برأسي نافية. جلبت لي شاياً وساندويشاً وبسكويت بالشوكولاتة، ووضعتها أمامي من دون أن تفارق ابتسامة ودودة محيّاها. ورغم ما بذلته المرأتان من جهد لتلطيف الأجواء، إلا أنّ السجلات الموضوعة على الطاولة أضفت على اللقاء طابعاً رسمياً. قدّمت لي الشرطية رفيقتها: مساعدة اجتماعية تُدعى جين. سئِلتُ ما إذا كنتُ أعرف سبب وجودي هناك، وما إذا كنتُ على علم بأنّ ما أتيناه أنا وأبي يعدّ جريمة. فأجبتُ عن سؤاليها هامسة: «نعم».

شرحت لي الشرطية بلطف أن أبي يُستنطق في حجرة أخرى،

وأنّ كلّ ما عليّ عمله هو قول الحقيقة. فسّرت لي كذلك أنّ المسؤولية تقع على كاهل والدي بمفرده، بما أنّني لا أزال قاصراً، وأنّه سيُبعث إلى السجن على الأرجح.

«أنتِ لم تذنبي يا أنطوانيت، لكن ينبغي أن نطرح عليك بضعة أسئلة. هل أنت مستعدّة؟».

تفرّست وجهها، كيف لي أن أعثر على الألفاظ لأتحدّث عن سرّ حفِظْتُه لفترة طويلة؟ سرّ طالما ردّد أبي على مسامعي أنّني إن تحدّثت عنه، أدانني الجميع. وقد صدقَت نبوءته. فإفشاؤه جرّ عليّ الغضب والإدانة.

ثمّ تناولت المساعِدَة الاجتماعية الكلمة.

«أنا هنا لمساعدتك يا أنطوانيت، لكن حتّى أتمكن من ذلك، ينبغي أن تسردي علينا ما وقع بالضبط. أعلم أنّ ذلك يشقّ عليك، إلا أننا سنساعدك».

مدّت ذراعها لكي تمسك يدي بلطف «ينبغي أن تجيبي عن أسئلتنا من فضلك».

وطرحت عليّ الشرطية السؤال الأوّل.

«كم كان عمرك لمّا لمسك أبوك لأوّل مرّة؟».

وشعرت بيد جين تضغط على يدي.

همستُ وأنا أغالب الدموع: «ستّ سنوات».

مدت لي المرأتان منديلاً من دون أن تنبسا، وأمهلتاني لكي أستعيد هدوئي قبل أن تسترسل جين:

«ولماذا صمتِّ كلّ هذه السنوات؟ ألم تخبري أمّك؟!».

أصابتني حبسة وتعطّلت ذاكرتي. لم أستطع تذكّر متى حاولت

إخبار أمّي. أكانت حياتي ستأخذ منحى غير الذي أخذت لو أنني تذكّرت؟ كانوا بلا شكّ سيفصلونني عنها، وبذلك ما كنت لأعيش الوقائع التي عذبتني لاحقاً. أو لربّما استمرّ حبّي لها في التأثير عليّ والتدخّل في حياتي؟ ما زلت إلى اليوم عاجزة عن الإجابة عن هذا السؤال.

ألحّتا عليّ بلطف إلى أن بُحت بـ«نزهات السيارة»، وأخبرتهما بما كان يهدّدني به أبي من أنني إن أفشيت السرّ، سيفصلونني عن والديّ، وسيُدينونني، وستكفّ أمّي عن حبّي. تبادلت المرأتان النظرات وهما تنصتان إليّ. كانتا تعلمان أنّ كلّ ما قاله، بل وأدهى منه، سيتحقّق في اللاحق من الأيام، وأنني فقدتُ الشيء القليل المتبقّي من طفولتي.

وشيئاً فشيئاً حكيتُ لهما قصّتي. كنت أجيب عن أسئلتهما بصراحة، لكن كان من المستحيل عليّ أن أضيف معلومات أخرى. كان يلزم أن تمرّ سنوات لأستطيع الحديث عن طفولتي بحرية، من دون شعور بذنب أو خزي. سألتاني عمّا إذا لم أخَف من الحمل، فأجبتُ بأنّني كنت أظن أنّ البنت لا يمكن أن تحبل من أبيها.

مرّت الدقائق، وشعرتُ بالتعب والعجز. ذلك أنني لم أتوقف عن التساؤل عمّا ينتظرني.

سألتني المساعدة الاجتماعية: «ما مشاريعك المستقبلية؟ هل تستطيعين البقاء في مدرستك؟».

لم أستوعب على الفور مرام هذه الأسئلة، لكنني ما لبثت أن أدركت مقصدها. فالمدرسة الخصوصية التي أدرس بها تتطلّب مالاً، وأبي سيدخل السجن، وراتب أمّي لن يكفي لتغطية مصاريف دراستي. وأدركتُ بغتة هول ما فعلت. فوالداي اقترضا لشراء

المنزل، وأمّي لا تعرف السياقة. وانتابني قلق رهيب. لقد قمتُ ببساطة بتدمير حياة والدتي.

قرأت جين من نظرتي ما أفكر فيه، وحاولت طمأنتي.

«ليسِ الخطأ خطأك يا أنطوانيت. كان على أمّك أن ترتاب فيما وقع خلال هذه المدّة الطويلة».

لم أستطع تصديق ذلك. إنّه أمرٌ لا يطاق. كيف لي أن أحتمل فكرة خيانة الإنسانة التي كنت أحبّها من دون شرط أو قيد؟ وبذلك أنكرتُ بكلّ ما أوتيت من قوة أن تكون الأمور جرت على ذلك النحو، وتبادلنا من جديد نظرة تشي بمزيج من الشفقة والارتياب.

وقالت لي الشرطية: «ينبغي أن تقدّمي شهادتك في محاكمة والدك يا أنطوانيت. هل فهمت معنى هذا؟».

وقبل أن أجد الوقت لاستيعاب هذا الخبر، أضافت بأنّ أبي سيُطلق سراحه بكفالة، وأنّنا سنعود إلى البيت معاً، ثمّ انصرفَت وتركتني مع المساعدة الاجتماعية. تجمّدت في مكاني ريثما استوعبتُ ما سمعت، ثمّ تملّكني خوف شديد. وتمتمت: «لا أريد العودة إلى البيت. أرجوك».

ردّت جين بصوت حنون: «لا يمكن ألّا تعودي إلّا إذا قدّرت الشرطة أنّك في خطر. لا أستطيع مساعدتك».

مرّت دقائق ثقيلة قبل أن يفتح الباب وتعود الشرطية بصحبة رقيب، وجلسا قبالتي متجهّمين.

أعلن الرقيب: «لقد اعترف أبوك بذنبه، وهو ما سيسهّل عليك المحاكمة. ستكون محاكمة مغلقة بما أنّك قاصر. أفهمت معنى هذا؟».

أومأتُ برأسي.

«معناه أنّ المحاكمة لن تحضرها صحافة ولا جمهور. ستقتصر على الأشخاص المعنيين بها مباشرة. لم يحدّد تاريخها بعد، إلا أنها ستكون في الأسابيع القليلة القادمة. والآن سنرافقك إلى البيت صحبة أبيك».

أجهشتُ بالبكاء وقد هدّني الوهن جراء الأيام الثلاثة التي قضيتها في المشفى، ولم أعد قادرة على مواجهة الموقف من شدّة خوفي.

واستجمعتُ قواي وقلتُ وأنا أنتحب: «من فضلكم، لا أريد العودة إلى البيت». تذكّرت القسوة التي ضربني بها لمجرّد أنني لم أرتّب ملابسي، فماذا عساه يفعل بي بعد هذه الفضيحة؟ وتشبّثَت يداي بالطاولة.

نطقت الشرطية: «ليس لدينا مكان معدّ لإيواء فتاة في سنّك يا أنطوانيت. لن يؤذيك والداك. سنرافقك أنا وجون والرقيب، وستتحدّث إلى أمك».

حاول الرقيب بدوره أن يطمئنني: «لقد كلّمنا أباك، وهو واعٍ بما سيترتّب من عواقب إن لمسك مرّة أخرى».

لم ينجح كلامهم في تهدئة روعي. كنت أفكّر في غضب أمّي وازدراء الطبيب وكلّ أفعال أبي الشنيعة. كنت متأكّدة من أنّهم يعيدونني إلى بيت لم يعُد لي مكان فيه، إلى أمّ لم تعُد تحبّني ورجل يحمّلني مسؤولية كلّ ما سيحدث لأسرتنا.

أعادونا في سيارتين عاديتين استجابة لطلب أمّي. كان المنزل لا يزال مُضاء، واستقبلتنا أمّي عابسة. أذِنت لي بالصعود إلى غرفتي، وراحوا يتهامسون من دون أن أتبيّن مضمون كلامهم. كنت أتضوّر من الجوع. وتنبّهت إلى أنّني لم آكل منذ وجبة الفطور في

المشفى، باستثناء الساندويش بمخفر الشرطة. تساءلتُ ما إذا كانت أمّي ستفكر في ذلك، لكن بعد انصراف الشرطيين والمساعدة الاجتماعية، لم يزُر أحد غرفتي، وانتهى بي الأمر أن نمتُ نوماً مضطرباً، مليئاً بالكوابيس. ولمّا استيقظت، كان الصمت يخيِّم في البيت.

26

وحلّ اليوم الذي كنت أنتظره بوجل، يوم محاكمة أبي بتهمة اغتصابي المتكرّر.

رفضت أمّي التي ظلَّت تتشبّث بدور الضحية مرافقتي إلى المحكمة، وذهبَت إلى عملها كما اعتادت أن تفعل كلّ يوم. أخبرني الرقيب الذي آنس حاجَتي إلى امرأة ترعاني بأنّه سيصطحب زوجته، ومضيتُ أراقب وصولهما بتوتر من نافذة المطبخ، غير قادرة على الجلوس.

كان أبي قد ذهب من دون سيارته، وهو ما استنتجتُ منه أنّه كان متيقّناً من عدم عودته إلى البيت بعد المحاكمة مهما كانت مرافعة محاميه. وقلتُ في نفسي حسناً فعل، فقد وفر عليّ لقاءه ذلك الصباح.

كنت في غاية الاضطراب. استيقظتُ باكراً وهيّأتُ نفسي قبل الموعد بساعات. ارتديتُ قميصاً وتنّورة رمادية وسترتي المدرسيّة، وتساءلت ما إذا كان مسموحاً بارتدائها في المحكمة، لكن مهما يكن، فأنا لا أملك سواها.

أخرجتُ جودي لنُزهتها الصباحية وأنهيت فطوري ومكثتُ أنتظر

فترة طويلة قبل أن أسمع هدير سيارة الرقيب. كان يرتدي زيّه المعتاد، قميصاً صوفياً وسروالاً رمادياً. فتح لي باب سيارته وقدّم لي زوجته، امرأة قصيرة القامة وبدينة، حيّتني بابتسامة خفيفة. ثمّ قطعنا المسافة إلى المحكمة في صمتٍ إلّا من بعض الأحاديث المتقطعة والمتكلّفة. كانت نظرة أمّي الباردة منقوشة في مخيّلتي. لقد تحقّقت أمنيتي أخيراً بأن أعيش معها من دون أبي، لكنّني أدركتُ أنّ حياتنا معاً لن تكون حياة سعيدة كما كنت أرجو.

وأشرفنا أخيراً على بنايات المحكمة المتواضعة، وبينما كنّا نجتاز باباً مزدوجاً يفضي إلى فناء مخيف، شعرتُ فجأة بخدرٍ في ساقي. كان ثمّة محامون وأظنّاء في جماعات صغيرة جالسين على مقاعد أبعد ما تكون عن الأناقة والراحة. جلست بين الرقيب وزوجته، وتساءلت عن المكان الذي يوجد فيه أبي، لكنّه لم يكن موجوداً في القاعة لحسن حظّي. انتظرت إذن أن ينادى عليّ للإدلاء بشهادتي.

حين نظرت إلى المرآة ذلك الصباح، رأيتُ وجهاً شاحباً بدت عليه ملامح التعب، وشعراً مقصوصاً على شكل مربع يبلغ الكتفين. بدوتُ أكبر من سني. لم أضع أيّ مواد تجميل تخفّف من شحوبي وتخفي الهالات السوداء المحيطة بعيني، والتي جعلتني أبدو أبعد ما أكون عن تفاؤل المراهقة اللامبالية. كان وجهي وجه فتاة فقدت الثقة والأمل.

أتوني بالشاي، وما هي إلّا لحظة حتّى فُتح باب القاعة، وتقدّم نحوي كاتب المحكمة بخطى متعجّلة. قال إنّ المحكمة استمعت لأبي، وأنّه اعترف بذنبه، ومن ثمة فلن يطيل القاضي الاستماع إليّ، وأنّه سيكتفي بطرح بعض الأسئلة، ثمّ أدخلني إلى القاعة.

أعطوني نسخة من الإنجيل أقسمتُ عليها بقول «الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة». سألني القاضي وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة لطيفة إنْ كنت أرغب في الجلوس، فأجبتُ بالإيجاب. وبما أنّ فمي كان جافّاً، أتوني بكوب ماء.

بادرني قائلاً: «أودّ أن تجيبي عن بعض الأسئلة، وبعد ذلك يُمكنك الانصراف. أرجو أن تجيبي بأفضل وجه تستطيعينه، وتذكري أنّك لست المقصودة بالمحاكمة. مفهوم؟».

همستُ وقد ارتعبتُ من شعره الأبيض المستعار وردائه الأحمر: «نعم».

«- هل فاتحتِ أمّك يوماً في الأمر؟

- كلا.»

باغتني السؤال الثاني، وشعرت بأنّ الحاضرين يولونه انتباهاً خاصاً: «هل تعرفين أمور الحياة؟ هل تعرفين كيف تحبل المرأة؟».

وهمستُ من جديد: «نعم.

- لا شك إذن أنّ الخوف ساورك من الحمل؟»

وأدركت من نظرته إليّ أن الجواب عن هذا السؤال يكتسي أهمية بالغة من دون أن أعرف وجه هذه الأهمية.

أجبت بعد ثوانٍ من الصمت: «كان يستعمل دائماً شيئاً. .»

وسمعتُ محامي والدي يتنهّد.

سأل القاضي سؤاله الأخير: «ماذا كان يستعمل؟

- شيئاً يشبه الكرة».

لم تكن معاشرة الأولاد تهمّني، ولم يكن ثمّة داعٍ لكي أعرف العازل الطبي.

لم أدرك حينها أنّ جوابي يرجِّح فرضيّة العمد. كان محامي

والدي يأمل أن يودَع بمصحة للأمراض العقلية عوض السجن، لكنّ هذه الكلمات أفسَدَت عليه خطته. ثم سمح لي القاضي بمغادرة القاعة، فخرجتُ وأنا أتحاشى النظر في عينَي والدي. بعد ذلك انتظرت إلى أن أخبروني بالحكم الذي نطق به القاضي.

استغرق ذلك ربع ساعة، مع أنّه خيِّل إليّ أنني انتظرت لساعات. انفتح باب القاعة، فخرج محامي والدي وقصدني: «حُكِم على أبيك بأربع سنوات، إنْ حَسُن سلوكه، قد يُطلق سراحه بعد سنتين ونصف» ثمّ أضاف بصوته الجاف: «أبوك يريد التحدّث إليك. إنّه في الزنزانة. أنت مخيّرة في الاستجابة لطلبه. لا شيء يُلزمك».

وبما أنني كنت متعوّدة على الطاعة، فقد قبلت. لمّا لقيت الرجل الذي عذّبني طيلة سنوات، تلاشى خوفي.

«اعتني بأمك يا أنطوانيت، أسمعت؟

- نعم يا بابا».

ثمّ تركته والتحقتُ بالرقيب وزوجته.

قَصَدَنا كاتب المحكمة وأومأ لي بأنْ أتبعه وهو يقول: «القاضي يريد مقابلتك لبضع دقائق».

ووجدتُ نفسي بعد لحظات في مكتب القاضي الذي كان قد تخلّص من شعره المستعار وردائه الأحمر. حدجني بنظرة جادّة وأشار لي بالجلوس، ثمّ راح يشرح لي سبب هذا المقابلة الخاصة.

«لا شكّ أنك ستجدين الحياة - وهو أمر غير خافٍ عليك - غير عادلة يا أنطوانيت. سيُدينك الناس، وهو أمرٌ قد حدث، لكن أنصتي إليّ جيداً. لقد قرأتُ تقارير الشرطة، واطّلعت على ملفّك الطبي، ومن ثمّة فأنا أعرف بالضبط ما تعرّضت له، وأؤكّد لك أنْ لا شيء ممّا وقع من خطئك، فلا داعي لأن تشعري بالخزي».

حفظتُ كلامه بعناية في قلبي لكي أتذكّره يوم أشعر بأنني بحاجة إليه.

إذا كانت جلسة المحكمة المغلقة حدّت من عدد الحاضرين بالقاعة، فإنّها لم تستطع إسكاتهم في الخارج. علمت أمّي لاحقاً أن هذا الموضوع كان يجري على كل الألسنة في المدينة. واشتبهت في كلّ من كانت لهم صلة بالحادثة: طاقم الإسعاف والممرضات والشرطة والمساعدات الاجتماعيات.

لم يكتف الناس بالكلام، بل اتّخذوا موقفهم المتحيّز. ذلك أن مدينة أبي البروتستانتية الورعة ألقت بالذنب كلّه على الطفلة.

كان الناس ينظرون إليّ، بسبب خجلي، كفتاة منعزلة، تتحدّث بلكنة غريبة، هي لكنة الطبقة الوسطى الإنجليزية التي لم تكن مستَلْطَفة في إيرلندا الشمالية في ذلك العهد. بالمقابل يجسّد أبي في نظرهم صورة البطل. فهو ابن البلد الذي شارك في الحرب، وعاد بأوسمة. وقد كان ينظر لكلّ جنود الحرب العالمية الثانية في إيرلندا الشمالية بوصفهم متطوعين شجعاناً، لأنّ التجنيد الإجباري لم يكن له وجود حينئذٍ. كان الناس يعتقدون أنّ خطأ أبي هو زواجه من هذه المرأة التي تكبره بخمس سنوات، وتتعامل بغطرسة مع عائلته وأصدقائه. أما هو فكان الصديق الذي يلتقون به في الحانة، وبطل غولف ولاعب بلياردو ماهراً. وبالجملة كان رجلاً يحظى بحب مواطنيه وتقديرهم.

لم يكن الناس يعرفون «البيدوفيليا» في ذلك العهد، لكن حتّى لو كانوا يعرفونها، ما كانوا لينعتوه بها. أشاعوا أنّني كنت أفعل ذلك بطيب خاطر، وأنّني لم أتّهمه بالاغتصاب إلّا لأخلّص نفسي بعد ظهور حملي. ثم إنني جرجرتُ والدي في المحاكم، وشهدت ضدّه،

وشهّرت بعائلة من أكبر العائلات في المدينة. وبما أنّ الجلسة كانت مغلقة، لم يتسرّب إلّا عدد قليل من الوقائع، لكن حتّى بعدما نشرت الجرائد وقائع المحاكمة بكاملها، لم يصدّق منها سكان كولراين شيئاً. ذلك أنّ الناس يصدّقون ما يرغبون في تصديقه، حتّى لو جاءهم به فاسق، وهو درسٌ استوعبته باكراً.

اكتشفت ردّ فعل الناس لمّا زرت نورا، إحدى بنات عمومة أبي، وهي أمّ طفلة تبلغ خمس سنوات كنت أحبّها كثيراً، وكنت أرعاها لمّا تتغيّب أمّها. فتحت نورا باب بيتها، وظلت واقفة في فتحته واضعة يديها على ردفيها، وبنتها تحاول أن تطلّ من خلف تنّورتها.

بادرتني قائلة: «ألا تستحيين؟ أما زالت لديك الجرأة للقدوم إلى هنا؟ لعلك تعتقدين أنني يمكن أن أعهد بابنتي إلى فتاة مثلك! كلّ الناس يعرفون ما فعلت، ويعرفون كلّ ما وقع لأبيك». ثمّ أضافت وهي تكاد تختنق من الغيظ والحقد: «اغربي عن وجهي، ولا تضعي قدمك هنا أبداً».

تراجعتُ إلى الوراء من هول الصدمة، فصفقَت الباب في وجهي. عدت إلى البيت لأواجه فتور أمّي. قالت إنّها استقالت من عملها، وأنّها لم تعد ترغب في مغادرة البيت من شدّة شعورها بالخزي بعد أن نشرت الجرائد الخبر. اعتقدتُ أنّ سكوت الجرائد عن اسمي سيحميني، لكن كلّ الناس كانوا يعلمون بما وقع، ونَشْر الخبر إنّما أكّد لهم صحّته.

أخبرتني أمّي بعزمها على بيع المنزل، وأنّنا سنرحل إلى بلفاست - وليس إلى إنجلترا كما كنت آمل - في أقرب وقت ممكن. وفي انتظار ذلك، صار عليّ أن أتسوّق، أما هي فلا تستطيع أن تواجه

كلام الناس والنمائم. تحتّم عليّ أيضاً أن أتدبّر أمري. كنت أظن أنّ بإمكاني أن أتردّد على المدرسة إلى أن يحين موعد رحيلنا، وبذلك لن أظلّ طول الوقت في البيت. لكنّني كنت مخطئة: فقد طردوني منها في اليوم اللاحق.

خيّم الصمت عندما دخلت إلى فناء المدرسة. كانت الفتيات تتلافَيْن النظر إلي، بل صدّ عنّي بعضهن ممّن كنت أعتبرهنّ صديقاتي باستثناء واحدة هي لورنا. وهي صديقة عرفتها في بورتستيوارت، وكانت كثيراً ما تدعوني إلى بيتها. ابتسمَت لي فقصدتها متوهّمة أنّني ما زلت أملك حليفة في هذه اللحظة العصيبة. بدا عليها الانزعاج لأنّ الأخريات كلّفنها لتتكلّم باسمهنّ. لم تكن مسرورة بهذه المهمّة، لكنّني لمستُ بأنّها صمّمت على تنفيذها، وتفوّهَت بالجملتين اللتين هيأتهما: «لقد حظرت عليّ أمّي لقاءك» ثمّ صمتت برهة وأضافت: «والأمر نفسه بالنسبة إلى الأخريات، أنا آسفة».

تسمّرتُ في مكاني وقد تبلّد إحساسي، ثمّ أبصرتُ نائبة ناظرة المدرسة تتقدّم نحوي وهي تقول: «لم نتوقّع أن نراك اليوم في المدرسة يا أنطوانيت. لقد راسلنا أمّك، ألم تصلها المراسلة؟».

شرحتُ لها بأنّني غادرت البيت قبل وصول ساعي البريد. غضنت شفتها بينما راحت عيناها السوداوان الصغيرتان تحدّقان في نقطة أعلى كتفي. أما أنا فلزمتُ الصمت متشبّثة بأمل تأجيل النهاية التي استشعرت قدومها. واسترسلَتْ: «هذه المؤسسة لا تستطيع الاستمرار في استقبالك. ستتوصّل أمك بالمراسلة اليوم». لا بدّ أنّها لاحظت سحنتي التعيسة، وأجابت بسؤال على توسلي المكتوم: «ماذا تنتظرين بعد هذه الحكاية؟ نحن نعرف ما جرى لك مع أبيك. اتّصل العديد من آباء التلاميذ، فاجتمع مجلس الإدارة مساء أمس

للبتّ في حالتك. وقرّر بالإجماع طردك من المدرسة. لقد أفرغنا مكتبك ودرجك. تعالي معي لكي أسلّمك أغراضك».

انتابني شعور قاتل بالخزي، فانتفضتُ وأنا أقول: «ليس الخطأ خطئي، هو مَن أجبرني على ذلك! هو من أجبرني!

- ماذا؟! أكان يُجبرك طيلة هذه السنوات؟ لا تزيدي الموقف سوءاً».

وبعد أن أنهت مهمّتها البغيضة، رافقتني إلى باب المدرسة.

«لا تحاولي الاتّصال بفتيات مدرستنا، فآباؤهم لا يرغبون في أن تكون لهم علاقة بك». كان هذا آخر ما نطقَت به. وهكذا غادرتُ المدرسة التي قضيت فيها معظم سنوات دراستي الثمانية. ففيها حاولت أن أبني تلك الصداقات المبكّرة التي يأمل المرء أن تمتدّ مدى الحياة. واضطررتُ لأن أعضّ على شفتي حتّى أتمالك نفسي من البكاء، ومضيتُ أتساءل كيف سأشغل وقتي حتّى لا أعود إلى البيت فوراً.

لا بدّ أن أمّي توصلت بالرسالة خلال ذلك. كيف تُراها استقبَلَتها؟ توجّست من أن أواجهها وأواجه ذلك الجدار من الجليد الذي نصبته بيني وبينها. بَنَتْهُ طوبة طوبة خلال أكثر من ثماني سنوات. لم أقبل به يوماً، وها قد صار يستحيل عليّ اختراقه. منذ أخبرتها بحملي، وضعت فيه آخر لبنة، وأثبتت لي ببرودته أنّ ما كانت تحمله لي من حبّ تلاشى. غادرتُ المدرسة وأنا مثقلة بكلّ ما استعدته من كتب ولوازم، وقلت في نفسي وأنا لا أزال مصعوقة لعلّ جدتي ترحّب بي، فهي تحبّني. فقصدتُ بيتها وقد انتعش أملي.

أدخلتني ثمّ انصرفت إلى المطبخ لتحضّر الشاي. خمّنت من عدم سؤالها عن سبب زيارتي في وقت كان من المفروض أن أكون

في المدرسة ما سيحدث في الدقائق التالية. صبّت لي فنجان شاي وجلست قبالتي. بدت مكلومة بالحكم الذي صدر على ابنها، ومشوّشة البال بالقرار الذي ينبغي أن تتّخذه. وأعلنت لي بما وسعها من لطف قرار العائلة، وقالت إنّه أفضل اتفاق بالنظر إلى الموقف.

«كنت أتوقّع مجيئك اليوم، وأعلم أيضاً ما قالته لك نورا». لا بدّ أنّها استنتجت من سحنتي أنّني زرتُ ابنة عم أبي. تنهدت فمدّت يدها وأمسكت بيدي.

«اسمعيني يا أنطوانيت، أبوك هو ابني البكر، وما فعله أمر سيئ. أنا واعية بهذا، لكنّنا لا نستطيع أن نستقبلك في بيتنا».

نظرتُ إليها مذهولة. لقد تفوّهت بما كنت أخشاه. وضعتُ فنجاني وطرحت عليها سؤالاً كنت أعرف مسبقاً جوابه: «أهذا هو رأيكم جميعاً؟

- نعم. عودي إلى أمّك، حريّ بها أن تأخذك إلى إنجلترا. ذاك هو بلدكما».

على هذا النحو توادعنا إلى الأبد، لأنّني لم أرها بعد ذلك قط.

عدتُ أدراجي، ولأوّل مرّة انصرفتُ من دون أن أقبّلها. لم يحيّني أحد في شارع جدي وجدتي. وتذكّرت كلّ الحب الذي حظيت به عندهما. استعدتُ صورة جدّتي وهي تبتسم مرحّبة عند عودتنا من إنجلترا، وتراءت لي محطّمة إثر علمها بما فعل ابنها. أدركتُ منذ هذه اللحظة أنّني فقدت عائلتي إلى الأبد. كنت واثقة بأنّهم بمرور السنين سيغفرون لأبي، لكنّهم لن يغفروا لي أنا قط. بعد أن سدّت كل الأبواب في وجهي، دفنتُ أحزاني في أعماق قلبي وعدتُ إلى البيت لأواجه أمي.

مرّ الأسبوع الأخير قبل بيع المنزل وسيارة الجاغوار في جوّ من

الفتور، حتى إنني كنت أفضِّل التسوّق بالمدينة، وتعريض نفسي لنظرات الناس القاسية وانتقاداتهم المبطّنة على المكوث في البيت مع أمّي. كنت آمل أن يفهمني الكبار، لكن التعاطف جاء من حيث لم أكن أحتسب. ذلك أنّ الجيران الذين كانوا على علم بسورات الغضب التي تستبدّ بأبي استدعونا للعشاء. عرض علينا الزوج مساعدته في كلّ الأعمال البسيطة التي قد يحتاج إليها المنزل لكي يرتفع ثمنه قليلاً، واقترحت الزوجة أن تساعدنا في لمِّ أغراضنا. كما عاملنا صاحب متجر الحي معاملة لا تخلو من لطف. كان الشخص الوحيد الذي تحدّث إليّ مباشرة.

قال لي: «مرحباً بك هنا دائماً. سمعتُ ما يُقال عنكِ، وينبغي أن تعلمي أنّني لا أفكر مثلهم. لا حاجة لي بمن لا يحسن أو لا تحسن معاملتك، وهو أمر يعرفونه».

عدا أنّني لم أتعرض للشتم أبداً. كلّ ما كانوا يقومون به هو أنّهم يتجاهلونني. وكنت أتعمّد السير مرفوعة الرأس وأنا أتجوّل في أجنحة المتجر.

ثبتت أمي على موقفها. لم تبرح البيت باستثناء زيارات نادرة لجيراننا الذين طالما نظرت إليهم باستعلاء. وبعد أنْ بِيْع هذا البيت، وحزمنا حقائبنا إلى بلفاست، أخبرتني أخيراً بما قرّ عليه قرارها. استأجرت منزلاً صغيراً في حي شانكهيل، وهو كلّ ما تسمح به إمكاناتنا. من المستحيل العودة إلى إنجلترا: لا تريد أن يعلم أهلها باعتقال زوجها. صمّمتُ على أن أعثر على عمل في بلفاست، واشترطتُ أن يتوفر فيه الإيواء، وهو أمرٌ ذو مزيتين: الاستقلال المادي، وعدم البقاء طول الوقت مع أمّي. كان هذا يستلزم فراق جودي، لكنّني كنت واثقة من أنّ أمّي ستعتني بها حقّ العناية خلال

غيابي، لأنّها تحبّها. ذلك أن حاجتي إلى التخلص من شعوري بالذنب كانت شديدة، وحلمي بالعيش مع أمّي بمفردنا تحوّل إلى كابوس. كنت لا أزال أحبّها، وكنت أتمنى أن تُبدي لي بعض الحنان والتفهّم، لكنّها كانت في حالة من الاكتئاب تجعلها غير قادرة على إعطائي ما أنا بحاجة إليه. هكذا حطَطنا رحالنا ببلفاست بعد مضي شهرين على المحاكمة.

ذكّرتني الأزقة الضيقة ومنازل الطوب الأحمر ذات الأبواب المطلّة مباشرة على الرصيف بالحي الذي كان يسكنه جدّي وجدّتي. كانت بلفاست تحتوي على متاجر وحانات كثيرة، وكانت الشوارع غاصّة بالمارّة في كل الأوقات. وقد كرهت أمّي هذه المدينة فور حلولها بها. فهي رمز حلمها الذي تحطّم. ساءت حالها وألقت عليّ باللائمة. كان صدرها يغلي من الغيظ، وهو غيظ لم يكن ناشئاً عن سخطها على وضعها فحسب، بل وعنّي أنا أيضاً. تريّثتُ يومين قبل أن أخبرها بأنّني عزمت على البحث عن شغل.

27

في صباح اليوم اللاحق، رحتُ أتفحّص إعلانات الشغل في الجرائد، وأضع دوائر حول تلك التي توفّر الإيواء. كنت متلهِّفة لمغادرة البيت. إثر ذلك قصدتُ أقرب مخدع هاتفي حاملة حفنة من القطع النقدية المعدنية.

أجابني صوت جذاب على أوّل مكالمة. فسّرت لي المرأة بأنّها تبحث عمّن يرعى طفليها. فهي كثيرة المشاغل، وكذلك الأمر بالنسبة إلى زوجها، ومن ثمّة تحتاج إلى مَن يرعى الطفلين أربعة أيام في الأسبوع. لذلك هي توفر الإيواء لمن يقبل هذا العرض. سألتني ما إذا كان ذلك يطرح لي مشكلاً، فأكّدت لها بأنّني لا أخرج مساء إلّا لزيارة أمّي. وضربنا موعداً في وقت لاحق من اليوم نفسه.

عدتُ إلى البيت مبتهجة. فقد حصلت على موعد لإجراء مقابلة تشغيل، ولم يبقَ إلّا أن أعثر على لباس مناسب. اخترتُ تنّورة زرقاء داكنة وقميصاً يناسبها ثمّ لمّعت حذائي الأسود ذا الكعب العالي، واخترتُ لباساً داخلياً نظيفاً، وتحقّقت من أنّ جواربي الطويلة ليست مثقوبة.

بعد أن هيّأت ملابسي سخنت الماء واغتسلت، ثمّ وقفت أمام المرآة المعلّقة فوق حوض المطبخ وزيّنت وجهي قليلاً

ووضعت في حقيبة يدي آخر بيان مدرسي يُشيد بقدراتي وسلوكي، وتمنيت أن تكتفي مشغّلتي به، ولا تتجاوزه إلى الاتصال بإدارة المدرسة للتأكّد من صحّة ما فيه. كنت قد أعددتُ خطاباً طويلاً شرحت فيه سبب انقطاع تلميذة مجدّة مثلي عن الدراسة وسعيها إلى العمل، وردّدته في ذهني مراراً إلى أن صار يبدو عفوياً ومقنعاً.

بعد أن ألقيت نظرة أخيرة على المرآة لأتأكّد من حسن مظهري، تناولت حقيبتي وغادرت البيت متسلّحة بلكنة المدارس الخاصة وبياني المدرسي وكذبتي المحبوكة.

ركبت الحافلة الأولى إلى وسط بِلْفاست، ثمّ أخرى أقلّتني إلى حي مالون روود الراقي، بمحاذاة الجامعة التي طلّقتُ حلم الالتحاق بها.

بلغتُ الحي واتّبعت الإشارات التي زوّدتني بها المشغِّلة إلى أن عثرتُ على مسكنها. انفتح الباب بينما كنت أهمّ بطرقه، فظهرت منه امرأة في العشرينيات من العمر، بشوشة وفائقة الجمال. كانت تحمل بين يديها رضيعاً خمّنتُ من لباسه الأزرق أنّه ولد، وبجانبها صبية صغيرة متشبّثة بتنورتها، تتطلّع إليّ باستغراب وهي تمصّ أصبعها.

قالت وهي تبسم: «لا أستطيع أن أصافحك»، ثمّ تنحت لكي تسمح لي بالدخول. «لا بدّ أنّك توني، أُدعى روزا. تفضلي بالدخول».

تبعتها إلى غرفة جميلة ذات ألوان فاتحة تنتصب وسطها روضة أطفال وضعتْ فيها الرّضيع ثمّ أومأت لي بالجلوس وجلستْ بدورها وهي تتفحّصني بعناية.

كانت روزا امرأة ودود، لكن ذلك لم يمنعها من تحضير جملة

أسئلة تطرحها على مَن ستعهد إليه بابنها وابنتها. تمنيت لو أجتاز الاختبار بنجاح. سألتني في بادئ الأمر عن المكان الذي درستُ فيه. وبما أنّني توقّعت هذا السؤال، أجبتُها على نحو مسهب. وكان جوابي عن سؤالها الثاني حول سبب مغادرة المدرسة مهيّئاً بعناية. تلافيتُ الحديث عن المدارس التي تنقّلت بينها في مسيرتي المدرسية، وأشرت إلى أنّني لم أكن أستفيد من منحة، وأن أبي مات قبل أشهر ولم يترك لنا أنا وأمّي إلّا قليلاً من المال، فقررنا أن نترك كولراين إلى بلفاست عسانا نعثر على عمل. ولما لاحظتُ التعاطف بادياً في عينيها، أكملتُ حديثي بثقة أكبر.

لم تفقد أمّي زوجها فحسب، بل اضطرت إلى التخلّي عن مسكنها الجميل والاستقرار في مسكن متواضع بشانكهيل. وأنا أرغب في مساعدتها على تكاليف الإيجار. وقد اخترتُ عملاً يوفر لي الإيواء والمأكل حتّى لا أثقل كاهلي بمصاريف النقل.

أدّى خطابي وظيفته على أحسن وجه، بل وأكثر ممّا كنت أتوقّع. وهكذا ضمنتُ الفوز بهذا المنصب حتّى قبل أن أختم كلامي وأُخرج بياني المدرسي. ولعلّ ما ضاعف بهجتي هو أنّها لم تَسْعَ لمعرفة المزيد. تجاذبنا أطراف الحديث لساعة أخرى تعرّفت خلالها على الطفلين: دافيد وراشيل، ثمّ عرضت عليّ الاستقرار في بيتها ابتداء من اليوم اللاحق، ووضّحت لي ما تنتظر منّي.

كثيراً ما تخرج هي وزوجها - الذي قالت بزهو إنه طبيب مشهور - للعشاء، وهي تعول عليّ خلال غيابهما في الاعتناء بالأطفال. فإذا رقدا، لا مانع من أن أشاهد التلفاز في الصالون.

في طريق العودة إلى البيت ذلك المساء، خالجني شعور غامر بالحرية. أيقنت أنّني نلت تقدير روزا وطفليها. وخيّل إليّ لأوّل مرّة

بعد شهور أنّني لقيت أناساً حكموا عليّ لشخصي لا بناءً على ما سمعوا عنّي. ما لم أدركه حينئذٍ هو أنّ روزا لم تتعلّق بشخصيتي الحقيقية، بل بالصورة الكاذبة التي قدَّمتها لها: صورة مراهقة بريئة وحسنة التربية، فتاة مولعة بالكتب والحيوانات وترغب في أداء مهمّتها بتفانٍ وإتقان، همّها الوحيد هو مساعدة أمّها المسكينة. حدّثتها عن عائلتي الإيرلندية الكبيرة التي تعوّدت فيها على رعاية الأطفال. من دون أن أذكر لها بأنّهم نبذوني.

ظلّ الشعور بالثقة يغمرني إلى أن بلغت البيت. كانت أمّي قد عادت قبلي، وأدركتُ من سحنتها المكروبة أنّ مقابلة التشغيل التي اجتازتْ لم تُسفر عن شيء.

بادرتُها مبشّرة: «لقد عثرتُ على شغل يا ماما، وهو يوفر لي الإيواء! سأشرع في العمل غداً، وسأكسب ثلاثة جنيهات فضلاً عن التغذية. سوف أساعدك بالمال».

نظرت إليّ بحيرة ثمّ سألتني بعد صمت قصير: «ماذا ستفعلين؟».

فأجبت وأنا أعرف ما سيترتّب عن جوابي: «سأرعى أطفالاً وأساعد في أشغال البيت».

فهتفت: «آه يا توني، كيف تُقدمين على هذا وأنت كلّ أملي!» وعاودني الشعور بالذنب من تخييب ظنّها.

وطّنت نفسي رغم ذلك الشعور على الرحيل من البيت، وقرّرتُ تجاهل تعليقها. وحدّثتها بحماس عن روزا وطفليها وعن منزلهم الجميل حيث سأقيم. ثمّ أضفتُ: «لن آكل بمفردي. سآكل معهما عندما يعودان إلى البيت».

فعلّقت بنبرة فظّة: «إن عرفا مَن تكونين، فلن يسمحا لك بذلك. مهما يكن، ستستمتعين بالتلفاز. أنا أيضاً يروقني، لكنني لا أملك المال لشرائه».

قاومتُ لكي لا تصيبني عدوى الاكتئاب. كنت بحاجة إلى الحنان والدفء، وهي لا تمنحني شيئاً من ذلك. وبينما بدوت قبل لحظات مراهقة نشيطة ومتفانية في عيني روزا، هأنذا أبدو فتاة أنانية في عينيّ أمي.

خيّم الصمت على الصالون الصغير ونحن نقرأ وننصت إلى المذياع. وبعد عشاء بسيط، صعدت إلى غرفتي لكي أهيّئ أغراضي.

كانت روزا قد منحتني المال لركوب الحافلة، وهو ما جنّبني طلبه من أمّي صباح اليوم اللاحق. وقفتُ أنظر إليها عند الباب وأنا أقاوم المشاعر التي لم أكن قد تعلّمت بعد السيطرة عليها، لكنّني كنت عاجزة عن إظهارها.

وانتهى بي الأمر بأن قلتُ لها وقد حملت حقيبتي وفتحت الباب: «نلتقي يوم عطلتي في الأسبوع القادم». ثمّ انصرفتُ. أما هي فلاذت بالصمت كعادتها.

ما إن وصلت حتّى قادتني روزا إلى غرفتي. سارعتُ إلى إخراج أغراضي من الحقيبة قبل أن ألتحق بالمطبخ لإطعام الأطفال. وضّحت لي روزا ما يلزم أن أفعل، وهو ما أيقظ في ذهني ذكريات شجيّة، لأنّني رعيت ابنة عمّي الصغيرة لمّا كانت في مثل هذا السن.

أدركت على الفور بأنّ العمل المطلوب مني ليس صعباً. وقدّمتني روزا لزوجها دافيد مساء قبل أن أحمّم الطفلين. صافحني على نحو لطيف، وتمنّى لي مقاماً طيّباً في بيته.

لاعبتُ الطفلين في الحمام بغطس لُعبهما البلاستيكية في الماء

ودغدغتهما، فتسلّيا كثيراً. وجاء دافيد وروزا فقبّلاهما وتمنّيا لنا ليلة سعيدة قبل أن يغادرا.

تساءلت ما إذا كانت راشيل ودافيد سيخلدان إلى النوم من دون مشاكسة. وضعت كلًّا منهما في سريره ثمّ جلستُ بجوار الصبية، ورحت أقرأ لهما حكاية، فلما بدأت جفونهما تتثاقل، قبّلتهما على الجبين ثمّ نزلت لمشاهدة التلفاز.

بدأت تنشأ بيني وبينهما بمرور الأسابيع عاطفة قويّة. لمّا كنت ألاعب دافيد، تمسك يده الصغيرة بأصبعي، ويبتسم لي ابتسامات عريضة، بينما تجلس راشيل على ركبتي بانتباه لكي أقرأ لها قصصاً. ولمّا كنّا نخرج للنزهة في الحديقة، كانت تساعدني في دفع عربة أخيها الصغير وهي تمسك بيدي.

كنت أحضّر لهم وجبة الغذاء ستة أيام في الأسبوع، وآكل معهم. وفي فترة القيلولة، بعدما ينام الطفلان، كنّا كثيراً ما نتجاذب أنا وروزا أطراف الحديث. نجلس في غرفتها أحياناً، فتقيس ما اشترت من ملابس جديدة وتطلب رأيي.

استعذبتُ دفء هذا البيت، حتّى بدأت أتوهّم أنّني أحد أفراده. نسيت أنّ روزا، رغم لطفها، لم تكن صديقتي، وأنّها وزوجها لا يعدوان أن يكونا مشغليّ. حاولت أن أكسب عطفها بعرض خدمات لم تكن من صميم مهامّي، كأن أحضّر لها شاياً أو أكوي ملابسها. وكانت تبدو من جانبها راضية على نحوٍ غامض على مجاملاتي، أو بالأحرى لم تكن تقوم بشيء يصرفني عن ذلك.

كانت أجواء البهجة تخيّم على البيت. لم يكن دافيد وروزا والدين مثاليين فحسب، بل كانا أيضاً زوجين سعيدين. ذكّراني بأسرة الخالة كاترين، وكنت أقول في نفسي مع مرور الأيام بأنّني محظوظة

بالعيش في بيتهما. لمّا كان دافيد يعود من العمل، كنت أحرص على أن ألزم الطابق العلوي أو المطبخ مع الطفلين، لكي أسمح له بالاختلاء بزوجته. فقد لاحظتُ أنها تهرع إلى الباب فور سماع هدير سيارته.

وذات مساء قرّرا إمضاء الأمسية في البيت على غير عادتهما. وبينما كنت أحمّم الطفلين، لحقا بي معاً إلى الحمام. شعرتُ بحضورهما قبل أن أسمع صوت دافيد يقول: «أنطوانيت، هذا هو اسمك، أليس كذلك؟».

التفتّ إليه، وشعرتُ بالحقيقة بادية في عيني.

«ستتولّى زوجتي أمر الطفلين، تعالي، أريد التحدّث إليك».

كان كلّ شيء يجري كما لو أنّه بالعرض البطيء. قمتُ من مكاني ورجلاي بالكاد تقويان على حملي. نظرت إلى روزا لعلّي أجد في عينيها سنداً، لكنّها أشاحت عنّي. كان وجهها ممتقعاً. شعر الطفلان بأجواء التوتّر، فراحا ينظران إلينا بحيرة، ويسألان عن سبب توقفي عن اللعب معهما فجأة.

وضعت الإسفنجة ببطء، وتبعتُ دافيد إلى الصالون في صمت. لم يطلب منّي الجلوس. بقيت واقفة قبالته أنظر إلى وجهه الكالح شأن الوجوه التي قابلتني من قبل.

بادرني بفظاظة: «أبوك لم يمُت، أليس كذلك؟» فهمت من نبرته أنّه يعرف الحقيقة. «إنّه في السجن، وأنت محظوظة لأنّهم لم يودعوك في أحد الملاجئ. عليك أن ترحلي من هذا البيت فوراً. هيّئي أغراضك والزمي غرفتك إلى أن آتيك. سأرافقك إلى بيت أمّك».

حاولت أن أدافع عن نفسي: «ليس الخطأ خطئي، هذا ما أكّده

لي القاضي!» حاولت أن أقنعه بحسن سريرتي. لا يمكن أن يطردني بهذه البساطة!

حدجني بنظرة ازدراء شعرتُ معها كما لو أنّ انهياراً أصابني من الداخل، وقال: «لُذْتِ بالصمت لسبع سنوات، ولم تتكلّمي إلا لمّا اضطُررتِ إلى الإجهاض، بل كذبت حتّى على طبيبك. لقد تحدّثتُ إليه هذا اليوم. فُصلت من المدرسة لأنّ الآباء قدّروا عن حقّ أنك لا تليقين بأبنائهم». وشعرت بالغضب يستبدّ به. صار يتحدّث بنبرة حاسمة علمت منها أنّ الحياة السعيدة التي عشتها في ذلك البيت قد ولّت.

وبينما كنت أغادر الغرفة استرسل يقول: «إنّ روزا توافقني الرأي إنْ كنت تتوهّمين خلاف ذلك. وهي لا ترغب في أن تراك. اذهبي إذن إلى غرفتك». وهو ما فعلته وأنا بالكاد أتمالك نفسي من البكاء.

كان باب غرفة روزا مغلقاً، لكنّني سمعتُها تتهامس مع راشيل. أخذتْ معها الطفلين حتّى تُجنّبهما لقائي.

هيّأت أغراضي وجلستُ على طرف السرير أنتظر قدوم دافيد وأنا لا أكاد أصدّق ما حدث.

«هل حملت كلّ أغراضك؟» كانت هذه هي الكلمات الوحيدة التي وجّهها لي طيلة الطريق إلى شانكهيل روود. أمسك بيدي، وطرق باب بيت أمي وانتظر إلى أن فتحت، فحرّر يدي وهو يقول: «ها هي ابنتك يا سيدة ماغواير». ثمّ انصرف.

عادت اللحظات الحالكة، وغرقتُ في موجة من الحزن. وتناهى إلى سمعي كلام أبي من جديد: «لن تحبك أمك، وسيدينك

الجميع». اقتنعتُ الآن بصدق نبوءته. وتمثّلت وجه القاضي وكلماته المواسية: «ليس الخطأ خطأك، لا تنسي هذا، لأن الناس سيدينونك».

قمتُ من فراشي بصعوبة في الصباح، وغسلتُ وجهي بالماء البارد ثمّ ارتديت ملابسي وخرجت للمرّة الثانية خلال بضعة أشهر لكي أشتري الجريدة المحلّيّة. جلستُ في أحد المقاهي لكي أفتش في إعلانات الشغل، وأختار منها تلك التي لا تشترط مؤهلات خاصة وتوفر الإيواء. وخشيت أن أصادف أحداً يعرف دافيد وروزا

أثار انتباهي إعلان: «منزل ريفي كبير يبحث عن فتاة لرعاية طفلين صغيرين. الإيواء متوفر، والراتب جيّد».

اتّصلت بصاحب الإعلان هاتفياً، وحصلتُ على موعد مساء اليوم نفسه. عدتُ إلى البيت، وحضّرت الزيّ نفسه الذي ارتديته خلال مقابلة التشغيل السابقة، لكن هذه المرّة بلا حماس ومن دون تطلّع إلى بداية حياة جديدة، راضية بما يخبّئه لي المستقبل. ركبتُ حافلة أولى إلى وسط بلفاست ثمّ حافلة ثانية إلى الريف. اكتشفت طريقاً محفوفاً بأشجار مشذّبة بعناية - لا تشبه في شيء أشجار كولداراغ المتوحّشة - يفضي إلى منزل رمادي ضخم، ذي طراز معماري جورجي، تُشرف نوافذه الضيقة العالية على عشب مجزوز زاهي الاخضرار. لا وجود هنا للقصب والأدغال الواسعة والورديات المأهولة بالضفادع، باستثناء بعض شجيرات الورد التي تكسِر رتابة العشب الأخضر.

فتحت لي الباب سيّدة شقراء فاترة، تشعّ نظافة مثل حديقتها. أدخلتني إلى صالونها ذي الألوان المتناسقة، المزيّن بباقات الورد الموضوعة في مزهريات من البلور فوق موائد الأكاجو. وقبل أن

أسأل عن الأطفال أخبرتني أنّهم في غرفتهم مع الشخص المكلّف برعايتهم.

نجح الخطاب الذي هيأته نجاحاً باهراً هذه المرّة أيضاً واقترحت عليّ أن أستقرّ عندها في أقرب وقت. أما الراتب فثلاثة جنيهات في الأسبوع. كما أن غرفتي مجهزة بتلفاز. واتفقنا على أن أتعشّى مع الأسرة. بعد هذه الشكليات، رافقتني لأتعرّف على الطفلين: طفل وطفلة في شقرة أمّهما. قلت في نفسي لعلّ هذا ما يمكن أن تتمنّاه أسرة منظمة كهذه: ولد أوّلاً ثمّ بنت بعده!

بينما كنّا ننتظر عودة الزوج في الصالون، جاءتنا خادمة بوجبة خفيفة، ثمّ قُدّم الشاي في إبريق فضيّ كبير، وسُكب في فناجين من الخزف الصيني، وأُضيف له السكر بكلاليب فضية صغيرة. جلست بشكل مستقيم على طرف المقعد المكسو بالقطيفة. علمت أنّ الزوج مصرفي في مجال الأعمال، وأنّ الفتاة التي كانت ترعى الطفلين قبلي سافرت إلى إنجلترا، وأنّ الأبوين يبحثان عمّن يرعى طفليهما إلى أن يبلغا سن المدرسة، أيّ لمدّة عام بالنسبة إلى الصبي وعامين بالنسبة إلى الصبيّة.

وجدتُ العرض مناسباً في غياب خيار آخر. لكنّني أدركت على الفور أنّنا لن نكون صديقتين أبداً. وبعد تفكير مليّ، اهتديتُ إلى أنّ الأمر أفضل هكذا. على الأقلّ سيُجنّبني أن أتوهّم نفسي فرداً من أفراد أسرة ليست أسرتي.

كان لقائي بالزوج قصيراً قبل انصرافي. رجل فارع الطول ونحيف، بالكاد يبلغ الثلاثين من عمره. لم تكن في نظرته تلك الابتسامة المهذّبة.

عدتُ إلى البيت وأعلنت لأمّي أنّني عثرت على شغل، ثمّ هيّأتُ

حقيبتي. بدت عليها علامات البهجة هذه المرّة: نجحتْ أخيراً في العثور على عمل هي أيضاً: ستشرف على تسيير مقهى. كانت متفائلة وراضية على مُشغّلها، وهو شاب في الثامنة والعشرين من عمره لم تمضِ على انخراطه في هذا المشروع فترة طويلة.

أحسستُ في المنزل الريفي الكبير بالوحدة والعزلة. كنت أشعر بالوهن يدبّ في نفسي يوماً بعد يوم. أتعشّى في أغلب الأحيان مع الأسرة ثمّ أصعد إلى غرفتي لكي أقرأ أو أشاهد التلفاز. لم تنشأ بيني وبينهم أيّ أُلفة. وحَداني الحنين لروزا وطفليها، واشتقتُ إلى دفء بيتهم.

في يوم عطلتي الرابع، كنت أعرف أنّ أمّي تعمل، فلحقتُ بها في المقهى. كانت قد غيّرت مظهرها: بدت بتصفيفة شعرها الجديدة وما وضعته من مكياج على وجهها أكثر شباباً وحداثة. ابتسمَت لي ابتسامة عريضة، لكنّني لم ألمح في عينيها الحبّ الذي كنت أتوق إليه.

«ماذا تصنعين هنا؟

- هل يمكن أن نشرب القهوة معاً؟».

أجبتها وأنا أقول في نفسي: «جئت إلى هنا لأنني اشتقتُ إليك».

«بالطبع يا عزيزتي، يمكن أن نشرب القهوة معاً، لكن بسرعة، لأنّ وقت الغذاء وشيك. إنّه الوقت الذي أكون فيه مشغولة للغاية».

جلسنا على أريكة، وأتتنا نادلة بفنجانَي قهوة. كان زيّها الوردي مختلفاً عن زيّ معظم نادلات بلفاست اللواتي كنّ يلبسن الأسود والأبيض في ذلك العهد. سألتني عن عملي وعلاقاتي بالأسرة،

فوصفتُ لها بالتفصيل المنزل والحديقة والطفلين، لكنّني تحرّزت من أن أقول لها إنّ ما ينقصه هو الدفء وبهجة الحياة.

كنت أعلم أنّ هذا البيت مثالي في نظر أمي، لكنّه لم يكن بالنسبة إليّ غير بناية بلا روح. أمضيتُ معها ساعة تقريباً ثمّ عانقتها بسرعة وتوادعنا، ووجدتُ نفسي لا أعرف ما أصنع بما فضُل من يومي.

أخذت تتراقص أمام ناظري وجوه تنضح ازدراء وكراهية، ثمّ دوّت أصواتها في مسامعي. كان أوّلها وجه والدي بابتسامته الهازئة وهو يردِّد: «ستتخلّى أمّك عن حبّك إن أفشيت السر، وسيدينك الجميع». ثمّ تراءت لي نظرة أمّي الحانقة ليلة النزيف الذي كان سيودي بحياتي، وسمعتها تهمس للطبيب بأن يبعثني إلى أبعد مشفى. لاحت لي أيضاً نظرة جدّتي القاسية وكذا وجه نورا الممتعض لمّا فتحت لي الباب. وأخذ صدى هذه الأصوات المتداخلة يدوّي في رأسي.

«غير مرحّب بك يا أنطوانيت، كلّ الناس يعرفون ما جرى بينك وبين أبيك. اغربي ولا تعودي، لا تعودي أبداً».

وشعرتُ من جديد بألم كلّ ما تعرّضت له من طرد، بما فيها طردي من بيت دافيد وروزا. اغرورقت عيناي بالدمع، وانفجر كقنبلة موقوتة الإحباطُ الذي قاومته لمّا لَمْمتُ حقيبتي لحظة مغادرة بيتهما. فقدتُ سلاحي الوحيد الذي هو كبريائي، واستسلمتُ لشعور بالضيم والشفقة على نفسي. ولم تعد تلوح أيّ بارقة أمل من خلال سحاب حياتي الحالك.

قلت في نفسي «لم يحبّني، ولن يحبّني أحد لشخصي. لقد أحبّوا الفتاة الصغيرة ذات الفساتين الجميلة، والتلميذة الذكية التي

تحصل على علامات مدرسية جيّدة، والمراهقة الخدوم، المستعدّة على الدوام لرعاية أطفالهم، لكن لا أحد منهم عطف على الفتاة الحبلى، الفتاة المرعوبة التي وضعت؟ حتّى أمي لم تحبّني».

رأيت من حولي أصدقاء وأزواجاً تبدو السعادة على وجوههم، ينعمون بالحب في عائلاتهم وأسرهم. وجلستُ على الأرض كغريبة منبوذة لا يراها أحد، لم تنعم بالسعادة إلّا في السنوات الستّ الأولى من حياتها القصيرة. صحيح أنّني عشت لحظات سعيدة، لكنّها كانت عارضة. لقد سجنني الشعور بالنبذ في قفص داخلي، فتُهتُ عن الطريق الذي يعيدني إلى العيش بين الأحياء، ولم يعُد يلوح لي غير مخرج واحد: باب المغادرة.

هل سأبقى سجينة هذا القفص إلى الأبد، بلا حبّ ولا صداقة ولا حتّى شعور بالحياة؟ لن أظلّ كذلك. لم أعُد أرغب إلّا في شيء واحد هو أن أغادر.

قصدت أقرب حانة، وطلبتُ قدحي ويسكي شربتهما بجرعة واحدة. كنت أعرف أنّ الويسكي يخفف المعاناة، لكنّ النادل اشتبه في أنّي سكّيرة، فرفض أن يقدّم لي كأساً ثالثة.

«ماذا بك يا جميلتي، أهي متاعب القلب؟ ستعثرين على آخرين، هيا أيّتها الجميلة. . ».

بدت كلماته كما لو أنها آتية من عالم آخر. مزيج من البارانويا والشعور بالإحباط جعلا كلماته اللطيفة تبدو في ذهني ملبّسة بالتهكُّم والسخرية.

دخلت أوّل صيدلية وأنا أشدّ تصميماً على ما نويت فعله. اشتريتُ علبة أسبرين وشفرات حلاقة. ثمّ اقتنيتُ آخر ما كنت بحاجة

إليه: زجاجة ويسكي. بعد أن أعددتُ العدّة، توجّهت إلى أقرب مرحاض عمومي.

وبينما وقفت أشرب جرعات من الويسكي وأبتلع أقراص الأسبرين لاح لي في المرآة وجه شاحب. وشعرت بالخليط يصعد إلى حلقي حتّى كاد يخنقني، لكنّني واصلتُ إلى أن أنهيت الزجاجة والعلبة، ثمّ دخلتُ إلى أحد المراحيض وأغلقته على نفسي. أخرجتُ شفرة حلاقة وجرحتُ معصميّ جروحاً بطول ثلاثة سنتمترات، جُرحاً لكل سنة من السنوات التي كرهت. أخذ الدم ينزف ببطء نازلاً على راحتي، متسلّلاً من خلال أصابعي قبل أن يقطر. أسرني منظره وهو يقطع تلك المسافة وأنا أتساءل عن الوقت الذي يلزم لكي يفرغ جسدي من الدم. تثاقل جفناي وشرعا ينغلقان، وأظلم المكان في عيني، وتعالى الطنين في أذني. شعرتُ بجسدي يستلقي على الجانب، وببرودة الجدار على وجهي، ثمّ لم أعد أشعر بشيء.

28

اخترقتْ وعيي كلمات مبهمة، يتداخل فيها صوتان: أحدهما رجولي خفيض، والثاني نسائي حادّ.

قال لي الصوت الأوّل: «نعرف أنّك استيقظت، هيّا، افتحي عينيك!».

أمسكت يد لطيفة بيدي، وسمعت صوت المرأة: «هيّا يا صغيرتي، نحن هنا لنساعدك. افتحي الآن عينيك».

وامتثلتُ لهما بصعوبة.

كنت مستلقية على سرير في غرفة صغيرة بيضاء. حاولت شفتاي أن تنطق لكنّني شعرت بإحساس غريب في فمي، شيء يمنع الأصوات من الخروج. كان لساني يلامس شيئاً صلباً، وانتبهت إلى أنّه يعبر حلقي ويخرج من فمي.

ميّزت طيفين، وتعرّفت في البداية على ممرّضة، ثمّ على شخص آخر يرتدي سترة صوفية وقميصاً بياقة دائرية. إنّه قسّ. وأدركتُ على نحو ملتبس أنّني في مشفى، وشعرتُ فجأة بسائل حارق يصعد إلى حلقي كاد يخنقني، فسارعت يدٌ إلى وضع إناء تحت ذقني، وإذا بذلك الشيء الصلب، الذي علمت لاحقاً أنّه أنبوب غسل المعدة، يشرع في العمل، فاهتزّ سائر جسدي.

لمّا فرغوا من العملية، استلقيت من جديد وأنا أشعر بطنين متواصل في أذني. حدتني رغبة في النوم فأغلقت عيني، لكن الأصوات لم تتركني أغفو. سمعتهم يسألونني عن اسمي وعنواني، لكنّني لم أكن متأكّدة من أنّني أعرف الجواب. ومنحتني اليد التي أمسكتْ بيدي الأمان، فتشبّثتُ بها.

قال القسّ: «افتحي عينيك. سندعك تنامين لمّا تجيبين عن بعض الأسئلة».

أجهدت نفسي لكي أفتح جفنيّ، فلمحت عينين زرقاوين ودودتين قلقتين. جعلتني رقّة نظرته أجهش بالبكاء، وانخرطتُ في نحيب ارتجّ له كلّ جسدي. ظلّت الممرّضة تمسك بيدي، بينما راح القسّ يمسح دموعي.

استعدتُ هدوئي شيئاً فشيئاً، وتمكّنت من إخبارهم باسمي: أنطوانيت. قدّمت لهم نفسي بهذا الاسم الذي كرهته. هذا هو الاسم الذي كان «هو» يناديني به، وتناديني به أمه، ونادوني به في المدرسة لمّا طُرِدت. أما توني، اسم الشخص الذي سعيتُ لأن أتقمّصه، فأفلت منّي.

سألني القسِ إثر ذلك عن سني، فأجبتُ وأنا أستعدّ للسؤال الموالي: «خمس عشرة سنة».

«لِمَ فعلتِ هذا بنفسك يا أنطوانيت؟».

حطّ بصري على معصميّ المضمّدين. ومن جديد جعلني صوته المفعم بالعطف أجهش بالبكاء، لكنّه بكاء مكتوم هذه المرّة. وتمكّنت أخيراً من أن أحكي لهما جزءاً من قصتي. شرحت لهما كيف اغتصبني أبي، وكيف حبلت منه، وهو يقبع الآن في السجن. قلت لهما أيضاً إنني لا أملك بيتاً آوي إليه، وأنّ كلّ الناس نبذوني،

وبذلك لم أعُد أرغب في الحياة لأنّ حياتي لا معنى لها.

لم أشأ أن أنكأ كلّ جراحي فأحدّثهم عن عدد المرّات التي طُردتُ فيها، وكيف جعلتني أحسّ بأنّني عديمة القيمة ومنبوذة، وعن الذنب الذي أشعر به بسبب تدمير حياة أمّي، وهي تلومني على ذلك. لم أحدّثهما أيضاً عن الحلم الذي كان يراودني، وهو أن يكتشفوا محنتي مع أبي، ويهبّوا لمساعدتي، وعن الأمل الذي كان يحدوني في أن تأخذني أمّي إلى مكان آمن بعيد عنه. على أنّ الوضع الذي تلا انكشاف «سرّنا» كان أقسى من أن أحتمله. لم أقل لهما شيئاً عن الرعشة التي كانت تعبر رقبتي والغثيان الذي ينتابني كلّما دخلتُ متجراً فيواجهني كلّ مَن فيه بالصمت. كنت أعلم بأنّني ما إن أغادر حتّى أصير موضوع كلّ النمائم.

وشيئاً فشيئاً صرت أنظر إلى نفسي من خلال عيون الآخرين الذين يتجاهلونني إلى حدّ أنّهم يريدونني ربّما أن أختفي. كنت في نظرهم كالجرباء، مجرّد الاعتراف بي قد يُعديهم.

لم أكن أملك شيئاً، بل أنا نفسي لم أكن شيئاً. ومع ذلك حافظت على ذرّة كبرياء جعلتني أربأ بنفسي عن الحديث عمّا أشعر به. لم أفصح عن مشاعري لأحد، كما لو أنّ عدم التعبير عنها بالألفاظ من شأنه أن يجعلها تختفي.

سمعت الممرّضة تتنهّد بعمق قبل أن تسألني: «ماذا حدث للجنين؟».

ظنّت ربّما أنّني وضعت الجنين وتخلّيت عنه أمام باب بيت من البيوت، وهي فكرة أثارت غضبي، فأجبتُ بفظاظة: «أجهضت». لم يكن من المتوقّع من طفلة في الخامسة عشرة من عمرها أن تنطق بهذه الكلمة.

ثمّ سألتْ: «إن تركناك تغادرين، هل ستعودين لما فعلت يا أنطوانيت؟» لكنّهما لم ينتظرا جوابي الذي كانا يعرفانه مسبقاً.

دوّن القسّ عنوان مشغّلي، وتعهّد بأن يذهب إلى بيته لجلب أغراضي بينما أعطتني الممرّضة مشروباً بارداً، ثمّ عدتُ إلى النوم رغم الطنين المتواصل في رأسي بسبب ما ابتلعت من سموم.

لمّا استيقظت أبصرت رجلاً آخر يجلس قرب سريري. سألني بلطف: «هل ترغبين في شرب شيء يا أنطوانيت؟».

غمغمت: «شاي».

كنت أشعر كما لو أنّ حجم لساني تضاعف، وحلقي يؤلمني.

خفّ الطنين قليلاً، لكنّني ما زلت أشعر بصداع حادّ.

سألت بصوت خافت: «هل يمكن أن تعطوني دواء مسكّناً للصداع؟».

فأجاب: «ينبغي أن يزول الصداع من تلقاء نفسه». ثمّ استرسل كما لو أنّه لمس حاجتي إلى توضيح «قضينا مدّة ونحن نستخرج الأسبرين من جسمك». ثمّ صمت قليلاً، وواصل: «أنا طبيب يا أنطوانيت، لكنّني طبيب أمراض نفسية. هل تعرفين معنى الأمراض النفسية؟».

أومأت برأسي. لم تكن تهمّني هويّته، كلّ ما كنت أرغب فيه هو أن أشرب كوب شاي وأعود إلى النوم. أمّا هو فكانت لديه أشياء يريد أن يحدّثني بشأنها.

«ستُنقلين إلى مستشفى الأمراض النفسية. هناك سيعتنون بك. فأنت تعانين من مرض يدعى الاكتئاب الحاد».

لم يكن أمامي إلّا الامتثال لقراره. ربت على كتفي وأكّد لي بأنّ حالي ستتحسّن قريباً ثمّ انصرف. لم آخذ تطميناته على محمل الجدّ.

ولم تكد تمرّ دقائق حتّى نُقلت على متن سيارة إسعاف إلى مستشفى بيورديسبورن للأمراض النفسية.

مرّت سيارة الإسعاف قرب بناية ضخمة من القرميد الأحمر، كانت ملجأ المعدمين في العهد الفكتوري، وصارت تأوي المرضى المقيمين. أمّا جناح الأمراض النفسية الذي نُقلت إليه فيوجد في بناية مجاورة أحدث، مكونّة من طابق واحد. وكنت أصغر المرضى.

قضيت الليلة الأولى وأنا لا أزال تحت تأثير الجرعة الزائدة التي تناولتها، بالكاد أعي ما يدور حولي. نمت بسرعة ولم أستيقظ إلّا في اليوم الموالي. فتح أحدهم ستائر غرفتي، وطلب منّي بصوت مرح أن أقوم وأغتسل وأهبّ لتناول فطوري. فتحت عيني لأرى مبعث هذا الصوت فأبصرت ممرّضة شابّة ذات وجه في غاية البشاشة حتّى إنّه استطاع أن ينتزع منّي ابتسامة. وبجانبها توجد شابة شقراء طويلة القامة ونحيفة يبدو أنّها تكبرني ببضع سنوات.

قالت لي الممرضة: «أقدِّم لك غوس. سترافقك لزيارة المكان».

ثمّ انصرفت وتركتنا معاً. كانت غوس فتاة ثرثارة، وهو ما سمح لي بلزوم الصمت. لم تكن تتوقّف عن الكلام إلا لالتقاط أنفاسها، أو لتضحك ضحكة متوتّرة خفيفة. علمت لاحقاً أنّ هذه الأعراض هي الوجه الآخر للاكتئاب.

دلّتني على الحمام، وانتظرتني إلى أن اغتسلت ثمّ رافقتني إلى حجرة الطعام. وشيئاً فشيئاً بدأتُ أسترجع صفاء ذهني. كان المكان بالغ الهدوء والتهوية والإنارة، بجدران باهتة الألوان، ونوافذه كبيرة. قدّمتني غوس بسرعة لعشرين مريضة تقريباً كنّ جالسات إلى مائدة الطعام. كنت قد سمعت حكايات رهيبة عن ملاجئ المجانين. لمّا

يدخلها المريض، قد يتيه في سراديب نظامها، فلا يخرج منها أبداً. لكنّني لم أسمع عن أقسام الأمراض النفسية التي لم تكن شائعة في ذلك العهد.

كان جميع المرضى يبدون عاديين. رجال ونساء تتراوح أعمارهم بين عشرين وخمسين سنة، قادتهم إلى هناك، وهو ما سأعرفه لاحقاً، مختلف شِعاب الحياة. فالإدمان على الكحول والاكتئاب، وهما السببان الرئيسان لوجودهم في ذلك المكان، لا يقتصران على سن محدّدة ولا على طبقة اجتماعية معيّنة.

اطّلعت بمرور الأسابيع على قصص معظمهم. فهناك زوجة وسيط عقارات ثري، مولع بالنساء، أفقدها الثقة في نفسها، فأدمنَت على الكحول خلسة إلى أن انتهى بها الأمر، مثلي، إلى تناول جرعة زائدة من الدواء. لكنّها لم تفعل ذلك عمداً. فقد أثملت ولم تعُد تدري كم حبّة دواء مقاوم للاكتئاب شربت إلى أن أتت على العلبة. يوجد أيضاً رجل وامرأة كانا قد تعارفا قبل ذلك بسنة بالجناح نفسه الخاص بالأمراض النفسية، حيث كانا يتعالجان من إدمان الكحول. وعوض أن يمسك أحدهما بيد الآخر عند مغادرة المشفى، ويتوّجها إلى الشاطئ ليستمتعا بالغروب، اقتحما أوّل حانة اعترضت طريقهما.

جلس بعض المرضى إلى المائدة وهم في منتهى الهدوء بسبب ما يتناولونه من أدوية مسكّنة للأعصاب. ذلك أنّ الأطباء يستعينون بالأدوية للسيطرة على المرض في بادئ الأمر، لكن على المرضى إثر ذلك أن يأخذوا بزمام أمورهم. وقد لفتت انتباهي امرأة على وجه الخصوص. كانت تملك شعراً جميلاً أحمر، وبشرة بيضاء وعينين خضراوين. كانت أجمل وأهدأ مريضة في الجناح.

بينما كنت آكل، لم أستطع تحويل بصري عنها. أمّا هي فلم تكن ترفع بصرها عن المائدة. كانت تبدو كما لو أنّها مفصولة تماماً عمّا يحيط بها. وقد زادتني لامبالاتها المطلقة اهتماماً بها.

عند نهاية وجبة الفطور، أتت ممرّضة إلى مائدتها، وأمسكت بذراعها بلطف ثمّ رافقتها إلى أحد المقاعد. ظلّت جالسة لا تنبس لساعات وقد وضعت غطاء على ركبتيها.

حيّرني أمرها، فسألتُ غوس عنها، فقالت: «إنها زوجة أحد الأطباء. لولا أن زوجها طبيب لما ظلّت هنا كلّ هذه المدة الطويلة.

- ماذا بها؟

- لست أدري. هناك نساء تُصبن بالاكتئاب بعد الولادة. مضت سنة على وجودها هنا. كانت تتكلّم في البداية، أما الآن فلم تعُد تستطيع ذلك.

- هل ستتحسّن حالها؟».

لكنني خمّنت الجواب فور طرح السؤال.

لست أدري لماذا شغلني حال هذه المرأة. لم يسبق أن لقيتها من قبل، ومع ذلك أثارت فضولي، وشعرتُ بالشفقة عليها. كنت أعرف هذه المنطقة التي يتبخر فيها الواقع وتنقطع صلات المرء بالعالم، على أنّني أدركت بالفطرة أنّ اغترابي لم يصل إلى مستوى اغترابها.

قالت غوس بنبرة لامبالية: «على كلّ حال، إن لم يتحسّن حالها ستنقل من المشفى. هذا ما يحدث لمن لا يستجيبون للعلاج». وبما أنّني لم أكن أرغب في معرفة المزيد عن المكان الذي قد تُنقل إليه، وضعت حدّاً لبحثي.

بعد الفراغ من الفطور، سألتني ممرّضة عن سوابقي الصحية،

ورجتني أن ألزم الجناح لأنّ طبيباً سيَلقاني كي يقرّر في علاجي، ويصف لي دواءً إذا لزم الأمر. بعد ساعة، كان لي أوّل لقاء من سلسلة لقاءات طويلة مع طبيب الأمراض النفسية. دوّن الكثير من الملاحظات بينما كنت أتحدّث، وحين بدأت أرتاح إليه، طرح عليّ سؤالاً عكّر العلاقة بيني وبينه.

«أكنت تستلذّين بما كان يفعله بك أبوك يا أنطوانيت؟».

وحتّى لمّا أجبته بالنفي ظلّ يلحّ:

«أنت مراهقة، ولا بدّ أنّك شعرت باللذة؟».

عندئذٍ انقطع حبل التواصل بيني وبينه. أخذ صوته يطفو في الهواء، ولم أعد أرغب في أن تبلغ كلماته دماغي. لم أقل له إنّي صرت فتاة منبوذة في مدينتي، وكيف شعرت بأنّني عديمة القيمة وممتهنة، وأنّني بحاجة إلى حبّ أمّي، وأنّني فقدت الأمل في الحياة. لم أذكر له أيضاً الألم المبرح الذي قاسيته بسبب الإهانات والصدود، وأنّني نسيت كلام القاضي، وانتهى بي الأمر أن صرت أنظر إلى نفسي من خلال عيون مَن اضطهدوني، فأراني كائناً حقيراً. عوض هذا احتميتُ خلف قناع آخر، ليس قناع التلميذة المهذبة التي تعيش في أسرة سعيدة، بل قناع شخص يرتاب من السلطة، ويرفض المساعدة.

أخضعني لاختبارات الذكاء، وسألني ما إذا كنت أسمع أصواتاً تحثّني على فعل هذا الشيء أو ذاك. ثمّ طرح عليّ سؤالاً أخيراً:

«هل تظنّين أنّ الناس يتحدّثون عنك؟

- لست أظنّ، بل أجزم».

بينما كان يدوّن ملاحظاته، لاحَت على وجهه ابتسامة متغطرسة، ولوّح بقبضته. علمتُ لاحقاً بأنّه وصفني في تقريره بالفظاظة والعناد، وأنّني مصابة بالبارانويا.

قرّر الأطباء ألّا يصفوا لي أدوية وألّا يُخضعوني للصدمات الكهربائية اعتباراً لسني، واقتصر علاجي على حصص علاجية يومية.

كانت هذه الحصص تدوم ساعة واحدة. يسألني الطبيب المسؤول عن علاجي عمّا أفكر فيه وما أحسّ به، فكنتُ أجيب باقتضاب محاولة إخفاء اكتئابي خلف جدار من اللامبالاة. ثمّة سؤال واحد لم أمكّنهم من الجواب الذي كانوا يتوَخّونه قطّ: «هل شعرت يوماً بالمتعة الجنسية؟».

كان هذا السؤال يتكرّر باستمرار. لعلّهم كانوا مقتنعين بأنّني كنتُ أجد متعة فيما تعرّضت له، وأنّني إن قبلتُ هذه الحقيقة، سيتحسّن حالي. كنت أعلم أنّهم لا يقصدون إيذائي. كل ما في الأمر هو أنهم ينطلقون من أفكار مسبقة، ويرفضون من ثمّة الاعتراف بالحقيقة. كنت أتساءل ما إذا كانوا يعتقدون حقّاً أن المرء يمكن أن يستلذّ الضرب، ويجد متعة في إجباره على شرب الويسكي، وتعريضه للتعذيب النفسي؟

كثيراً ما كانوا يسألونني أيضاً عن بداية اكتئابي. كان بودّي أن أصرخ: «متى بدأ في رأيكم؟!» الحقيقة أنّ الاكتئاب بدأ وأنا في السادسة من العمر، حين انقلبت حياتي، لكنّني كنت أعلم بأنّ هذا ليس هو الجواب الذي ينتظرون. فكنتُ أجيبهم بأنّه يعود إلى بضعة أسابيع. انتهى بي الأمر إلى أن عرفت المصير الذي ينتظر المرضى الذين يقدّر الأطباء أنّ حالتهم خطيرة أو لا سبيل لشفائها. كانوا يودعونهم بأماكن مغلقة، وتنقطع صلتهم بالحياة.

كانت جدران الملجأ القديم القريب من جناح الطب النفسي بنوافذها الصغيرة ذات القضبان الحديد، وممرّاتها المظلمة، تزكم

الأنوف بروائح موادّ التطهير. وكانت البناية الضخمة مُحاطة ببنايات مؤلفة من طابق واحد، يعيش فيها مرضى مصنفين بحسب خطورة مرضهم العقلي. كنّا كثيراً ما نراهم يخرجون في جماعات للقيام بتمارينهم اليومية، تحرسهم ممرضات مسلّحات بالعصيّ.

كانت مستشفيات الأمراض العقلية في ذلك العهد عبارة عن أماكن معزولة عن العالم الخارجي، ومن ثمّة وجب أن تلبّي احتياجات المرضى الأساسية. كان ثمّة مقصف ومتجر يرتادهما المرضى، لكنّني ما كنت أزور ذلك المكان إلّا وعُدت مكدّرة الخاطر. كان أشبه بملتقى للأرواح التائهة: أناس لم يعُد يرغب فيهم أحد، نُسوا منذ مدّة طويلة.

تبدو البنايات المشيدة حديثاً، المتناثرة في الحديقة الواسعة، قزمة وصغيرة على نحو مضحك أمام البناية الهائلة الواقعة على بعد بضعة أمتار من الطريق الرئيسة. لمّا تنفتح أبوابها أحياناً، تخرج منها وجوه شاحبة للنزهة أو للالتحاق بغرفة الطعام. ألقيت ذات مرّة نظرة خاطفة بداخلها، فلمحت أسِرَّة قَفَصيَّة وكراسي خشبية يجلس عليها أولئك الذين لا يستطيعون المشي ويعجزون عن الخروج. رأيتهم يتأرجحون وهم يئنون بصمت. حين اطّلعت لأوّل مرّة على حياة المرضى في قسم الأمراض العقلية الذين تُعتبر حالتهم بالغة الخطورة، اكتشفت كم أنا محظوظة بوجودي حيث كنت أوجد. لم يكن المكان حديثاً ورائعاً فحسب، بل كان لدينا جهاز تلفاز وقاعة ألعاب، وكان المطبخ مفتوحاً ليل نهار، نستطيع تهيىء الشاي متى شئنا، والجلوس على مقاعد مريحة. ولم تكن في النوافذ قضبان حديد، وكان بإمكاننا القراءة أو النزهة أنّى شئنا. لم نكن نتقيّد إلّا بشرطين اثنين: ألا نتنزّه فرادى حرصاً على سلامتنا، وأن نحترم

مواعيد تناول الدواء وتلقّي العلاجات. ولم يكن يسمح لنا أيضاً بالخروج من الحديقة إلا بإذن. وهو إذن لا نحصل عليه إلّا إذا كنا برفقة أحد زوّارنا. وهي أوامر كنا نحترمها ولا نحيد عنها، لأنّ المشفى لم يكن يوفّر لنا الحماية فحسب، بل ويقيناً من الوحدة كذلك.

كانت أوقات الزيارة في جناحنا مرنة. يُسمح للزوار بالدخول في كلّ الأوقات. والقيد الوحيد الذي كان مفروضاً عليهم هو مغادرة المكان قبل توزيع مشروب المساء. انتظرتُ أمّي طيلة الأيّام الستّة الأولى، لكنّها لم تأتِ. هل نساني آخر شخص بقي لي في هذا الوجود؟

كنت أرى كلّ مساء زوج السيّدة ذات الشعر الأحمر، وولديها الصغيرين اللذين ما زال أحدهما في القماط. كانا شديدَي الشبه بأمّهما بشعرهما الأحمر وعيونهما الخضراء. يمسك الرجل بيدِ زوجته ويتحدّث إليها بينما يستغرق الطفلان في التلوين. وكان الغمّ بادياً عليه. أمّا الزوجة فتجلس بلا حراك وقد ارتسمت على محيّاها ابتسامة خابية. لم تكن تتكلم، ولم يكن لها خيار في مغادرة هذا المكان الذي فقد فيه الواقع معناه. أمّا أنا فبدأت أدرك أنّ ذلك الخيار ما زال بيدي. شعرتُ وأنا أنظر إليهم بقبس من الأمل يومض بداخلي. كان من السهل عليّ أن أستسلم، وأنكفئ على ذاتي إلى أن أصير مثل تلك المرأة، لكنّني لم أبيِّت ذلك. لا شكّ أنّه عنفوان الشباب.

حلّ يوم الأحد، فجاءت أمّي لزيارتي محمّلة بالفواكه والكتب والمجلات والزهور. وانتابني دفق من الحبّ كان من القوّة بحيث آلمني. وعلمتُ لاحقاً بأنّ إدارة المشفى اتّصلت بها لمعرفة سبب

تخلّفها عن زيارتي. فقد كنت لا أزال قاصراً، وهم ينوون أن يعهدوا بي إليها بعد شفائي. أكّدت لهم بطريقة مهذّبة حرصها عليّ، وأنّ ما حال دون مجيئها لزيارتي هي ظروف عملها. فالمقهى الذي تشرف على تسييره لا يترك لها وقتاً فارغاً، لكنّها كانت تنوي بالطبع زيارتي يوم الأحد، وهو يوم عطلتها الوحيد. فهي تعيش براتب واحد، ولا تستطيع التغيّب عن العمل. وهي واثقة من أنّني سأتفهّم وضعها.

حاولت إحدى الممرضات أن تشرح لي وضع أمّي، وهي تحاول أن تبدي التفهّم الذي كانت أمّي تنتظره منّي، فأكّدت لها، مدفوعة بولائي الأعمى، بأن أمّي لا تدّخر جهداً في العناية بي.

لمّا رأيتها قادمة، هرعتُ إليها، فضمّتني بين ذراعيها لأوّل مرّة بعد فترة طويلة، وأخبرتني بمدى قلقها عليّ، وأنّ هذا المشفى هو أنسب مكان بالنسبة إليّ في الوقت الراهن. حدّثتني أيضاً عن مدى رضاها عن عملها، وأنّها خطّطت لحياتنا معاً. لن أعيش في بيوت الغرباء ثانية. كانت واثقة من أنّ سوء معاملة تلك العائلة التي أقمتُ معها هو السبب في انهياري، ثمّ قالت لي ما كان الأهم بالنسبة إلي: يمكن أن أقيم معها وأشتغل نادلة في المقهى الذي تديره فور مغادرتي المشفى. ثمّ أخبرتني بأنّها عثرت على منزل صغير وجميل، نستطيع أداء إيجاره من راتبينا. ذلك أنّ النادلات في المقهى يكسبن أكثر ممّا تكسب هي، لأنّ الرواد من رجال الأعمال يتركون لهنّ بقشيشاً سخيّاً، لا سيما إذا كنّ جميلات مثلي. وارتسمت على محيّاها ابتسامة عريضة لم ألمح مثلها منذ عهد بعيد.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي تثني فيها عليّ منذ أن كنت طفلة، وهو ما أدخل البهجة على قلبي. وتحدّثنا معاً مثلما كنّا نتحدّث قبل ذلك بسنوات. حدّثتها عن بعض المرضى الذين ربطتني

بهم علاقة صداقة، ولمّا انتهى وِقت الزيارة وهمّت بالانصراف، لوّحتُ لها بيدي مودّعة آسفة على أنّني سأضطر لانتظار أسبوع كامل قبل لقائها.

انصرمت الأسابيع التي قضيتها بالمشفى بسرعة. ورغم أنّ الأيّام لم تكن منظّمة، إلّا أنّها كانت تبدو مليئة. فقد كسبتُ هناك صداقة ستدوم لسنوات. كان اسمه كليفورد. سمع بقصّتي، وحين رأى الضمادات على معصميّ علم، مثلما علم الجميع، أنّني حاولت وضع حدّ لحياتي. نشأت بيننا علاقة أفلاطونية. لم يكن شغوفاً بالنساء، بل كان مسيطراً على نزواته، وهو ما جعل زوجته تتخلّى عنه، فأصابه الاكتئاب. كنت أنصت إليه باهتمام خلال نزهاتنا وهو يحدثني عن حياته، وهو ما أشعره بالطمأنينة.

بدأتُ أتعافى من اكتئابي بفضل حضور الآخرين المستمرّ بجانبي، وبفضل صداقة كليفورد وزيارات أمّي المتكررة. صرت أجد لحياتي معنى. هناك منزل وشغل ينتظراني، وحياة ينبغي أن أبدأها من جديد.

بعد ثلاثة أشهر من دخولي مشفى بيورديسبورن، جاءت أمّي لتتسلّمني.

29

لقيت صاحب المقهى بعد بضعة أيّام، وهو شاب بدا راضياً على تشغيل أمّي كمشرفة على المقهى، وعرض عليّ أن أشتغل عنده فوراً.

قدّموا لي زيّاً وردياً زاهياً ووزرة بنّيّة فاتحة. وجدت العمل سهلاً، وكان البقشيش، كما قالت أمي، سخيّاً. صار بوسعي أن أساعد أمّي بجزء من راتبي من دون أن أحرم نفسي من التردّد على الحلاق وشراء الملابس. أمّا أمّي، لمّا لاحظت وفرة ما كنّا نكسب، عاودها الحلم بشراء منزل، ووقع اختيارها على المنزل الصغير الذي كنّا نستأجره. كان عليها أن تقترض بعض المال، ولم تجد صعوبة في أداء الأقساط بفضل مساعدتي.

هكذا مرّت سنتان في دعة وسكينة. لم نتحدّث قط عن أبي أو عن نوبة الاكتئاب التي أصابتني. وتوطّدت العلاقة بيني وبينها من جديد. كنّا نذهب إلى السينما في بعض الأمسيات التي لا تكون لنا فيها مشاغل، ونقضي ساعات طوال في الحديث عن الفيلم. تحرّرنا من أفلام رعاة البقر التي كان يفرضها علينا أبي، وصار بإمكاننا أن نختار الأفلام التي تستهوينا وتمتّعنا.

كنت أنتظرها في أحايين أخرى حتى تفرغ من عملها، فنذهب معاً إلى أحد المقاهي، ونتجاذب أطراف الحديث كما لو كنا صديقتين. فقد صارت تستطيب رفقتي بعد غياب أبي، وهو ما غمر قلبي سروراً. عبّرت لها عمّا كنت أكنّ لها من حبّ. لم يعُد شيء يكدّر علاقتنا. فأبي الذي يغار من اهتمامها بي لم يعُد موجوداً بيننا. كنت بحاجة إلى الحرية في التعبير عن حبّي حاجة الزهرة إلى ضوء الشمس لكي تنمو وتتفتح. وصار بإمكاني التعبير عن ذلك الحبّ بمختلف الطرق، وهو ما ملأني فرحاً حتى أنني كنت أقضي معظم أوقات فراغي مع أمّي.

خلال كلّ هذه الفترة، لم أكن ألتقي أشخاصاً آخرين إلّا نادراً. كنت في بعض الأحيان أهيّئ العشاء وأضعه على المائدة، وكانت متعتي الكبرى هي حين تعبّر أمّي عن إعجابها بالوصفة التي اقتبستها من آخر كتاب طبخ اطّلعت عليه. كنّا نعشق القراءة وسماع الموسيقى معاً، لكنّنا كنّا نقضي كذلك أمسيات كثيرة في مشاهدة التلفاز الذي كان آخر مقتنياتنا، والذي كنّا لا نزال مغرمتين به. وبما أنّه لم تكن في ذلك الوقت غير قناتين، نادراً ما كنّا نختلف في اختيار البرامج التي نشاهد. كنّا نجلس على نحو مريح في الصالون، هي على مقعدها الأثير وأنا على الأريكة إلى جانب جودي أمام المدفأة نتابع البرامج، وعند نهايتها، أتوجّه إلى المطبخ وأهيّئ مشروباً ساخناً نشربه قبل أن نأوي إلى الفراش.

كثيراً ما كنت أجوب محلات التحف القديمة بـ«سميثفيلد» بحثاً عن حليّ أو قطع مجوهرات أهديها لها.

لم يتضايق أصدقائي الجدد أمثال كليفورد من الحيّز الكبير الذي تشغله أمّي من حياتي، بل حرصتُ على أن أعرّفها عليهم وأدمجها

في حياتي الاجتماعية. وددتُ أن تقضي معنا لحظات ممتعة لأنّني كنت أشعر بوحدتها، وكنتُ حريصة على حمايتها.

لم يكن يؤرقني سوى شيء واحد وهو خوفي من أن أقضي حياتي كلّها نادلة. كان طموحي كبيراً، والأمر نفسه بالنسبة إلى أمّي. أردتُها أن تكون فخورة بي، ووددتُ أيضاً أن أعتني بها، لكنّ عليّ أن أعثر على شغل محترم.

قبيل إكمال السنة السادسة عشرة من عمري، قرّرت عدم الالتحاق بالجامعة، لأنّ قضاء ثلاث سنوات في الدراسة بلا عمل كان سيمثل عبئاً مادياً ثقيلاً علينا. فبدون راتبي، لن تتمكّن أمّي من أداء أقساط المنزل.

هكذا فكّرت في خيار آخر: إن تابعت دروس السكرتارية، سأتمكّن من الحصول على شهادة إتمام الدروس الثانوية في سنّ الثامنة عشرة، وهي شهادة سترفع حظوظي في إقناع المشغّلين. تحرّيتُ عن تكاليف الدراسة في مدرسة خاصة، وانتهيت إلى أنّه إذا سمح لي صاحب المقهى بالبحث عن عمل آخر خلال موسم الصيف، سأتمكّن من توفير بعض المال يكفيني لتسديد تكاليف السنة الأولى من التكوين. قدّرت أن ذلك لن يطرح أيّ مشكلة بما أن بلفاست، وهي مدينة جامعية، تعجّ بالطالبات الراغبات في الاشتغال كنادلات خلال عطلة الصيف. وإذا ما نجحتُ في السير على النهج نفسه في السنة الموالية، لن تواجهني صعوبة في تمويل دراستي على مدى سنتين.

ما إن فرغتُ من رسم خطّتي حتى سارعت إلى صاحب المقهى لأحدِّثه بشأنها.

لم يقبل طلبي فحسب، بل اقترح عليّ الشروع في تنفيذ خطّتي

بحلول عطلة عيد الفصح. له قريبة تُشرف على تسيير بنسيون بجزيرة «مان»، كانت تبحث عن عاملين خلال عطلة عيد الفصح، وعرض عليّ أن يتوسّط لي عندها. لكنّه حذّرني بالمقابل من أنّ العمل شاقّ. ففي بنسيون صغير مثل بنسيون قريبته، على العاملين أن يقدّموا للزبائن وجبة الإفطار والعشاء، لكنّ عليهم أيضاً تنظيف الغرف وتقديم الشاي منذ ساعة مبكّرة.

قال لي إنّ الراتب ليس عالياً، لكن البقشيش سخي، وبذلك أستطيع كسب ضِعْفَي ما أكسبه عنده. وإذا نِلتُ رضاها، فقد تشغّلني ثانية في موسم الصيف.

بعد أسبوعين من ذلك، ركبت عبّارة إلى جزيرة «مان»، ووعدت أمّي بإطلاعها على أخباري باستمرار.

لم يكن يشتغل في الفندق سوى شخصين، ومن ثمّة كان العمل شاقّاً حقّاً. كنّا نكدح طيلة اليوم. نستيقظ عند الساعة السابعة والنصف، نعدّ الشاي ونقدّمه للزبائن في الغرف بالطابق العلوي. بعد ذلك علينا أن نحضّر الفطور. ولم نكن نجلس لتناول فطورنا إلّا بعد أن نكون قد نظفنا آخر صحن. وبما أنّ الفندق لم يكن يقدّم وجبة الغذاء، كان بوسعنا أن نرتاح قليلاً عند منتصف النهار، هذا إذا لم يكن لصاحبة الفندق، وهي امرأة قصيرة وبدينة ذات شعر أبيض منفوش أشبه بخوذة، رأي آخر.

كانت تلحّ علينا لكي نلمّع الأواني الفضيّة مرّة في الأسبوع. وكان صوتها اللاهث من فرط التدخين يلاحقنا حيثما حللنا كما لو كانت تخشى، إن هي لم تراقبنا، أن نسرق شيئاً من فندقها أو لا نُنجز العمل على الوجه المطلوب.

لمّا يحلّ المصطافون بالفندق، كانت تستقبلهم بابتسامة ساحرة،

لكنّها ترشقنا بنظراتها النفاذة بمجرّد ما يحوّل الزبائن أعينهم عنها. لم تكن سرعتنا ترضيها قط. كان علينا أن نسارع إلى حمل أمتعة الزبائن إلى الغرف الموجودة في الطابق العلوي، فلا نكاد ننزل حتّى تصرخ بنا لكي نحضّر الشاي.

لم نتجرّأ على طلب فسحة إلا مرّة واحدة، فأجابتنا بنبرة حانقة بأنّ الزبائن أحوج إلى مرطبات منّا إلى الراحة. وأضافت بأنّنا لا نزال شباباً بينما تعاني هي من وهن في القلب. ألسنا نرغب في الحصول على بقشيش؟ نهرتنا، فلم نتجاسر على إعادة الطلب ثانية.

على أنّي لاحظت أنّ قلبها المنهك لم يكن يمنعها من التدخين والتهام قطع ضخمة من الحلوى. وكلّما سمعتها تشكو عدم قدرتها على حمل أشياء ثقيلة، كنت أهمّ بأن أعلّق: «باستثناء جثتك!..».

كان امتعاضي من وجهها المُحْمرّ يزيد يوماً بعد يوم، وكنت أتساءل كيف تكون لكائن لطيف كصاحب مقهى بلفاست قرابة بهذه الأفعى.

ولمّا كان يأنف أحد الزبناء من أن يطلب من فتاة حمل حقيبته الثقيلة، كانت تجيب بفتور بأنّنا نتلقّى أجراً مقابل ذلك. كثيراً ما كان المصطافون يطلبون منّا في صمت، بعد أن نختفي عن نظراتها المتلصّصة في السلم، أن يتولّوا حمل أمتعتهم بأنفسهم حتى يخفّفوا عنا. وبعد مرافقتهم إلى الغرف، كنّا ننزل إلى المطبخ لنحضّر لهم الشاي، ثمّ نصعد السلم من جديد ونحن نترنح بالصينية وزعيقها يتبعنا، لأنّها كانت تجدنا بطيئات. كان شعار صاحبة الفندق هو: «لا راحة للشباب!» صحيح أنها كانت تدفع لنا أجورنا، لكنّها كانت تحرص على استغلالنا ما وَسِعها ذلك.

كنت أتساءل عند حلول المساء، وأنا في غاية الإنهاك، ما إذا كان بوسعي الاستمتاع بحياة الليل في الجزيرة التي طالما حدّثوني عنها. على أنّ الأمر لم يكن كذلك خلال هذا الموسم. ولمّا خلا الفندق من مصطافيه، ولم يفضُل غير عدد قليل منهم، حرّرتنا المشغّلة لنصف يوم حتّى نتمكّن من التسوّق، لكنّني أظنّ أنّها ما فعلت ذلك إلا لأنّني عبّرت لها عن رغبتي في شراء هديّة لأمّي.

كان يومنا يبدأ في السابعة والنصف صباحاً ويمتدّ إلى التاسعة والنصف ليلاً، وبذلك كنت أدّخر المال الذي أكسبه كاملاً وهكذا جمعت من المال عند نهاية الموسم أكثر ممّا توقّعت، فطلبت من صاحبة الفندق، وقد لاحظتُ بُخلها، أن أغادر البنسيون أيّاماً قبل الموعد المقرّر، فلم تمانع.

وبينما كنت أتذكّر عطلة عيد الفصح هذه وأنا جالسة في صالون الملجأ، سمعت صوت أنطوانيت بداخلي وهي في السابعة عشرة من عمرها: «تذكّري يا توني، تذكري ما فعَلَتْ، تذكري الاختيار الذي قامت به».

كان الأوان قد فات لأطرد من ذهني ذكرى اليوم الذي تقوّضت فيه ثقتي العمياء بأمّي.

فكّرت في أن أفاجئها، فلم أخبرها بتقديم موعد عودتي. ركبتُ عبّارة إلى بلفاست وأنا أتخيّل فرحتها برجوعي. ولمّا وصلت إلى المرفأ متلهّفة للقائها، لم أحتمل انتظار الأوتوبيس، فاستأجرت سيارة تاكسي. تخيّلتني في الطريق أحكي لها عن مغامراتي في جزيرة «مان» ونحن نحتسي فنجان شوكلاتة ساخنة. كنت قد هيّأت لها بعض الطرائف اللطيفة لإضحاكها. تراءى لي وجهها المتهلّل وهي

تفضّ أغلفة ما حملتُ لها من هدايا، ولا سيما تنورة ثوب الشاش البنفسجية الفاتحة الموشّاة بالحرير. فكّرت في البداية أن أشتريها لنفسي، لكنّني قرّرت في الأخير أن أهديها لأمّي. كنت متشوّقة لإدخال الفرحة على قلبها، هي المولعة بالهدايا والملابس الجميلة.

طالت عليّ الرحلة بين بلفاست وليزبورن مع أنّها لا تتجاوز عشرين كيلومتراً، حتّى خيّل إلي أنّها دامت دهراً.

سارعت وأنا أنزل من التاكسي إلى دفع كلفة الرحلة ثمّ حملتُ حقائبي وجريت نحو الباب. هتفتُ وأنا أدخل: «هأنذا عدت!» جرت جودي نحوي مرحّبة بينما لم أسمع جواب أمّي مع علمي بأنّها لا تشتغل ذلك اليوم. شعرتُ بالحيرة، وفتحتُ باب الصالون، فصدمني ما رأيت.

كان أبي جالساً في أريكة أمي مزهوّاً كالطاووس، وهي جالسة عند قدميه تتملّى طلعته بافتتان. تنظر إليه نظرة كنت قد نسيتها، النظرة التي كانت تخصّه بها في حياتنا السابقة، والتي لم تتكرّم عليّ بمثلها قطّ. وعلمت فوراً أنّني خسرت. لقد اختارته هو، لأنّه مركز عالمها. أمّا أنا فلم أكن غير رفيقة آنَسْتُها في انتظار عودته.

انتابني مزيج من التقزّز والإحساس بالخيانة. فقد صدّقتُ أمّي، ووثقتُ بها، وها هي تضعني أمام الأمر الواقع. أصابني ما يشبه الخدر، ورفضت أذناي أن تسمعا ما شرعت تتفوّه به: «أُفرِج عن بابا خلال عطلة الأسبوع، وسيعود غداً. لم أكن أعلم أنّك ستعودين اليوم، وإلّا كنت أخطرتك».

راحت الكلمات تخرج من فمها بنبرة من يزفّ خبراً سعيداً، ويريدك أن تقاسمه بهجته. كان كلامها يتضمّن دعوة مبطّنة لكي أنضمّ إليهما، ونعود إلى لعبتنا القديمة، لعبة «الأسرة السعيدة». استرسلتْ

في حديثها من دون أن تتغيّر نبرتها الجذلانة وهي تبشّ في وجهه كما لو عاد من رحلة عمل طويلة. هذا ما حكته للجيران على كلّ حال. وفهمت لاحقاً أنّ هذا هو ما دفعها إلى منعه من مراسلتها: لم تكن ترغب في أن تفضحها رسائله المختومة بخاتم السجن. تخيّلت أنّها قرّرت أخيراً قطع علاقتها بزوجها، لكن كلّ شيء اتّضح الآن. فهي ما اختارت بلفاست عوض إنجلترا إلا لأنّها كانت تنتظره.

وددتُ أن أهرب منهما معاً. لم أعد أطيق وجوده. أمّا صوتها فتحوّل إلى ضجيج رهيب لا يُحتمل. تناولت حقيبتي وصعدت إلى غرفتي. أفرغتها على مهل، وأخفيت في الخزنة تنورة الشاش التي اخترتها بعناية فائقة. لم تُلبس تلك التنورة قطّ، لأنّني لم أقدّمها لها. كما أنّني لم أرتدِها أبداً لأنّني ما اقتنعتُ يوماً بأنّني صاحبتها.

وفي صباح اليوم الموالي سمعت أمّي تدندن بتلك الألحان التي رقصت عليها قديماً مع أبي. تناولتُ رباط جودي وخرجت في صمت مع كلبتي الصغيرة. ولمّا عدت، كان أبي قد انصرف. كان بإمكانه أن ينهي عقوبته وهو واثق من أنّ بيتاً ينتظره عندما يغادر السجن.

وابتدأت لعبة أخرى دعتني أمّي للمشاركة فيها، اسمها: «لمّا يعود أبوك إلى البيت».

30

كنت أعلم أنّ الأيام التي فضُلت لي بالملجأ معدودة. ذلك أنّ أمي صارت تعتمد عليّ اعتماداً كاملاً. لم تعُد تقوى على بلع الطعام الصلب، وصارت لا تقتات إلّا على السوائل بواسطة الملعقة.

إنّ الانحناء على شخص ضعيف لا يستطيع حتى البلع لإطعامه بالملعقة عمل شاق يقصم الظهر، وقد كنت مضطرة للقيام به ثلاث مرّات في اليوم. من اعتاد على الحبّ صعُب عليه التخلّص منه على حدّ قول الكاهن. كنت حزينة على رحيل أمّي، وانتابتني رغبة في البكاء على كلّ تلك السنوات التي ذهبت سدى. لم يكن من الهيّن عليّ أن تغادر هذا العالم، لكنّني كنت أتمنى أيضاً أن تكفّ عنها الآلام. فقَدَت ملكة الكلام، ورغم ما كانت تبذله من جهد للتلفّظ، لم يكن يخرج من حلقها شيء. كنت أمسك بيدها وأطمئنها بأنّ عجزها عن النطق لا يضيرني، فنحن لم نعُد بحاجة إلى الألفاظ لكي نتواصل.

عبّرت لها عن حبّي. لو كانت تستطيع الكلام لطلبتْ منّي المغفرة. فقد طردت من ذهني إمكانية ألا تكون راغبة في ذلك. الآن وقد أصابها الخرس، لم أعُد أخشى أن يخيب ظنّي.

كانت تلك هي ليلتها الأخيرة في تلك الغرفة المشتركة. كانوا

ينوون نقلها إلى غرفة منفردة في صباح اليوم الموالي. بدا منظرها مؤثّراً. رغم أنّ السرطان أنحلها وهدّها، ما زالت متمسّكة بالحياة. برزت عظامها حتّى اخترقت بشرتها، وضُمّدت مفاصلها بضمادات سميكة لحمايتها. كما وضعوا قفص حديد تحت ساقيها لكي لا يلامسا الأغطية القطنية. ذلك أنّ أبسط احتكاك بين بشرتها والثوب يسبب تقرحات دامية.

بينما كنت أتمطّى لأخفف ما كنت أشعر به من ألم في ظهري، سمعت صوتاً سبق أن سمعته في الملجأ. كانت حشرجة الموت تلك آتية من السرير المقابل. ورأيت أمّي تتطلّع بنظرة مرعوبة: حتّى في لحظة الاحتضار، لا يحبّ الإنسان أن يذكّره أحد بالموت. فرغم تضرّع المرضى من أجل الخلاص من آلامهم، فإن ما يتمنونه هو نهاية الآلام لا نهاية حياتهم.

ربتّ على يدها برفق ثمّ هببتُ لاستقدام إحدى الممرضات. ما إن وصلت إلى الغرفة حتّى سَحبت الستار حول السرير، مؤكّدة بذلك ما تبادر إلى ذهني، لا سيما وأنّ الحشرجة توقّفت: ماتت ميري.

رحت أفكّر في تلك المرأة وأنا أطعم أمّي بالملعقة. شغلت السرير المقابل لسرير أمّي منذ وصولي. كانت امرأة مرحة ومحبوبة بالنظر إلى عدد الأشخاص الذين عادوها. كانت مولعة بالموسيقى الكلاسيكية ومقبلة على الحياة. بدا وجهها متهلّلاً وهي تُطلعني على صور أسرتها، وكانت تضحك ضحكات مكتومة وهي تحدّثني عن ذكريات زوجها الذي رحل منذ سنوات عديدة. وقد سررتُ لرحيلها السريع قبل أن تصير حياتها متوقّفة على المورفين.

أما صاحبة السرير المحاذي لسرير ميري التي دخلت الملجأ ذلك اليوم، فهرعت إلى الحمام وقد بدا عليها الانزعاج. واصلتُ

إطعام أمي سائلاً لم تعُد تستسيغه. وعادت المريضة إلى سريرها من دون أن تنبس، وسمعتها تتنهّد بعمق، ثمّ صمتت. كنت شاهدة على موتها السريع من دون أن أعرف حتّى اسمها. علمت لاحقاً أنها تدعى ميري هي الأخرى.

قرعت الجرس لتأتي الممرّضة. رشقتني بنظرة متسائلة وهي تدخل الغرفة، فأومأتُ برأسي باتّجاه السرير رقم ثلاثة. سحبت الستارة مرّة ثانية، وخيّم على الغرفة صمت ثقيل: لم يبقَ في الغرفة عدا أمّي وسيّدة عجوز لم تكن حالها على ما يرام حسبما لمحتُ بطرف عيني. نادتني، فوضعتُ الملعقة واقتربتُ منها.

قالت لي بصوت متهدّج إنّها لا ترغب في البقاء في تلك الغرفة. ساعدتها على مغادرة سريرها، ألبستها بلطف ثوبِ نومها، ورافقتها وأنا أسندها إلى الصالون الخاص بالمرضى. شغّلتُ التلفزة، ثمّ عدتُ إلى الغرفة حيث ترقد جثتا العجوزين، وجلست بجوار العجوز الثالثة التي لم يفضُل من حياتها غير ساعات معدودة.

أبعدتُ الكرسي قليلاً من سرير أمّي وقد نال منّي التعب، فانتبهتُ إلى أنني استندت إلى قدمَي ميري. قلت في نفسي لو كانت لا تزال حية لضحكت من هذا الأمر، لكن الابتسامة لم تجد لها طريقاً لوجهي. جاءت مجموعة من الممرّضات لمساعدة أمّي في سريرها، ففتحتُ خزانتها وأخرجتُ نصف زجاجة الشراب التي أودعتها هناك. كنت أعلم أنّها لن تشرب معي كأساً أخيرة قبل أن ننام. ذهبتُ إلى صالون الزوار، وشربتُ مباشرة من الزجاجة من دون أن أبحث عن قدح.

أشعلتُ سيجارة، واتّصلت بإنجلترا. كنت بحاجة إلى سماع صوت غير أصوات الأنين وحشرجة الموت.

قال الصوت القادم من عالم هجرته منذ مدّة، عالم بدا بعيداً عني بسنوات ضوئية: «نحن في حفل عشاء، وأنت، ماذا تصنعين؟».
كان بودّي أن أجيب: «جالسة بجوار جثتين وأمّي المحتضرة»، لكنّي أجبتُ: «أشرب كأساً». ثمّ أنهيت المحادثة ورفعت الزجاجة وشربت جرعة كبيرة.
نُقلت أمّي في اليوم الموالي إلى غرفة مجاورة، وقضيت يومين بجانب سريرها، لا أكاد أبرحه. وفي الليلة الثالثة أسلمت الروح. بينما غفوت وأنا أستريح في الصالون مساء، جاءت ممرضة الليل في إثري، فعلمتُ بما وقع من دون حاجة إلى سؤال. أعلنت وهي تضع يدها على كتفي: «إنّها تحتضر يا توني». قمت وتبعتها إلى الغرفة.
كانت هامدة، بالكاد تتنفس، مغمضة العينين. لم يتحرّك جفناها لمّا أمسكت بيدها، وازرورقت أصابعها.
سألت: «أتسمعني؟».
أجابت الممرضة: «يُعتقَد أنّ السمع هو آخر حاسة يفقدها الإنسان. لا تقلقي يا توني، سأبقى بجانبك إن شئت».
حاولتُ الاتصال بأبي. ناديت على الرقم الأوّل فلم يجب، فاتّصلت بالرقم الثاني، رقم بريتيش ليجيون كلوب.
قلت له بصعوبة: «أمّي تحتضر. ستموت هذه الليلة» ثمّ سألته إكراماً لها: «هل ستأتي؟».
أجاب بصوت يشي بالسُّكر: «أنت تعلمين أنّني لا أستطيع السياقة ليلاً». كنت أسمع الضحكات والموسيقى التي تملأ المكان. ردّدت وأنا لا أصدّق ما أسمع: إنّها تحتضر. قلت له إنّها ترغب في أن يوجد بجانبها، وأنّه يستطيع أن يستقل سيارة أجرة، لأنّها لن تعيش حتّى الصباح.

أجاب بنبرة حاسمة لم تكن خافية عليّ: «ألستِ بجانبها؟ ماذا بوسعي أن أفعل من أجلها؟».

وددتُ أن أصرخ في وجهه وقد أصابني الذهول: «بوسعك أن تحضر أيّها النذل الأناني! أن تكون بجانبها! أن تودّعها، أن تدعها ترحل وهي مقتنعة بأنّك أحببتها، وأنّها لم تخطئ حين ضحّت بالغالي والنفيس من أجلك!».

عوض أن أقول له هذا، أقفلت الخط من دون أن أنبس، وعدتُ إلى غرفة أمّي.

قلت لها وأنا أومئ بعكس ذلك للممرضة: «أبي قادم»، ثمّ أمسكتُ بيدها.

كان تنفسها يتوقف بين الفينة والأخرى، وفي كلّ مرّة كنت أشعر بمزيج من الرعب والعزاء، وهو الشعور الذي يحسّ به مَن يسهر على رعاية شخص يُحتضر. كان تنفسها يتوقف لثوانٍ ثم يعود تصاحبه حشرجة خفيفة. كانت تعيش آخر لحظاتها.

تذكّرت ما قالته لي الممرّضة من أنّ السمع هو آخر حاسة يفقدها الإنسان، فرحت أحدّثها عن اللحظات الجميلة التي قضيناها معاً. حكيت لها عن كلّ ما خطر ببالي وما تخيّلت أنّه سيثير بسمتها إن كانت واعية. أردتُ أن تذكّرها هذه الكلمات الأخيرة بأسعد اللحظات، ذكريات ترافقها في رحلتها الأخيرة.

قضت إذن ليلتها الأخيرة من دون أبي، الرجل الذي تفانت في حبّه طيلة نصف قرن، لكنّها كانت محفوفة بممرّضة وبابنتها التي طالما نبذتها. وتخيّلت وحدتها وهي تتأهّب لهذا السفر الأخير.

لعنتُ أبي تلك الليلة في صمت، وقلت في نفسي إنّها خطيئته الأخيرة، وابتهلت ألّا تعود أمّي إلى وعيها فتنتبه لغيابه. فلْتَمُتْ قريرة

العين من دون أن تشهد حلمها يتحطّم. وقد أسلمت الروح قبيل الفجر. صعدت من حلقها حشرجة خفيفة، ثمّ تأوّهت ولفظت أنفاسها الأخيرة. وانتهى الأمر.

شعرتُ بشبح أنطوانيت يختلج بداخلي، وتمنيت أن ترقد الآن في سلام.

تلاشت ذكرياتي، تنبّهت وأنا غافية إلى أنّني ما زلت جالسة على المقعد بجانب سرير أمي. كنت جائعة، وتهيّأ لي أنّني أشمّ رائحة بيتزا نفّاذة أُخرِجت لتوّها من الفرن. وتراءت لي، كما في حلم، بيتزا بالجبن الذائب والسجق، موضوعة على مائدة معدّة على نحو بديع، وبجانبها زجاجة نبيذ. قلت لنفسي وأنا أقوم لإحضار قهوة: عليك بساندويش بالتونة!

لأوّل مرة منذ زمن بعيد فكّرت بكيفية موضوعية في علاقتي بوالديّ. لماذا لم أقطع علاقتي بهما قبل ذلك بسنوات؟ كنت عاجزة عن الإجابة عن هذا السؤال. لعلّني كنت بحاجة إلى التمسّك بحلم أنّ لديّ عائلة مثل سائر الناس. هل كانت حياتي ستكون مختلفة؟ وهل كنت سأتّبع السّبل نفسها لو امتلكت الشجاعة اللازمة للرحيل؟ هل كان حبّي لأمّي مصدر قوّة أم ضعف؟ هل كانت أنطوانيت ستستمرّ في ملازمتي؟ وتذكّرت صورة قدّمتُها لطبيبة نفسانية طرحت عليّ أسئلة شبيهة بهذه.

«تستطيع أن تشيّد منزلاً وتزيّنه، وتجعله يبدو في أبهى حلّة، وتملأه بالأشياء الجميلة. ويمكن أن تحوّله إلى موئل للنجاح والثروة مثلما فعلت بشقّتي في لندن، أو يمكن أن تجعل منه منبعاً للسعادة والهناء. لكنّك إن لم تحرص على بنائه على أرض صلبة، وإقامته على أسس متينة، ستتصدّع جدرانه مع مرور الأيام. يستطيع أن

يصمد لسنوات إن لم يأتِ عليه إعصار، لكن إذا ما عصف الجو لا يلبث أن ينهار، لأنه مهزوز الأركان».

«إن أحسنتَ طلاءه وزيّنتَه بستائر فاخرة، ستتمكَّن من إخفاء أسسه المضعضعة، بحيث لا يستطيع إدراك ضعفه إلّا عين الخبير. . ».

ثمّ أضفت وقد بدت على وجهي ابتسامة ساخرة: «والخبير هو أنت، إذا كان الإنسان هو المقصود بالمنزل».

قلت في نفسي إن ذلك هو سرّي الذي حرصت على إخفائه، لكنّه كان أيضاً جواباً عن أسئلتي. لو أنني لم أعش حياة الراشد تلك، لما بقيتُ على قيد الحياة. كنت أعرف حدودي، وحرصتُ دائماً، بدرجات متفاوتة من النجاح، على ألّا أتجاوزها.

خاتمة

ما زال الناس في المدن الإيرلندية الصغيرة يحترمون طقوس الجنائز الموروثة. فالرجال هم مَن يسيرون خلف النعش. يرتدون سترات سوداء، ويضعون عصابات سوداء حول أذرعهم، ويلبسون قمصاناً بِيْض عليها ربطات عنق سوداء. الرجال هم من يشيّعون الميّت إلى مثواه الأخير. أمّا القسّ والنساء، فكانوا يتبعونهم بالسيارات. يصل النساء إلى مدخل المقبرة، ثمّ يقفلن راجعات لكي يُهيّئن الطعام للرجال عند عودتهم. لم يكن يُسمح للمرأة بأن تهيل التراب على الميّت، ولا تأتي النساء لتوديع الفقيد إلّا في اليوم الموالي، بعد أن يكون القبر قد زين بالزهور.

ارتديتُ معطفي، واستعددت لمواجهة الرياح، لأنّ رحيل أمّي صادف نهاية أكتوبر، ثمّ غادرت الغرفة التي كانت ترقد فيها جثّة أمّي خلال القداس الديني. كان وجهها هادئاً، وتمنيت أن تكون روحها كذلك.

جُلْتُ ببصري في الجمع. كان يضمّ أصدقاء آزروني، واعتنوا بأمّي، ولمحتُ أبي ورُفقَتَه. وتساءلت مَن منهم كان يشرب معه عندما هاتفته من الملجأ؟ هؤلاء الرجال الذين جاؤوا لمواساة الأرمل

الباكي يعرفون تمام المعرفة أنّه لم يحضر موت زوجته، وهم مَن سيحملون نعش أمّي ويتبعونه إكراماً لها.

تجاهلت السيارة التي كانت تنتظرني، والتي كانت ستحملني إلى المقبرة، وتوجّهت نحوهم ثمّ وقفتُ أمام أبي. فبِمَوْت أمّي تلاشت آخر آثار شبح طفولتي. لم يكن هناك إلّا أنا وهو، ولا أحد سوانا. حدّقت في عينيه ولم أشعر بالخوف الذي لازمني في صغري. ارتسمَتْ على وجهه ابتسامة بئيسة، وقلت له وأنا أشير إلى مَن كانوا يحيطون به: «فليمشوا خلفي».

تنحّى جانباً، لأنّه فهم منذ ذلك الحين أنّه فقد أخيراً زمام الأمور، وأنّ التعاطف بيني وبينه انتهى بعد ما وقع بالملجأ. أخذ مكانه بين مَن يحملون النعش من دون أن ينبس. رفعوا النعش، ووضعوه على أكتافهم، وانطلق الموكب يسير ببطء. استقمتُ في وقفتني مثلما كنت أفعل في طفولتي، وتبعتُ النعش مرفوعة الهامة، متقدّمة موكب الرجال.

يدي هي التي أهالت التراب على أمّي وليست يدُه. كنت المرأة الوحيدة التي ودّعَتْها بين مَن كانوا يحيطون بقبرها، ثمّ غادرتُ وحيدة إلى السيارة التي كانت بانتظاري.

وفي اليوم الموالي عدت إلى إنجلترا، إلى عالمي الذي تركته، وأنا أعلم أخيراً أنّ أنطوانيت، شبح طفولتي، قد استرجَعَت سكينتها.

توني ماغواير

لا تخبري ماما

كنتُ أثق في حبّ أمي لي.

ستطلب منه أن يتوقّف.

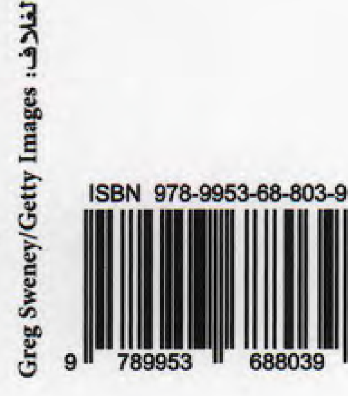
لكنّها لم تفعل.

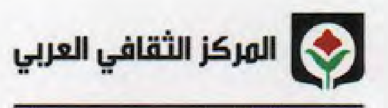
❖ ❖ ❖

قصة طفلة صغيرة عانت من غدر مَن يُفتَرض أن يحميها: والديها.

كتاب على قدر كبير من الأهمية، يشهد على ما تتحلى به الكاتبة توني ماغواير من شجاعة وإيمان قوي بالحياة، على الرغم من الظلم الكبير الذي تعرضت له.

صورة الغلاف: Greg Sweney/Getty Images


ISBN 978-9953-68-803-9


المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com